

وزارة الثقافة والأرشاد
مديرية الثقافة العامة

سلسلة الكتب الحديثة
١٥

الواقعية في الأدب

تأليف
عباس خضر

وزارة الثقافة والأرشاد
مديرية الثقافة العامة

سلسلة الكتب الحديثة
١٥

مجموعتي واقعة

الواقعية في الأدب

تأليف
عباس خضر

شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net

رابطه بديل < mktba.net

الواقعية في الأدب

بين حين وآخر يرد في فصول النقد والدراسات الادبية ذكر « الواقعية » وتتردد كلمات مثل « الأدب الهادف » و « الفن للحياة » و « الالتزام في الأدب » فيرضى قوم ، ويعارض آخرون • ويلتبس الأمر على عقلاء المعارضين ، اما من سوء التعبير عن المقصود ذاته ، اذا كان غير سديد ، واما من سوء الفهم •

والخلاف في ذلك ، وما نشأ عنه من مذاهب أدبية ، ليس جديدا ، فقد ثار عندنا ، وتكرر ، منذ تعددت الاتجاهات في أدبنا الحديث • وكان ذلك تأثرا بطيئا لما أثير حول ذلك في أوروبا منذ القرن التاسع عشر • وأظن أن الأمر عندنا لم يتشكل بعد حسب طبيعتنا وما يلائم حياتنا وتطورها ، فلا يزال معظم ما يقال واردا من الخارج ، لم يتم تأقلمه ، وان كان قد أخذ في التأقلم • وسأحاول بهذا الموضوع أن أخطو في سبيل التعبير عن ذاتنا والانبثاق من داخلنا •

لاشك أن « الواقعية » كمذهب أدبي أو فني كلمة جديدة ، صيغت هكذا لتدل عليه ، على اختلاف ما أطلقت عليه وما أريد لها من الدلالات ، وهي نسبة الى الواقع • أما دلالتها اللغوية بمعنى تصوير الواقع والتعبير عنه ، فهي قديمة قدم الأدب والفن ، أي أنها كانت موجودة قبل أن يكون لها أنصار وخصوم ، فالإنسان منذ بدأ يعبر عن وجدانه انما كان يتناول واقعه وواقع من حوله من الناس والأشياء ، مرة يصور الواقع مجرد تصوير وأخرى يستهدف بتصويره أغراضا أخرى • كان الشاعر – مثلا – يدافع عن قبيلته ويفخر بأمجادها ويستحثها لقتال أعدائها ، ويهجو هؤلاء الأعداء ،

وكان أحيانا يرتفع الى المستوى الانساني فيفند الحرب ويحذر من أهوالها ويدعو الى التعايش في سلام ، كما فعل زهير بن أبي سلمى في العصر الجاهلي •

ويروى توفيق الحكيم في كتابه « فن الأدب » عن العلامة « موريه » مذكره في كتابه « النيل والحضارة المصرية » من « أن الفن والأدب والعلم أشياء كانت دائما في خدمة الدين والدولة •• وأن مصر القديمة ما عرفت الا في النادر ما يسمى بالثقافة الخاصة والفن للفن والبحث العلمي المقصود لذاته والتفكير النظري والأدب الشخصي •• وأن آثارها الكبرى بروحها الجماعي لا تحمل حتى اسم صانع بعينه ، وأنها كلها خاضعة لمذهب يتجه بكل دقة الى أهداف اجتماعية دينية •

وقد تخلى الأدب عن واقع الحياة في أطوار مختلفة ، كما كان في العصور الكلاسيكية حين أوغل الأدباء في محاكاة القدماء ، واتجهوا الى ميول السادة والحكام ومزاجهم في تذوق الفن والحياة ، فكان الأديب - من الناحية الفنية - يدين بطريقة القدماء يلتزم أساليبهم وأصولهم • ففي الغرب - مثلا - أصر النقاد والمؤلفون على ما كان متبعا في الفن المسرحي اليوناني القديم من وجوب توافر الوحدات الثلاث ، أى وحدات الموضوع والزمان والمكان ، في المسرحية ، كما قالوا بضرورة فصل المأساة عن الملهاة وعدم جواز الجمع بين الفواجع والمضحكات في مسرحية واحدة ، برغم اجتماعهما في الحياة الواقعة •

وعندنا كان ولا يزال يحدث في مثل ما عبر عنه المازني في كتابه « حصاد الهشيم » بقوله :

« اذا قلت أن حافظا أخطأ في كذا في هذا المعنى أو ذاك ، قال بعضهم : لم يخطئ حافظ ، وانما تابع العرب ، وقد ورد في شعرهم أشباه ذلك » • ومن الناحية الاجتماعية كان الأديب يتجه الى علية القوم وذوي السلطان الذين يرجو المثوبة عندهم ، ويربط أسباب معيشتهم برضاهم عنه ، فيجاريهم فيما يميلون اليه ، ويأخذ بأذواقهم ، فالحسن ما استحسوه ،

والقبيح ما استقبحوه •

كان الأديب الكلاسيكي يقول في غير ما يشعر به لأن القدماء قالوا فيه ،
أو لأن سادته يريدون أن يقول فيه • وكان على الشاعر أن يقول في جميع
أغراض الشعر حتى يعد من فحول الشعراء الذين لا يستعصى عليهم التعبير
صادقا أو غير صادق •• وكثير من الشعراء كانوا يصفون الخمر وفعلها في
النفوس دون أن يروها أو يذوقوها •• وكانوا يتغزلون ويعبرون عن
لواعج الشوق الى المحبوب وهم لم يحبوا قط •• انما كان ذلك تقليدا أدبيا
يتحلى به الشاعر ، وقد ظل ابتداء القصائد بالغزل الصناعي ، ثم الخلوص
منه الى ما يريد الشاعر من أغراض أخرى في القصيدة - ظل ذلك
متبعا الى عهد قريب •

وكذلك هرب الأديب الرومانسي من واقعه الى ضروب من الخيال
لا تعني شيئا الا البعد عن الحقائق والتجارب حتى أصبح قولهم : « هذا
خيال شاعر » تعبيرا عن المستحيل •

وأغرق الأديب الرومانسي في الانفراد بذاته والانطواء على آلام ربما
لا يكون لها وجود في واقع حياته ، واستعذب هذه الآلام ، وأصبحت عنده
غرضا مقصودا ، ولجأ الى الطبيعة ليندمج فيها بعيدا عن الانسان ، وليستمد
منها معاني وأخيلة لا صلة لها بالحياة الواقعة •

والأديب الرومانسي ، في هروبه من واقع الحياة ، يشبه شارب الخمر
ومدمن المخدرات •• كل منهما يطلب جوا غير الجو الذي يعيش فيه ،
فرارا من الواقع السيئ ، أو رغبة في تغيير الحياة المملولة •

وامتزجت ، عند كثير من الأدباء ، المحاكاة الكلاسيكية - وخاصة من
حيث التراكيب اللغوية - بالليل الرومانسي الى الاندماج في الآلام المتخيلة ،
فكان الواحد منهم - مثلا - يحب محبوبا « مجهولا » يظل يبحث عنه ،
لا في أماكن على سطح الأرض ، بل في قصص أو قصائد يصفونها بأنها
محلقة •• ويظل يعذب نفسه بآلام البعاد ويجري وراء سراب الوصال ••
وليس هذا العذاب موجودا الا فيما يقوله فقط ، ولا مصدر له الا الخيال ،

ولا أثر له الا في تعذيب الآخرين ممن يتمتعون مثله بالمزاج الرومانسي ..

وقد علمنا عن أديب مثل الرافعي ، أنه كان يحب .. لا لانه يحب فعلا .. ولكن لكي يستلهم الأدب من الحب . ويصرح هو بهذا كأنه أمر طبيعي ، وكأن الحب الصناعي حق من حقوق الأديب . وقد ألف الرافعي كتابا سماه « أوراق الورد » وجه رسائله الى حبيبته الصناعية .. وعبر فيه عن أفانين حبه لها ... والحب فنون .

كان اولئك الأدباء وامثالهم - ولا يزال عندنا من ينحو نحوهم - يهربون من الحياة المحيطة بهم ، اما الى القديم والفناء فيه ، واما الى الخيالات والاوهام والانطواء على الذات والتلذذ بالآلام . ومنهم من كان يمالئ الظلم والفساد في مجاري الملق والنفاق .. وواضح أن أدب هؤلاء وهؤلاء لم يكن للحياة ، بل كان موقفه منها اما سلبيا فارا من المسؤولية ، من ذلك النوع الذي أسميه « الأدب الهامد » واما معاكسا مناوئا لتقدمها ومعاونا على هدم قيمها ، وهو ما أسميه « الأدب الهادم » .

والجريرة في ذلك انما وقعت من المحدثين الذين ساروا على أثر السابقين وبعدوا عن الصدق في التعبير عن أنفسهم وعما يحيط بهم . أما آداب العصور الماضية فقد كانت - في جملتها - أو كان كثير منها صادقا من حيث الاستجابة للدواعي الاجتماعية والظروف الزمانية والمكانية التي نبع منها وعبر عنها بصدق .

كان أدبنا العربي في العصر الجاهلي - مثلا - أدبا واقعيا قبل أن توجد « الواقعية » كمذهب أدبي بمئات السنين ، أما محاكاته في العصور التالية والانشغال بها عن الاصاله ، فذلك ما نسميه بالأدب الانبعاثي (الكلاسيكي) وهو يقابل الكلاسيكية الغربية التي انهمكت في محاكاة الأدب اليوناني القديم والتمسك بأصوله وقواعده في العصور المتوسطة . ومن الانصاف للرومانسية أن نذكر أنها كانت في أول أمرها ثورة على الكلاسيكية ، كانت ثورة شعبية ضد كلاسيكية الحكام والارستقراطيين

وأدبائهم والدائرين في أفلاكهم • كانت ثورة القلب والاحساس الانساني على العقل المجرد القاسي ، وكان من أغراضها الحملة على سوء النظام الاجتماعي والانتصار للانسان الطيب بطبيعته • الانسان يحس بما في الطبيعة من حنان وجمال وعدالة لا يجدها في المجتمعات المدنية ، وشعر الانسان اذ ذاك بأن الطبيعة تعوضه عما يلقاه من ظلم أخيه الانسان • ثم تحولت الرومانسية وفسدت بعد أن استنفدت أغراضها الثورية ، وذلك عندما صارت تعبيرا عن « البرجوازية » المستغلة (بكسر الفين) وأصبحت بالمثابة التي سبق وصفها •

ومما يذكر ان ادباءنا العرب في أوائل النهضة الادبية الحديثة ، حينما أخذوا بالرومانسية الغربية كان ذلك بعد تحولها عن الأغراض الاولى ، بل بعد ان ثار عليها مذهب جديد هو الواقعية ، ولذلك لم يكن لرومانسيتها تأثير في التقدم الاجتماعي كما كان لرومانسية الغرب الاولى في المجتمع الغربي ، اذ خلخلت نفوذ الاقطاع وأفادت الطبقة المتوسطة • كانت هناك منبقة من ظروف اجتماعية دعت اليها ، وكانت هنا مجرد محاكاة •

ولما ظهرت النظريات العلمية التي تبحث في أصل الانسان ، وفي غرائزه وفي العلاقات الاجتماعية ، وكان الصراع بين الانسان العامل وبين الآلة وغير ذلك مما جد في المجتمعات الحديثة في القرن التاسع عشر - بدأ الادباء يفكرون متأثرين بالعلم الحديث وبالتطور الاجتماعي ، فرأوا ضرورة الخروج من العزلة الفردية وعالجوا الوجود الانساني من وجهة نظر الحضارة الحديثة الواعية ، ووجهوا أكثر اهتمامهم الى العلاقات الاجتماعية ، وتحليل التوازع الانسانية ، والبحث فيما يوفر السعادة للانسان ويؤمن مستقبله •

وصاحب ذلك انحسار النفوذ الارستقراطي والحكم الاقطاعي عن الجماعات والشعوب ، التي جعلت تأخذ اعتبارها ، وصار لها كيان ، وانبثق منها ادب يعبر عنها ، ودك الحصار الذي كان مضروبا حول الادب ليظل مقصورا على تناول شخصيات الملوك والامراء والقواد ومن اليهم ، وحطمت الاسوار ، فتسربت طبقات الشعب الى الادب ، وصارت موضوعات له ،

واصبح افراد الناس العاديون ابطلا في القصص والمسرحيات ، بعد أن كانت هذه البطولات من محتكرات السادة والأشراف وذوي الدم الأزرق النيل • على أن كيفية تناول هؤلاء العاديين قد اختلفت ، فكان الاتجاه أولا الى الذين برزوا من صفوف الشعب ، ثم حلوا محل أشراف الاقطاع وتناولهم الادب تناولاً ذاتياً مغرقاً في الذاتية بعيداً عن مضطرب الناس ومشكلاتهم • ثم صار الاتجاه الى هذه المشكلات ، فأصبح الافراد العاديون وآلامهم وآمالهم موضوعات للادب •

وتكون مذهب الواقعية في الادب من أثر دينك التيارين : العلمي والاجتماعي • وكانت الواقعية في أول أمرها غير ملتزمة ، وانما كانت - كما كان امتدادها ولا يزال - تعتمد على التصوير والتحليل : تصوير الطبائع والاشياء وتحليل الاهواء والنفوس • وسميت « الواقعية العلمية » وأطلق عليها كذلك « الواقعية الطبيعية » أو « المذهب الطبيعي » • ومن تعاليمها قول « زولا » رائدها الكبير : « ادرس طبائع الناس كما تدرس الفلزات ، وادرس تفاعلاتها » وقوله : « ان اهم ما اهتم به هو الجانب الطبيعي الفيزيولوجي • وأنا أحل القوانين العضوية كالوراثية والانتكاس (رجوع الانسان الى أصوله وطبائمه الاولى) محل المبادئ الكانوليكية الملكية » •

وكان زولا يرى كذلك أن الادب الواقعي هو الذي يصور الواقع الثابت ويشخص أمراض الجماعة ، ويكشف عن العلل الكامنة وراء الظواهر التي تخضع لسلطان العلم ، وأنه لا ينبغي للاديب أن يقحم عواطفه الشخصية الا في الظواهر التي لم يهتد الى تحليلها •

ونلاحظ في هذه المبادئ ثورتها على الرومانسية من حيث تنحية العواطف الشخصية وتضاؤلها أمام العلم ، فقد كانت الواقعية ثورة على الانطلاق العاطفي الرومانسي ، ولكنها كانت مبالغة في التقليل من شأن العواطف الشخصية ، وفي الاتجاه الى العلم •

وأهم خصائص الواقعية الطبيعية هو وصف طبائع الانسان وحقائق الاشياء ، أي الحياة الطبيعية ، وتحويلها الى فن يطابق الواقع ، وقد هوجمت

حق في نقطتين : الاولى مبالغتها في مطابقة الواقع بحيث يكون صورة طبق الاصل ، والنقطة الثانية ما اشتملت عليه بعض أعمالها التطبيقية من وصف للشباعات والشدوذ والامور الغريبة • ولا تزال تلك المبالغة وهذا الوصف ملحوظين فيما يكتب عندنا من قصص ، كما لا يزال في بعض القصص العالمية •

يناقش « فيكتور هوجو » المطابقة التامة بقوله :

« اظن انه قد قيل : أن المسرحية مرآة تنعكس فيها الطبيعة ، الا أن هذه المرآة اذا أريد بها أن تكون مرآة عادية لها سطح أملس مستو ، لما أمكنها أن تعكس لنا الا صورة فقيرة للاشياء ، صورة محجمة صادقة ، لكنها صورة لا حيوية فيها ، فمن المعروف أن اللون والضوء مفقودان في الصورة المنعكسة ، ولهذا وجب أن تكون المسرحية مرآة بؤرية ، أي تجمع الاشعة الملونة وتكثفها ، بدلا من ان تجعلها ضعيفة واهية • • مرآة تجعل من الشعاع ضوءاً ، ومن الضوء منارا • وهنا فقط تستحق المسرحية أن تكون فنا » •

وقديما حمل أفلاطون على الادباء والفنانين ، لانهم يقلدون الحياة فلا يزيدون على أن يخلقوا مرآة للطبيعة ، ويصوروا مظهرها دون حقيقتها ، وهم بذلك يخدعون الناس ويوهمونهم بأن ما يقدمونه لهم هو الحياة نفسها ، وقال أفلاطون : ان الفنان الحق الذي يعرف ما يقلده خليق بأن يهتم بالحقائق نفسها لا بتقليد الحقائق ، وتساءل عن أثر الشعراء في الحياة ونفعهم للمجتمع ، وهل اوجدوا للناس حياة أفضل ومجتمعاً ارقى • ولم يكن أفلاطون بذلك موجهاً للشعراء والفنانين داعياً لهم الى الاستهداف ، كما يتبادر من هذا التساؤل ، انما كان ينكر وجودهم ولا يرى له ضرورة في مدينته الفاضلة لان كل عملهم - في رأيه - هو التصوير العقيم للحياة •

على ان اصحاب الواقعية الطبيعية لم يخل كلامهم عنها من أنهم يرمون بالتصوير والتحليل الى تشخيص أمراض الجماعة كي يتيسر للاصلاحين علاجها ، قال « زولا » عن احدى رواياته :

« ليس من غرضي ان ادافع عن سياسة أو عقيدة ، انما أنا ملاحظ ومحلل
بغير موعظة • واذا كان لابد لروايتي من نتيجة فان هذه النتيجة هي بيان
الحقيقة الانسانية • وللمشرعين والاخلاقيين بعد ذلك أن يستخلصوا النتائج
من عملي » •

ويقول « زولا » كذلك في هذا المعنى :
« اننا نقدم الوثائق اللازمة لان يتبين الخير من الشر ، وعلى المشرعين
أن يكافحوا الشر ويشبوا الخير » ويقول :
« انني أعرض ما أرى ، واترك للاخلاقيين استخلاص الدرس ، انني
ابتعد عن استنتاج أي شيء في روايتي » •

ونستطيع أن نلاحظ الشبه بين منهج « زولا » وما جرى عليه قصاصنا
الكبير نجيب محفوظ وخاصة في رواياته الاولى التي تنتهي بالثلاثية المشهورة •
ومن أوجه الشبه بين الكاتبين اعتناقهما نظرية الوراثة ، وهي واضحة في
ثلاثية نجيب محفوظ • وقد لجأ نجيب بعد ذلك الى « الرمز » في معظم
رواياته وقصصه القصيرة •

أما وصف البشاعات والغرائب وفظائع الامور ، الذي اشتهت عليه
بعض أعمال الطبيعيين ، فقد غالى فيه هذا البعض حتى جعلوه أقرب الى
الرومانسية من حيث الاسراف في الخيال والبعد عن العادى المألوف ، وتنسب
هذه الاعمال الادبية الى الواقعية باعتبار أنها تتناول الامور التي يمكن ان
تحدث في الواقع ولكنها لاتحدث عادة ، وهي على خلاف الواقعية التي تتناول
ما يجرى فعلا في الحياة أو ما هو على نمطه •

وقد نهج نجيب محفوظ هذا المنهج : وصف البشاعات والبعد عن
العادى المألوف ، في بعض رواياته وخاصة في « زقاق المدق » مما جعل
الدكتور لويس عوض يسلكه في عداد الرومانسيين عندما كتب عن ثلاثيته •
وقد غفل الدكتور لويس عوض عن عنصر أساسى في الرومانسية ،
وهو التسامي ، بمعنى ان غير العادى يكون تناوله في الرومانسية بطريقة
ترتفع به فوق الواقع المألوف نحو اهداف مثالية • وليس الامر كذلك في

قصص نجيب محفوظ ، فيما عدا القليل ، ولعل هذا القليل بالتحديد في تصوير شخصية « كمال » التي انتزعها الكاتب من نفسه ، وعبر من خلالها عن أحلام شاب تصطدام مثالياته بواقع من حوله وخاصة والده « أحمد عبد الجواد » .

وممن عارضوا الاتجاه الى الغرائب وغير العادى ، الكاتب الروسى العالمى « انطون تشيكوف » الذى كتب يقول :

« ان الناس لا تذهب الى القطب الشمالى وتسقط من فوق جبال الثلج ، انما هم يذهبون الى أماكن أعمالهم ويتناولون حساء الكرنب » ويقول أدينا « المازني » في هذا المعنى بكتابه « حصاد الهشيم » :

« ان القدرة الفنية ليست في الاغراب وتكلف المحال واللاتيان بما لا يكون ، بل في حسن اختيار التفاصيل المميزة كما يقول « تين » في فلسفة الفن ، وانه من أفحش الغلط أن يتوهم المرء أن الفة الشيء يجعل تناوله اسفافا وبذء سموا » .

وبعض الكتاب يعتمدون على الشذوذ والغرائب والاثارة ، كي يغطوا بذلك خلو أدهم من مضمون يهدف الى رسالة ، فهم يرضون في القارىء رغبته في التطلع الى معرفة الاشياء الغريبة أكثر مما يؤثر في تأثيرا نافعا .

ولما قامت المعركة بين مذهبي « الفن للفن » و « الفن للحياة » اتجه أنصار المذهب الثانى بالواقعية نحو الاستهداف ، ورأوا انه لا بد لتصوير الاشياء والاشخاص من هدف . والواقع ان هجوم انصار الحياة يوجه الى الرومانسيين والكلاسيكيين والطبيعيين جميعا ، ولكن الرومانسيين والكلاسيكيين هم الذين يتحمسون للدفاع ، أما الطبيعيون فهم غالبا يحسبون أنفسهم في صف الفن للحياة لانهم يرون أن تصويرهم للحياة كما هي في الطبيعة يخدمها على نحو ما قال به « زولا » . ولكن الهادفين لا يرون مجرد التصوير يكفي ، وهم يتمسكون بالصدق في تصوير الشيء على حقيقته ، كما يفعل الطبيعيون ، ولكن لا بد من هدف . وقد أوضح ذلك « انطون

تشيكوف « في رسالة قال فيها :

« دعني اذكرك بأن الكتاب الخالدين أو على الأقل ذوى الموهبة ،الذين يهزون نفوسنا ، لديهم سمة مشتركة بالغة الاهمية ، هي أنهم يتجهون الى شىء ، وأنهم يدعونك اليه ايضا • وأنت تحس - لا بعقلك - وانما بكيانك كله ، أن لديهم هدفا • بعضهم لديه أهداف مباشرة ، كالقضاء على الاقطاع وكحزير البلاد وكالسياسة ، أو الجمال ، أو مجرد الفودكا •• وآخرون لديهم أهداف بعيدة ، كالله ، وكالحياة بعد الموت ، وكسعادة البشرية ،وهكذا • وأن أفضلهم كتاب واقعيون يصورون الحياة كما هي • ولكن على الرغم من ان كلا منهم يستغرقه هدف واحد ، فانك تحس في اعمالهم لا مجرد الحياة كما هي ، بل تحس بالحياة كما ينبغي ان تكون ، وان هذا ليأسرك • أما نحن •• أجل نحن ، فاننا نصور الحياة كما هي ، أما فيما وراء ذلك فلا شىء على الاطلاق • وأنا شخصا لا اخشى الموت والعمى ، وان الانسان الذى لا يريد شيئا ولا يأمل في شىء ، ولا يخشى شيئا ، لايمكن ان يكون فنانا » • على ان تشيكوف نفسه لم يكن خاليا من الهدف ، انما هو اسلوب في نقد المعاصرين ، فهو يدخل نفسه في زمرة المنقودين حتى لا يظهر في مظهر الذى يدعى لنفسه التفرد •

أو قل أنه كان كما يصف نفسه في المرحلة الاولى من انتاجه غير الهادف ، الذى تحول بعده الى انتاج مسدد الى غايات اجتماعية • فتصوير الشىء على حقيقته أمر مسلم به عند الواقعيين الهادفين ، كما هو غرض مهم عند الواقعيين المصورين ولكن رؤية الشىء تختلف •• فأصحاب التصوير يرون الاشياء بطريقة حسية ويسجلونها تسجيلا قد يكون بارع التصوير ممتعا ، هذا فقط •• ولكن ذوى الاهداف يرونها رؤية حسية فكرية ثقافية ، ويؤلفون من الوانها المختلفة ما يعطى دلالة ويؤدي رسالة •

الواقعية الواعية هي التي تنظر الى الانسان ، لا على أنه صورة ترسم للمتعة والتسلية ، بل باعتباره كائنا اجتماعيا متطورا ، وان تطوره يكون بتحسين واقعه ، وتهيئة الفرص لكي يستكمل سعادته في الحياة • فالواقعية

تصور الواقع لتطويره وترقيته ، لا لخراج صورة تعجب وتبهر • •
وليس الامر في الواقعية الهادفة أنها تحقق اى غرض ولو كان مجرد
متعة جمالية تسر وتبهج ، ولا انها تعبر عن أى حياة ولو كانت حياة فردية
منفصلة عن واقع الجماعة واهتماماتها ، فأنا نريد بالحياة التى يعبر عنها الادب
الواقعي الهادف ، ما يقع في البيئة التي يعيش فيها الانسان ، وما يستطيع
الاديب الموهوب ان يربطه بما يقع في العالم الاوسع ، منعكسا هذا او ذاك
على حسه ومشاعره •

ومن هنا تختلف مع الذين يقولون منكرين : وهل هناك ادب او فن
يعبر عن غير الحياة ، فنحن نقصد الحياة بمعناها الاجتماعي الذي لا يتحقق
الا بالتعايش والتعاون • ولست ادري لماذا يكون التعبير عن الوجدان الفردي
جميلا وفنا اصيلا ولا يكون التعبير عن الوجدان الاجتماعي كذلك •
وان مجرد الجمال الفني واحداث السرور في نفس الملتقى دون ان
يكون وراءه ، اى هدف ، انما هو شيء يخدر الشعور ، ويولد التفكير ، ويدعو
الى الانزلال والانانية ، ويبعد عن المشاعر الجماعية التي يجد فيها الانسان
الاجتماعي لذته وسروره • وليس معنى هذا اهمال الجمال والمتعة في الادب ،
فان الادب - بحكم انه فن - لابد له من الجمال والامتع ، والموهوب هو
الذى يستطيع ان يث رسالته وهدفه في التصوير الممتع • والجمال ليس في
وصف الشيء الجميل ، ولا في الاسلوب الجميل ، وان كان هذا من اسباب
الكمال في الادب ، ولكن الجمال في الفن اعمق من ذلك • • انه في نفس
الاديب أو الفنان ، يشه في تعبيره ، فقد يصور شخصا دميما ، أو سلوكا منفردا ،
أو أي شيء غير جميل ، ولكننا نشعر بجمال روح المبدع في عطفه وانسانيته •
والامتع ضروري لجدوى الهدف وضمان تقبله ، اذ يشعر الملتقى ان
التجربة تجربته ، فيقتنع بما ترمي اليه ، وبغير ذلك يشعر انها وعظ أو دعاية،
فهى شيء خارج عن نفسه يملى عليه ، ولهذا يفسد الادب اذا ظهرت فيه
الشعارات وغلب فيه التعبير المباشر على التصوير الفني • وهذا ما يسمى
« الادب الهاتف » •

والواقعية الهادفة تتحقق بكل تعبير فني عن الواقع الاجتماعي يستهدف تثبيت ما فيه من قيم اصيلة صالحة وتعميق ما اخذت فيه او تصبو اليه الجماعة او الانسانية من قيم منشودة ، وتغيير ما في المجتمع من قيم فاسدة واطلاق سيئة ومفاهيم مضللة .

وكل شيء في الحياة يصلح للتناول الادبي مادام موضعاً لانفعال الاديب وتأثيره ، فالفنان الاصيل يمس الحجر بعصاه السحرية فيحيله الى فن ينبض بالحياة ، فليست هناك موضوعات معينة تصلح واخرى لاتصلح ، والاديب يصدر عما يفعل ويتأثر به كائناً ما كان .♦ سياسة كان أو اجتماعاً أو اقتصاداً أو غير ذلك ، وتعبيراً عن طبقة شقية أو سعيدة ، شعبية أو متوسطة أو عالية . وتستجد من كل طبقة وكل ناحية من يعبر عنها ، وسيجد كل منهم من يقرأون له ♦♦

وليتناول الاديب ما شاء ، حتى الزهر والقصور والحب ، على أن يكون ما يكتبه موجهاً الى صالح الانسان وتطويره . وقد رأينا كثيراً مما كتب في الحب يستهدف اغراضاً اجتماعية ووطنية ♦♦ حتى قصة « مجنون ليلى » فهي تتضمن نقد عادة كانت شائعة عند العرب ، اذ كان الاب يرفض زواج ابنته ممن اشتهر بحبها ، ومن المشاكل التي تعالج خلال الكتابة عن الحب ، تزويج الفتاة بغير من تحب ، وتزويج الفتاة الصغرى قبل الكبرى ، وعلاقة الابوين بزوجة ابنتهما أو زوج ابنتهما ♦♦ الخ .

الواقعية تتفق مع الرومانسية في تمجيد الحب ، ولكن الثانية تغرق فيه من ناحية الالم والعذاب ، والاولى تستجيب لدوافعه في بناء الحياة ♦

ومن اشهر ما يوجه الى استهداف الادب « الحرية » ♦♦ اذ يقال كما قال الدكتور طه حسين في كلمته بمؤتمر ادباء العرب الثالث : « ينبغي ان يكون الاديب حراً لا يعتوره شيء ليستطيع أن يؤدي دوره حقاً » ونحن لا نعارض حرية الاديب ، بل نحرص عليها مثل ما يحرص المخلصون من المنادين بها ، ولكن الامر كما قال الدكتور طه حسين عقب ذلك مباشرة : « ومع ذلك فليس الاديب كائناً مطلقاً يعيش في الهواء ، انما هو انسان

مواطن ، عليه واجبات لمواطنيه ، وله على وطنه حقوق ، *
واستاذنا الدكتور طه حسين كثيرا ما يفصل حرية الاديب عن واجباته
نحو المجتمع ، ويتخذ الاولى سببا الى معارضة الاتجاه بالادب نحو خدمة
الحياة ، وعلى أي حال نحمد له الجمع بين الامرين المتكاملين في تلك العبارة *
ومما يذكره المتذرعون بالحرية الى اخلاء طرف الاديب من التبعية
الاجتماعية ، تقييد الكاتب بالكتابة في موضوعات ونواح معينة ، وترك موضوعات
ونواح أخرى ، وهذا الاعتراض لا موضع له في واقعيتنا الهادفة التي لا وجود
فيها لهذا التقييد .

قيد واحد - ان صح ان يسمى قيدا - نريده * ان يكون للاديب هدف
بنائي ووجهة نظر في صالح مواطنيه وصالح الانسانية * ولا اقصد أن يلزم
الاديب بالهدف من خارج نفسه ، انما هو مواطن كأى مواطن صالح ، يعمل
في خدمة الجماعة ، وتدخل الاغراض الجماعية في وجدانه ومشاعره ، فيعبر
عنها من داخل نفسه تعبيرا حرا صادقا لا فرض فيه ولا تقييد * ولا شك أننا
نحب المواطن الذى يخدم مجتمعه بمختلف الوسائل كتوظيف ماله في
المؤسسات الاقتصادية النافعة ، وبذل ما يملك من جهد ونفوذ في خدمة
الآخرين ، وكذلك نحب الاديب الذى يوظف ادبه في خدمة المجتمع وينفع
به الناس على أى وجه من وجوه النفع .

اننا نريد من الاديب أولا ان يكون نفسه ويعدها اجتماعيا ، ثم بعد
ذلك يعبر ، أما أن يبدأ التعبير لمجرد الاستجابة لدعوة معينة فاننا لانكسب
منه الا مفسدا للقضية مسيئا للدعوة *

ولا ارى الاديب الذى يستعمل حريته في الانعزال عن المجتمع الا
كالفرد الاناني الذى يستعمل حريته في ان يكون سلبيا لا ينفع أحدا ،
وكالجندي الذى يستعمل حريته في التخلف عن الدفاع ، وكالجاهل الذى
يستعمل حريته في الامتناع عن التعلم والتثقف .

ثم أليس الاديب الفردى مستعبدا لقوى الفردية في نفسه ؟ ولماذا لا
يكافح هذه القوى ويتحرر منها ان كان حقا يطلب الحرية ؟

واعتقد ان هناك من يعبر بالنداء بحرية الاديب عن كراهيته لبواعث الحياة الجديدة ودواعي التقدم التي يتوهمها خطرا على ذاته المتقومة .. والتي يتجه الادب الواعي الى تليتها .. ولو أنصف هؤلاء أنفسهم لتأملوا فيها وخلصوها من استبعاد القوى الرجعية الكامنة فيها .

ومن حسن الحظ ان ادباءنا عندما أخذوا الواقعية عن الغرب ، كانوا متحمسين للنهوض بالمجتمع ، وثائرين على ما يعوق تقدمه ، فوجهوها ، او توجهوا بها الى الغايات الاجتماعية والقومية ، وكان ذلك - معظم ما كان - أول الامر في القصص القصيرة التي بدأ بها محمد تيمور ، وتلاه فيها اخوه محمود ، وعيسى عبيد واخوه شحاتة ، ومحمود طاهر لاشين واحمد خيرى سعيد وحسين فوزي وابراهيم المصري وغيرهم .

كانت اول قصة مصرية واقعية متكاملة فنيا - حسب استقراي - هي قصة « في القطار » لمحمد تيمور ، نشرها في جريدة « السفور » سنة ١٩١٧ ، اختار الكاتب فيها اشخاصا من أنماط مختلفة ، اجتمعوا في « احدى غرف عربات القطار » وجرى بينهم الحديث في موضوع « الفلاح » هل يصلحه التعليم والمعاملة الكريمة ، أو لا ينفع معه الا الضرب بالسوط .

فرسم لنا اولا الشخصيات رسما واقعيا حيا ، وبث في رسم الشخص ما يدل على موقفه الاجتماعي ، الاول « شيخ من المعممين اسمر اللون طويل القامة نحيف القوام كث اللحية له عينان أقفل اجفانهما الكسل فكأنه لم يستيقظ من نومه بعد » ، انه يمثل رجل الدين المنعزل عن المجتمع ، فاذا طلب منه ابداء الرأي افترى لصالح ذوى النفوذ والسلطة . لا يقول لنا الكاتب ذلك بطريقة مباشرة ، بل يدع الحادث نفسه يقول .

والشخصية الثانية « طالب ريفي انتهى من تأدية امتحانه وهو يعود الى ضيعته ليقضى اجازته بين أهله وقومه » وهو يمثل الشباب الجاد المرجو لمستقبل بلاده .

والثالث افندى وضاح الطلعة حسن الهندام دخل الغرفة وهو يتبخر في مشيته يردد أغنية شائعة ، جلس وهو يتسم واضعا رجلا على رجل ، ينظر

للابسة تارة وللمسافرين تارة اخرى ، انه نموذج لاولاد « الحظ والانس »
الذين يحيون حياة اللامبالاة •• نموذج السليبين •
والرابع « شيخ يبلغ الستين أحمر الوجه براق العينين يدل لون بشرته
على انه شركسي الاصل ، وكان ممسكا مظلة أكل منها الدهر وشرب ، أما
حافة طربوشه فكانت تصل الى اطراف اذنيه » وهو يمثل العنصر الغريب
المتعجرف المتعالى على أبناء الشعب •• أحد الذين كانوا يقولون : حسنة
وانا سيدك !

والخامس « أحد عمد القليوبية ، وهو رجل ضخم الجثة كبير الشارب
أفطس الأنف ، له وجه به آثار الجدري تظهر عليه مظاهر القوة والجهل »
انه احد الذين ينسلخون عن مواظبتهم ويربطون مصالحهم بمصالح الحكام
والمستغلين •

يسأل الشركسي عن أخبار اليوم المنشورة في الجريدة ، وحين يجاب
بأنه ليس فيها ما يستلفت النظر الا خبر اهتمام وزارة المعارف بتعميم التعليم
ومحاربة الامية ، يثور قائلا :
« يريدون تعميم التعليم ومحاربة الامية حتى يرتقى الفلاح الى مصاف
اسياده •• »

ويرى ان العلاج الناجع لتربية الفلاح هو « السوط » ان السوط
لا يكلف الحكومة شيئا ، أما التعليم فيتطلب أموالا طائلة • ولا ننس أن
الفلاح لا يذعن الا للضرب لانه اعتاده من المهد الى اللحد •
قال العمدة : « صدقت يا به صدقت •• ولو كنت تسكن الضياع
مثلنا لقلت أكثر من ذلك •• اننا نعاني من الفلاح ما نعاني لنكبح جماحه
ونمنعه من ارتكاب الجرائم • »

الشيخ يغط في نومه • والافندي ينظر للابسة ثم ينظر اليهم ويضحك •
اما الطالب فكانت تظهر عليه سيماة الاشمئزاز ، ويقاوم حياء ليتكلم ، ثم لا يطيق
السكوت فيجرب الحوار الآتي :
الطالب : الفلاح يا حضرة العمدة ••

العمدة : قل « يا سعادة البيك » لاني حزت الرتبة الثانية منذ عشرين

سنة •

الطالب : الفلاح يا حضرة العمدة •• لا يدعن لاوامركم الا بالضرب
لانكم لم تعودوه غير ذلك ، فلو كنتم احسستم صنيعكم معه لكنتم وجدتم فيه
أخا يتكاف معكم ويعاونكم ، ولكنكم مع الاسف اسأتم اليه فعمد الى الاضرار
بكم تخلصا من اساءتكم •• وانه ليدعشني ان تكون فلاحا وتحني باللائمة
على اخوانك الفلاحين •

العمدة ناظرا الى الشركسى : هل هذه نتائج التعليم ؟

الشركسى : نام وقام فوجد نفسه قائم مقام •

الافندى للطالب : برافو يا افندى برافو برافو ••

الشركسى غاضبا : ومن تكون انت ؟

الافندى وهو يضحك مقهقهقا : ابن الحظ والانس •• يا انس ••

الشركسى : ادبسيس •• فلاح ••

والتفت العمدة الى الشيخ قائلا :

— أنت خير الحاكمين يا سيدنا ، فاحكم لنا في هذه القضية •

— ما هي القضية لاحكم فيها باذن الله جل وعلا ؟

— هل التعليم أفيد للفلاح أم الضرب ؟

هز الشيخ رأسه وتنحنح ، ثم قال :

— باسم الله الرحمن الرحيم ، انا فتحنا لك فتحا مبينا ، قال النبي عليه

الصلاة والسلام « لا تعلموا أولاد السفلة العلم » •

فضحك الطالب وهو يقول :

— حرام عليك يا استاذ •• ان بين الفقراء من هو على خلق عظيم

كما ان بين الاغنياء من هو في الدرك الاسفل •

قال الشيخ : واحسرتاه •• انكم من يوم تعلمتم الرطان فسدت عليكم

أخلاقكم ونسيتم أوامر دينكم ، ومنكم من تبجح وبغى واستكبر وانكر وجود

الخالق •

بهذا الوعي الفني ، والوعي الاجتماعي المبكر، يعرض كاتب الاقصوصة العربية الاول ، قضية الفلاح المصري وموقفه من الذين يطعمهم ويكسوهم •• ويفرضون انفسهم سادة عليه •

ومحمد تيمور كتب المسرحية قبل ان يكتب القصة القصيرة ، ولهذا نرى فنه في التأليف المسرحي يبدو في هذه القصة من حيث قيامها على الحوار في منظر ، والصراع بين اتجاهين مختلفين ، وعرض خصائص الشخصيات النفسية من خلال الحوار •

وبصرف النظر عن هنات قليلة فيها فاننا نجدها قصة فنية متكاملة تختلف عما سبقها من محاولات كثيرة لم تكتمل لها العناصر التي تسلكها في عداد الاقصوصة الحديثة •

وقد كانت مسرحيات محمد تيمور وقصصه القصيرة هو ومن عاصروه من امثال عيسى عبيد وظاهر لاشين نماذج حية للواقعية الاجتماعية التي بدأت في ذلك الحين كفاحا أدبيا في المجال الاجتماعي ، واستمر هذا الكفاح حتى توجته ثورة ٢٣ يولييه بقوانين ١٩٦١ التي اعلنت الثورة الاجتماعية ضد الاقطاع والرأسمالية المستغلة •

وكان من اوائل القصص القصيرة الواقعية كذلك ، القصص التي كتبها ميخائيل نعيمة ، ونشرها في بعض المجلات العربية بالمهجر ، ثم جمعها بعد ذلك في مجموعة بعنوان « كان ما كان » ومما يذكر ان ميخائيل نعيمة اتصل بالادب الروسي اتصالا مباشرا ، وتأثر باتجاهه الواقعي •

وعندما بدأ الادباء العرب يتحدثون عن الواقعية اطلقوا عليها « مذهب الحقائق » • ولعل اقدم كتابة عربية في المذهب الواقعي ، ما كتبه محمد لطفى جمعة في مقدمة لقصة طويلة نشرها سنة ١٩٠٥ اسمها « وادى الهموم » - قال في تلك المقدمة :

« وليعلم القارئ الكريم ان فن الروايات منقسم الى قسمين ، القسم الاول يسمونه (رومانتيك) أي روايات خيالية ، والقسم الثاني يسمونه (ريالستيك) أي روايات حقيقية • فالاولى هي التي تصور البشر كما يجب

ان يكونوا لا كما هم في الحقيقة ، والثانية تمثل البشر كما هم بنقائصهم ومعابهم ومخازيهم ، وأشهر كتاب الخيال السير ولتر سكوت القصصى الانكليزى واسكندر ديماس وماكس ممبرتون وغيرهم • وطريقة كتابة القصص الخيالية هي ان يجلس الكاتب في غرفته ويتخيل الحقول الخضراء والحدائق الغناء وغدران الماء والطيور المغردة واللبالى المقمرة والابطال الشجعان والنساء الجميلات والغزل والغرام والشكوى والجفاء واللقاء ، ثم يكتب قصته • وأما طريقة كتابة الروايات الحقيقية (يقصد الواقعية) فهي أن يلبس الكاتب ملابسه أو يتزيا بغير زيه ويتجول في الطرق والازقة ويدخل المجتمعات والمحطات ويرقب حركات الناس في ملاعب القمار والحانات والحدائق العمومية ، ويبقى طول ليلته هائما في الطرق يدرس الاخلاق والطباع والعادات ، وهو فيما بين تلك الاشياء يقيد ما يراه ويسمعه ويدرسه ، ثم يجلس ويكتب قصته ، ويسبك فيها كل ما رآه وسمعه » •

ونلاحظ بعض السذاجة في النص المتقدم من حيث تصوير الكاتب الواقعي ووصفه بالتخفى والتجول في الطرق •• الخ • كما نلاحظ ان القصة التي كتبها لطفي جمعة مقدما لها بذلك لم تستكمل سمات الواقعية ولم تتوافر لها خصائصها •

ويبدو لي ان اهم رواد الواقعية في مصر ، من حيث الكتابة النظرية والابداع الفني على مقتضاها ، هو عيسى عبيد (توفي سنة ١٩٢٣) - قال في المقدمة المستفيضة التي كتبها لمجموعته القصصية « احسان هانم » :

« •• فأدب الغد سيقام في عرفنا على دعامة الملاحظة والتحليل النفسى الراميين الى تصوير الحياة كما هي بلا مبالغة او تقصير ، أي الحياة العارية المجردة ، وهو ما يسمونه مذهب الحقائق (الريالسم) • وعلى ذلك فسينشأ قتال عنيف بين أصحاب المذهب القديم مذهب الوجدانيات وهم الاكثرية ، وبين انصار مذهب الحقائق وهم قلائل تسربت الى نفوسهم عوامل جديدة من أثر وقوفهم على فنون الغرب المتعددة الحية ، فجز عليهم أن يروا جمود آدابهم المحتضرة ، فأحبوا ان ينفخوا فيها روحا جديدة قوية تحطم

القيود العاتية والاضاع السقيمة التي رسمها لنا اجدادنا فلأني الفريقين يكون الانتصار ؟ »

وقد وقع فعلا القتال الادبي الذي تنبأ به ، واستمر ، ولا يزال مستمرا . انتصرت الواقعية في مجال القصة القصيرة على يد من ذكرنا من الرواد ، وكذلك في مجال القصة الطويلة والمسرحية ، على يد توفيق الحكيم ومحمود تيمور والمازني وطه حسين و طاهر لاشين ، ثم نجيب محفوظ وعلى احمد باكثير وعبدالحميد السحار ويوسف السباعي وعبدالحليم عبدالله واحسان عبدالقدوس وصهيل ادريس وسعدالدين وهبه ونعمان عاشور ويوسف ادريس وغيرهم . . .

نعم ، انحسرت الواقعية فترة من الزمن قبل قيام الحرب العالمية الثانية وفي اثنائها ، اذ استيقظت الرومانسية في عالم القصة في الثلاثينيات من هذا القرن على يد محمود كامل المحامي في قصصه القصيرة وفي بعض روايات محمود تيمور ، وفي غير ذلك . ولكن هذه الفترة لم تطل ، كانت فترة أحلام وهروب من الواقع السيئ ويأس من تغييره ، وما ان انتهت الحرب العالمية الثانية حتى بدأ الشعور بضرورة تغيير الواقع فكانت الولادة الثانية للواقعية في ادبنا الحديث ، وقد كانت الولادة الاولى لها في مثل هذه الظروف . . . بعد الحرب العالمية الاولى . . .

هذا في مجال القصة . اما في مجال الشعر فحفظ الواقعية كان ضئيلا ، ولعل ذلك لان طبيعة الشعر أقرب الى الخيالات والتصورات البعيدة عن الواقع الجارى . وكان القتال في المجال الشعري غالبا بين الانباعية (الكلاسيكية) وبين الابداعية (الرومانسية) . وكان غزو الواقعية للشعر ضعيفا في العالم العربي على وجه العموم وفي مصر خاصة . واعتقد انه أقوى في العراق وفي السودان ، حيث نجد الالتزام السياسي والقومي سائدا في التعبير الشعري ، مما أكسبه حيوية في هذين البلدين ، وجذب اليه جمهورا كبيرا من القارئ والمستمعين . . .

وبعد فما هو موقف ادبنا الحاضر من الواقعية الهادفة ؟ هل انتاجنا الادبي

الآن أو معظمه ينطبق عليها ؟

أحب أن اصرف النظر عن بقايا الكلاسيكية والرومانسية الموغلة في
البعد عن الحياة الواقعية لانني أراها في سبيل الزوال •

ويبقى بعد ذلك ، هذا الانتاج الواقعي الوفير الذي يمثل معظم ادبنا •
انني أرى الجانب الاكثر من ادبنا الواقعي أما أدب شعارات « هاتف »
تعبيره المباشر زاعق •• وتصويره الفني باهت ، واما ادب لوحات •• يصور
ولا يهدف طبقا للواقعية الطبيعية • والاحظ أن الادب الهاتف يتفهم أمام
الاستنكار العام ، ولكن أدب « الفوتوغرافيا » ، يبدو أنه أخطر شيء في حياتنا
الادبية الآن ، لان أصحابه ينتسبون الى الواقعية • وهي واقعية عقيمة من
الوجهة الاجتماعية كما بينت فيما سبق •

وقد كانت الواقعية الطبيعية في الادب الغربي ذات قيمة علمية ، لما قامت
عليه من التحليل والثقافة العلميين ، ولكنها عندنا مع الاسف خاوية من هذا
الغذا العقلي ، الى ما فيها من « فقر دم » يجمدها ويوقفها عن مسابير التقدم
الاجتماعي ، وهي خطيرة لان الناس قد تشبعوا بفكرة أننا لا نريد من الادب
الا الوصف الصادق للحياة •• وهناك نقاد يكتبون ويقولون :

هذا قطعة من الحياة •• هذا وصف رائع •• دون ان يتبطنوا هذا
الوصف ويروا ماذا فيه وأي هدف يرمى اليه •

عندنا قصص وروايات طويلة جدا ، يتنافس كتابها في اخراجها اكبر
حجما •• فيها أوصاف كثيرة لا قيمة لها وشخصيات مرسومة رسما فوتوغرافيا
لا يستحث الازهان بحيث يتولد منها اهتمام فكري بمصائر هذه الشخصيات
وليس فيها الجو الذي يجعلنا ندرك العلاقة بين المشاهد المصورة وبين تقدم
الحياة القائم او المنشود •

وعندنا قصص قصيرة ينسبها اصحابها الى الواقعية وهي لاتعنى شيئا على
الاطلاق •• فيها اشخاص فاغرون افواههم يتشاءبون ولا يتحركون ، والكتاب
من ورائهم يتشاءب فاغرا فاه مثلهم ••

وأحسن هذه القصص حالا ، واكثرها جاذبية للقراء ، نافيه طرافة

وظرف خاويان •• يسر منهما القارىء ويضحك ، ولكنه بعد القراءة يتأثب
وينام •

أما الجانب الاقل من الانتاج الواقعي عندنا الآن ، فهو الواقعي الهادف،
الذى يناط به الامل في كفاح ما يعوق تقدمنا ، وفي تعميق قيمنا الجديدة في
حياتنا الجديدة التي نحياها الآن ونأمل اطراد تقدمها ، والتي برزت فيها
مثل قويمة في السياسة ، وفي الاقتصاد ، وفي الاجتماع ، وسائر النواحي ،
وفي الشمول الذى يهدف الى خير العرب والخير الانساني العام •

الادب والثورة

للثورة في الأدب مفهومان رئيسيان :

أحدهما ثورة الأدب على الأسب حينما يرى حاملوا لوائها عقم الألوان الأدبية السائدة وسوء اتجاهها ، أو ركودها وقصورها في التعبير عن اهتمامات العصر ، واستهلاك طاقتها أما في الزينة الشكلية والجري وراء الخيالات البعيدة عن الواقع ، وأما في مواكبة القوى المسيطرة المعادية للتحرر والتقدم .

والمفهوم الآخر للثورة في الأدب هو التعبير عن الثورة السياسية سواء في التمهيد لها واثارتها ، أو في تعزيزها ومتابعة خطوها في تحقيق ما قامت له من أهداف قومية واجتماعية واضاءة طريقها وتعميقها في النفوس .

ولنتظر بعد في المفهوم الأول ، لنرى هل نشأ أدب ثوري على مقتضاه في حياة العرب الثورية التحررية التي كان فجرها يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ والتي لاتزال في نموها المطرد ؟

أو نسأل بشكل آخر : هل لابتست هذه الثورة أسباب فنية تدعو الى أن يثور أدب جديد على الأدب السائد ، أو أن ما حدث انما هو تطور اقتضته طبيعة الأحداث والتحولات في الحياة العربية الجديدة ؟

لكي ندرك ذلك ، أو لكي نسلط عليه ضوءا كاشفا نستطيع أن نتبين على هداة حقيقة الأمر ، يحسن أن نعود قليلا الى أوائل النهضة الادبية العربية في العصر الحديث .

كان الأدب غارقا في الحلى وأثواب الزينة ، وكان هم الأدباء وقصاراتهم أن يحاكووا القدماء لا في تعبيراتهم وتراكيبهم اللغوية فحسب ،

بل كذلك في معانيهم وخواطرهم • وكانت أنفال الزينة والتقليد تعوق
الأدباء عن الحركة في الحياة الواقعة والتعبير عنها بجذ وصدق •
وئارت على ذلك الاتجاه الاتباعى (الكلاسيكى) مدرسة أخرى هى
ما سميت بمدرسة الابتداء (الرومانسية) تأثرا بالأصل فى أدب الغرب •
وكان مبعث هذه الثورة الرومانسية شعور الفرد بالتميز مع شعوره بالضيق
والغربة ازاء مجتمع غارق فى الظلام مغلوب على أمره ، لا يرى الأديب
فيه متنفسا إلا فى الخيالات واجترار الآلام الفردية ، فيدفعه اليأس منه الى
أجواء بعيدة عنه ، لم يستطع أن يتلاءم معه فاعترب عنه •

ولكن فريقا آخر ثار ثورة أخرى ، تأثرت هى أيضا بالاتجاهات
الغربية ، ولكن فى الشكل دون المضمون • أحس هذا الفريق بعوامل
الضيق فى البيئة كما أحس بها فى نفسه ، فلم يفصل بين آلامه وجروح
المجتمع ، ورأى فى الوقت نفسه ألوانا من الآداب الأجنبية ترتبط ببيئاتها
وتلتصق بانسانها العادى ، فتصور وتعبّر على أرض الواقع الملموس ،
ويأتى تعبيرا نابضا بما فى صميم الحياة من انتفاض أو ثورة على الركود •
هذا الفريق هو فريق الواقعية الأدبية ، وهو ما سُمى فى النصف
الاول من القرن العشرين بالمدرسة الحديثة ، ويتلخص مذهب هذه المدرسة
فى استعادة الشكل الأدبى الغربى لمضمون عربى قومى ، وكان الشكل هو
البناء القصصى بأنواعه • • القصة القصيرة ، والرواية والمسرحية • والمضمون
يتركز عند ابراز الشخصية العربية وتصوير البيئة العربية ، والتعبير عن
الانسان العربى بمشكلاته وتطلعاته ، ولم يظفر الشعر بنصيب كبير من هذا
الاتجاه لا فى الشكل ولا فى المضمون •

كانت الواقعية اذن فى نهضتنا الأدبية الاولى أوائل هذا القرن هى
الثورة الأدبية المغيرة ، ثارت على الكلاسيكية متمثلة فى العكوف على القديم
واستهلاك الطاقة فى محاكاة أساليبه وزخرف تراكيبه ، وعلى الرومانسية
متمثلة فى سوء اختيار ما يترجم الى العربية وفى ما يحاكى نماذجها الغربية
المتقهرة أمام زحف الواقعية فى مواطنها ، وكانت تلك الثورة أساس

التغيرات التي استمرت واتصلت بوقتنا الحاضر ، وان كانت قد تعرضت في سيرها الطويل لموجات من المد والجزر ، كان أبرزها عودة الرومانسية الى الظهور أو الاستشراء ، فانها لم تختف تماما في الفترة التي أعقبت الانتكاسات الوطنية وطغيان المستبدين من أنصار الغزاة المحتلين ، مما جعل بعض الأدباء يستأنفون الهرب من الواقع المؤس الى الخيالات البعيدة ، وبعضهم وجد في التاريخ ملاذا اما للاستيحاء المطلق أو محاولة الربط بالحاضر والايماء اليه .

فلما كانت الثورة الاخيرة سواء بعد انفجارها في ٢٣ يوليو أو في حالة كونها جنيئا قبل ذلك - اتسعت رقعة الواقع في الأدب وانحسرت موجة الهرب والخشية منه .

ولا نخص بالذكر ثورة ٢٣ يولية ، وانما ينسحب الكلام على الثورات العربية في البلدان الاخرى التي كانت الثورة في مصر فاتحة لها . وهذا يسلمنا الى المفهوم الثاني للأدب الثوري ، وهو - كما سبق التعبير عن الثورة السياسية وما يلابسها من أهداف قومية واجتماعية واطاعة طريقها وتعميقها في النفوس .

لما كانت الثورة جنيئا لم يتخل الأدب عن رعاية الجنين بل غذاه بوسائل مختلفة ، منها أعمال تشريحية تومىء من بعيد مثل قصص نجيب محفوظ التي تنتهي بالثلاثية المشهورة ، ومنها نقد صريح في بناء أدبي مثل الذى كتبه يوسف السباعى في قصة « أرض النفاق » ومسرحية « وراء الستار » وقصص قصيرة كثيرة ، وصور فيه بصفة خاصة مهازل الاحزاب السياسية والانتخابات والصحافة . وفعل عبدالرحمن الشرفاوي مثل ذلك في رواية « الارض » ولجأ علي أحمد باكثير الى الرمز في مسرحية « مسمار جحا » اذ شبه بهذا المسمار ما كان يتذرع به الاستعمار في البقاء . وشارك الشعر بكثير من القصائد ، ونجد التزام الشعر بالأهداف القومية في العراق أقوى وأغزر .

وفي أعقاب انفجار الثورة انطلق الادب من عقاله ، وشارك في الثورة

على الأوضاع القديمة وظفر بأعمال أدبية كبيرة عنيت بتصوير الجو الذي
نبت فيه الثورة وبيان حتميتها عن طريق التجسيد الأدبي •

من تلك الأعمال رواية « أنا الشعب » لفريد أبو حديد ، ورواية
« الشارع الجديد » لعبد الحميد جودة السحار ، ورواية « رد قلبي »
ليوسف السباعي ، ورواية « شيء في صدري » لاحسان عبدالقدوس ،
ومسرحية « الصفقة » لتوفيق الحكيم ، « والمزيفون » لمحمود تيمور •

والواقع ان الكتاب القصصيين عنوا بتصوير ما كان قبل الثورة من
آثار الاستعمار في فساد الحكم واستغلال النفوذ وسوء التوزيع أكثر مما
اهتموا بما جد بعدها من انجازات قومية واجتماعية ومن تأثير هذه
الانجازات في الحياة الاجتماعية والاقتصادية وصراعاتها وتطوراتها •

ومن القصص التي تناولت أحداث ما بعد الثورة أو ما بعد انفجارها
— فالثورة متجددة ولا تزال قائمة — عدد من الروايات ليوسف السباعي
عني فيها بتاريخ مراحلها ، منها « نادية » و « جفت الدموع » و « ليل له
آخر » ورواية نجيب محفوظ « السمان والخريف » ورواية « لاشيء
يهم » لاحسان عبد القدوس ، ورواية « أصابعنا التي تحترق » للدكتور
سهيل ادريس •

ولعل مشاركة الشعر في هذا المجال أكبر وخاصة شعر الأغاني ، فقد
دخلت الأغنية المعركة بشكل ناضج في كثير مما قيل ، فحققت ارتقاء مستوى
الأغاني الى جانب الوفاء بالاهداف القومية •

وظفرت الثورة من أجل فلسطين وأبنائها المشردين بحظ كبير من
اهتمام الشعراء في مختلف البلاد العربية ، سواء منهم من كان من فلسطين
أو من سائر بلدان الوطن العربي •

كما ظفرت بورسعيد باهتمام كبير من جانب الشعراء خاصة •
ونستطيع القول بأن محصول الشعر الثوري فيما تلى انفجار الثورة
وجهد الشعراء في هذا الميدان أوفر من المحصول القصصي • أما النقد
فانه مع الأسف متخلف عن ركب الشعر والقصة لم يستطع أو لم ينشط

بجد وإخلاص للملاحقة وتبعه • ومما يلحظ في هذا الصدد ان اتجاء معظم النقد في الصحف الى الكتابة عن العروض المسرحية أكثر من عنايتهم بتناول الكتاب والعمل الأدبي المقروء على وجه عام ، حتى لقد غدا الكتاب بالنسبة للمسرح شيئاً مهملاً يولد ولا يحتفى به من جانب النقد ، وان كان يشق طريقه الى القراء دون أن يعوقه اهمال النقد •

مما تقدم تبين أن معنى ثورية الأدب في هذه المرحلة الثورية من الحياة العربية يتحقق بالنسبة للمفهوم الثاني للأدب الثوري وهو التعبير عن الثورة والمشاركة في تغيير الأوضاع السياسية والاجتماعية ، يتحقق في هذا بشكل واضح يرجى أن يتسع ويكون أكثر وفاء بالأهداف والتطلعات أكثر مما فعل حتى الآن •

وكان تأثير الثورة في الأدب من ناحيتين : الأولى انطلاقه وحرية في تناول ما كان محظوراً قبلها مما يمس المصالح الاقطاعية والاستغلائية والاستعمارية ، والناحية الثانية هي أن الأدب وجد مجالاً واسعاً في التغيرات الاجتماعية والاقتصادية ، فخاض فيه وان كانت التطورات والانجازات تسبقه وهو لا يزال يقف حياءاً مشدوهاً أو يسير خلفها مبهور الانفاس • وهذه الحقيقة سجلتها اللجنة الثقافية بمجلس الأمة في الجمهورية العربية المتحدة ، اذ قالت في تقرير لها :

« وتلاحظ اللجنة أنه على الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلت خلال الاثنى عشر عاماً الماضية ، فإن التحول الفكري الذي ينبغي أن يصاحب التحول الاشتراكي ويسبقه ويبشر به ، في حاجة الى مزيد من الجهد ، حتى يسير التحول الفكري - جنباً الى جنب - مع التحول المادي في مرحلة الانطلاق القادمة » •

على أنه ينبغي ألا نسقط من الاعتبار ان الأدب يحتاج الى فترة يعيش فيها الأحداث حتى تنضج وتختمر في وجدان الأدباء وتفكيرهم • وهناك الى جانب هذا عوائق من مخلفات الماضي مصيرها الزوال المحتوم • فإذا عدنا الى المفهوم الاول للأدب الثوري ، وهو ثورة الادب على

الادب ، والى التساؤل عن طبيعة التغيرات الفنية الملحوظة : هل هي ثورية أو تطويرية ، فأننا اذا نظرنا الى معنى الثورة المقرر وهو ازالة اوضاع وقيم غير مرضى عنها واحلال اوضاع وقيم أخرى محلها ، فأننا نجد صفة التطور أليق بما في المجال الأدبي من تغيرات فنية لعل أبرزها شكل الشعر فان ما يأخذ به أصحاب الشعر الجديد وما يقول به مناصروهم المعتدلون لا يعدو تطوير الأوزان العربية نفسها لمقتضيات في التعبير الشعري عمن الحياة المتجددة •

وفيما دون ذلك نرى الاتجاه الواقعي هو هو ، مع التطور الذي يتمثل في الاقتراب من المجتمع والارتباط به أكثر من ذي قبل والتخلص من هية الاوضاع الادبية الآتية من الخارج والهجوم عليها بجسرة تهدف الى التحرر مما لا يلائم البيئة العربية وموروثها والرجوع الى اصول هذه البيئة في تراثها وفنونها الشعبية والاتجاه الى دراستها واستيعابها • ويتمثل التطور الادبي - من الناحية الفنية - كذلك في محاربة فلول الثورة الأدبية الاولى التي لم يقض عليها تماما في الماضي ، وخاصة الجمود التقليدي الذي يرمي الى اتخاذ الادب مجرد حلية شكلية ومتمعة عقلية شعورية ، وقد استطاع الكفاح الجديد أن يحصر هذا الاتجاه في مجالات ضيقة لا فعالية لها في الاتجاه العام •

وانني اذ أقول ذلك لا أغفل عن محاولات لا تتجه الى الأهداف التحررية البنائية ، بل تحيد عنها الى التسكع في دروب ملتوية ، وتحاول أن تستنبت في الارض العربية ما لا ينبت فيها من ألوان أدبية غريبة كان يمكن أن تروج قبل ذلك ايام الهرب من التبعية القومية • اما الآن وقد وضع الأديب العربي قدميه على أرضه الصلبة فانه ثابت في مكانه يشارك في صنع الحياة الجديدة على هدى الاشتراكية العربية التي تستنبط مثالياتها من صميم البيئة واحتياجاتها •

ان المجتمع العربي الذي يعمل الآن جادا في سبيل التقدم الاجتماعي والتحرر السياسي والتكتل القومي لا ينبغي أن يشعر فيه الاديب بالغربة

عنه وعدم الانتماء اليه ، وليس فيه الآن مجال للاهواء أو التمزقات الفردية التي يعلو صراخها في بلاد أخرى وفي ظروف مختلفة عن ظروفنا •
ان المجتمع العربي يجتاز الآن مرحلة تحررية وبنائية تختلط فيها المفاهيم وتلابسها رسوبيات من الماضي المتخلف ، وتحاول ان تعوقها عناصر ترى صالحها الخاص في استمرار العفن ، أو تحاول ان تلبس للحال الجديدة لبوسها لتحصل على المكاسب نفسها ان لم تضاف اليها جديدا من الحرام •

واننا نرى ان اهم ما يجب ان تتذرع به ثورتنا هو الفنون التي تجسد التجربة وتبث فيها الدلالات ، وأهم هذه الفنون وأبلغها تأثيرا هو الادب ، ومفهوم ان الأدب ليس مقصورا على ما يقرأ ، بل هو يشمل التمثيليات في المسرح والاذاعة والتلفزيون والسينما ، وكذلك الاغاني والاناشيد • واذا كانت الوسائل الاخيرة كالمرح والاذاعة ... الخ تعمل في نطاق واسع فان القراءة تعمل في قطاع أعمق وان كان أقل سعة ، وهي التي تخرج القادة المفكرين •
يقول ميثاق الجمهورية العربية المتحدة في بيان الدور الثوري للأدب والثقافة :

« ان العمل الديمقراطي سوف يتيح الفرصة لتنمية ثقافة نابضة بالقيم الجديدة ، عميقة في احساسها بالانسان ، صادقة في تعبيرها عنه قادرة بعد ذلك كله على اضاءة جوانب فكره وحسه وتحريك طاقات كافية في أعماقه ، خلاقة ومبدعة ينعكس أثرها بدوره على ممارسته للديمقراطية ، وفهمه لاصولها ، وكشفه لجوهرها الصافي النقي » •

واذا كان معظم انتاجنا الادبي الثوري قد اتجه الى تصوير الماضي السيئ ونقد الاوضاع التي كانت سائدة فيما قبل الثورة ، وكان ذلك ضروريا في وقته ، فاننا نرى الآن أنه يجب ان ينتقل الى مرحلة البناء الجديدة ويصور صراعاتها وتطلعاتها ، ويتأمل ما حدث من تغير ثوري شامل وما جد من قيم ومثاليات •

ويتبادر الى بعض الازدهان ان وسيلة ذلك مقصورة على البحث عن
النواحي الايجابية والنماذج البنائية *

ويتفرع عن هذا رأيان : أحدهما يتحمس للقيم والنماذج الايجابية
ويدعو الى أن يقصر الادب تناوله عليها ويسمى هذا « واقعية بنائية » يرى
احلالها محل « الواقعية النقدية » *

والآخر يبدي تخوفه على الادب أن يجره التمسك بالنواحي الايجابية
دون غيرها الى التخلي عن وظيفته النقدية التي تكسبه القوة *

ونقول لهؤلاء وهؤلاء : ان الواقعية النقدية ليست شيئا مغايرا للواقعية
البناء فالنقد المخلص البصير حين يلقي الضوء على المفاصد أو الأخطاء انما
يرمي الى البناء عن طريق تبيين الاخطاء فيما وقع وتجنبها فيما يأتي ،
فالواقعية النقدية حين تسلك السبيل الذي يسلك في هدم المباني الآيلة
للسقوط على ساكنيها كي تبنى في أماكنها بيوت جديدة لا تكون الا واقعية
نقدية بناءة في وقت واحد *

على أن الرواسب المتخلفة عن العهد البائد لا تزال تعيش بيننا ، وكثيرا
ما تصطدم با لعناصر التقدمية ، وانني اعتقد ان الرسالة العظمى للأدب
العربي الثوري في الوقت الحاضر هي تصوير الصراع بين القيم الايجابية
والقيم السلبية التي تصطرع الآن في حياتنا ، اذ تجاهد الاولى كي تتخلق
وتكتمل ، وتحاول الثانية ان تعوقها بل هي تتغلب عليها في بعض الزوايا
المعتمة ، ومهمة الادب ان يسلط الضوء على هذه الزوايا ويكشف ما يجري
فيها *

وليس من شأن الادب ولا مما يليق به أن يتخلى عن النقد ، لان النقد
هو عمله بطريقته الخاصة ، والادب كله نقد في نقد ، فهو اما نقد للحياة ،
واما نقد « نقد الحياة » الاول هو الادب الابداعي ، والثاني هو ما يسمى
النقد الادبي *

والادب كذلك في كل زمان ومكان ، أعني أن وظيفته هي النقد دائما ،
ولم تخل الحياة قط ، ولن تخلو ابدا من عنصري الخير والشر ،

والإيجاب والسلب ، والتقدم والتأخر ، وكل ما هنالك أن يتغلب احد المتصارعين على الآخر • فليست اذن هناك فترات تستدعي أدبا ينقد فسادا ، وأخرى تقتضي بحثا عن مواضع الثقة والأمل • ففي أشد الاحوال سوءاً نرى الأدب الناجح الناقد للسوء لا يخلو من عنصر ايجابي يبعث الامل ، وفي أكثر الاحوال استقامة واتجاهاً الى القيم الايجابية لا ينبغي ان يخلو الأدب كذلك من تناول العناصر المعوقة عن مواصلة التقدم •

هذا وقد لاحظنا فيما تقدم ان الادب الثوري لا يزال حتى الآن متخلفا عن ركب الأحداث الثورية وأضيف الى ذلك ملاحظة مؤسفة أخرى، هي ان العلاقة بين الادباء العرب والتجاوب بين الانتاج الادبي في مختلف بلاد الوطن العربي أو بكلمة واحدة هي « الحركة الادبية العربية الواحدة » لا تزال هي الاخرى متخلفة عن ركب الحركة العربية العامة الواحدة ، ففي الوقت الذي نرى فيه القادة السياسيين على اتصال دائم والعمل القومي العام ينسق ويتقدم بخطى كبيرة وسريعة ، لا نرى مثل ذلك - وعلى نفس المستوى - في المجال الادبي ، فلا يزال الادباء متوقعين في بيئاتهم المحلية ، وتكاد الحركة الادبية في كل بلد عربي تنعزل عن مشكلاتها في باقي البلاد • ولعل من ظواهر التباعد بين الادباء العرب في الفترة الماضية القريبة ان مؤتمراتهم نفسه ظل معطلا نحو سبع سنين ، بعد انعقاد دورته الرابعة في الكويت سنة ١٩٥٨ ونحن لا نفقد ابدا روح التفاؤل ، كما اعتقد ان البذرة حية دائما في الحقل العربي ، فان طرأ ما يعوقها عن النمو فانها لا تموت ، وها هي ذي الآن تنبت نباتا حسنا في بغداد العربية العريقة اذ يجتمع بها هذا المؤتمر ، ومما يدعو الى مزيد من التفاؤل ان مؤتمر الادباء يجتمع على أثر الخطوات الكبيرة السريعة التي تمت في الميدان القومي العام •

لذلك انتهز هذه الفرصة السعيدة فأقترح تكوين اتحاد عام للادباء العرب يكون شعاره « الحركة الادبية العربية الواحدة » التي تسير جنباً

الى جنب مع الحركة العربية القومية العامة وتعبّر عنها ، بل تتولى قيادتها
الفكرية ، فتعمق الاحساس بأهدافها ، وتحرك الطاقات الكامنة في الوطن
العربي الكبير^(١) .

(١) قدم هذا الموضوع الى مؤتمر الادباء العرب الخامس الذي انعقد ببغداد في
فبراير (شباط) سنة ١٩٦٥ . وقد تقرر في هذا المؤتمر انشاء اتحاد عام
للادباء العرب ، ووضع له مشروع قانون ، على أن يعرض على جامعة الدول
العربية لاقراءه وتنفيذه .

بَيِّنَ الشَّكْلَ وَالْمِضْمُونَ

(مناقشة جرت بين المؤلف وبين الدكتور محمد النويهي في مجلة الرسالة)

البحث عن أشكال ٠٠ يوقع في اشكال !!

إنا لا نصدق ما يقال من أن المضمون الجديد يحتاج الى شكل جديد ،
الا اذا رأينا حقيقة مضمونا جديدا يتطلب الشكل الذي صب فيه ، وأن
هذا الشكل يلبي حاجة ملحة لا تتوافر في الشكل الدائم الحالي •

أما اذا كانت المسألة مجرد بحث عن شيء مثير تلقفه أجهزة الدعاية
للكتاب ، تلك الأجهزة المكونة من الأصدقاء وأفراد « الشلة » ومن يخضعهم
الكتاب بوسائله التي تختلف من خادع الى آخر ، ومن مخدوع الى مخدوع
•• فروح هذه الأجهزة تعلن - فيما تسميه نقدا - عن الحدث الجديد ••

والابتكار الذي لم يسبق •• فاذا جئنا ، لم نجده شيئا ••

أما اذا كانت المسألة كذلك فلا بد أن نأخذ من هذا التهريج موقفا
أقل ما فيه أن نلقى الضوء على تلك الألاعيب •

وقد تجلت تلك « البهلوانية » في عدد من المسرحيات التي عرضت

على مسارحنا في هذا الموسم •

وأسارع قبل أي شيء فأوافق - ولو جدلا - على أن الأشكال التي
صيغت بها المسرحيات أشكال جديدة ، حتى بالنسبة للمسرحيات العالمية ،
وأنها متطورة من أي شيء مهما كان •• سواء أكان من فنونا الشعبية أو
من أشكال أجنبية •

فليكن أي شيء من هذا ، وليكن كله مجتمعا ، ولكن السؤال المهم
في نظري هو: ماذا قالت لنا هذه الأشكال ؟ وهل عبرت عنا ؟ وهل رأينا
فيها صورنا ومشكلاتنا ؟

لنأخذ مثلا مسرحية « الفرافير » التي ظفرت باهتمام النقاد أكثر من أية مسرحية أخرى ، اذ قام جهاز الدعاية أولا بمهمته خير قيام •• نسـم استفـز هـذا الجـهـاز - بـما كـتبـه - النـقـاد الآخـرين ، فـهـبـوا يـعـارـضـون و يـقـولـون ما تـمـلـيـه عـلـيـهـم ضـمـائـرهم ، وتـكـون مـن هـؤـلاء وهـؤـلاء تـلك « الهـيـصـة » الـتي اسـتـمـرت بـعض الـوقـت ، ولـعل هـذا الـذي أـكـتبـه مـن آثـارها أو قـل ان شـئت مـن جـمـلـتها •• وهـكـذا الأـشـياء يـجـر بـعضها بـعضا ••

يقتضيني الانصاف أن أقول أولا ان هذه المسرحية قد نجحت باعتبارها مسلية وممتعة ، ويرجع الامتاع فيها الى براعة الحوار وظرفه ، مما يمتاز به يوسف ادريس ، ويرجع كذلك الى براعة الممثلين وخاصة الذي مثل دور « الفرفور » •

وقد قال يوسف ادريس في مقالاته ، كما قال جهاز الدعاية انه أحدث شكلا جديدا على مسرحنا ، وقال المعارضون انه لا جديد ، أو أن الجديد لم يؤد غرضا كان يفوت بفواته •

ويلحظ كل من قرأ أو شاهد مسرحية « الضفادع » للمؤلف اليوناني « أرسطوفان » أن هناك أشياء مشتركة بين الضفادع والفرافير ، وهي بالتحديد ثلاثة أشياء :

١ - العلاقة بين السيد والعبد والحوار بينهما وتبادلهما الوضع : جعل السيد نفسه عبدا والعبد سيـدا •

٢ - النقد الاجتماعي الذي يلقي القاء مباشرا •

٣ - منظر الميت المحمول الذي يتكلم •

والذي لاشك فيه أن أرسطوفان لم يأخذ عن يوسف ادريس • ولا أريد أن أدخل في مناقشة هذه القضية ، بل أسلم بأن المؤلف أحدث شكلا جديدا في مسرحنا ، ويهمني أن أسلم كذلك بأن هذا الشكل استمد من فنونا الشعبية كالسامر في الريف وكحلقات الحوارة وحلقات المهرجين في المدينة ، يهمني هذا لأسأل المؤلف : لماذا استلهمت الشعب في الشكل وأغفلته في المضمون ؟ أي شيء قلته عن اهتماماته

وتطلعاته ؟ أي شيء قلته عن التغيرات السريعة المتلاحقة في حياته ؟ أي شيء قلته عن الانسان الجديد الذي أدهشك وجوده كما قلت في المقال الأخير بالجمهورية ؟ أي شيء قلت عن الاشتراكية التي طالبت مرة بأن نصوم ثلاثة أشهر عن كل شيء الا عنها ، فلا غناء ولا موسيقى ولا قصص ولا مقالات ولا ... ولا ... الا فيها ؟

وليتك سكت عن الاشتراكية .. ولا أريد أن أستعدي عليك ، فلن تبلغ هذه الكلمة شيئاً مما بلغتة المسرحية من الذبوع .. وأنت تعلم أنني مخلص فيما أكتبه غير مرض لك .. نعم ليتك سكت عن الاشتراكية، ولم تهاجمها برفض علاقة الرئيس بالمرعوس في اطارها .

فالمؤلف اذن لم يقدم مضمونا من اهتمامات الشعب يحتاج الى البحث عن شكل يناسبه .. نعم ، قدم لنا في أول المسرحية « قائمة » نقدية جريئة لكل المهن ، ولكن هذه القائمة كانت على الهامش ، وكانت مباشرة أي في غير تجسيد مسرحي . ثم عرض الموضوع - وهو العلاقة بين السيد والسود - عرضاً ذهنياً تجريدياً ، بل ألفاه علينا القاء .. قال لنا من البدء :

« قرب يا جدع .. اتفرج على المشكلة .. »

واستمر العرض يقول لنا :

« هنا مشكلة .. اللي يحب النبي يفكر في المشكلة .. الجدع يحل

المشكلة .. »

ولما انتهت المسرحية خرجنا وكان صوتا ساخرا يصيح وراءنا :

« هيه .. وضحكنا عليكم .. ولا فيه مشكلة ولا حاجة .. »

والصوت الاخير هو أصدق الأصوات ، فلم تعرض علينا مشكلة ناجمة من حادث حيوي يجري في مكان ما على الأرض ، ونستطيع من خلاله ومن معاشته ان ندرك المشكلة ونقتنع بها ، بل طلب الينا أن نعلم أن هناك مشكلة ، وفرض علينا حلها .

وقد راح « جهاز الدعاية » يفسر « المشكلة » أو « اللامشكلة »

تفسيرات مختلفة ، كان منها أن المؤلف يدعو الى الحرية الفردية المطلقة ، وبناء على هذا التفسير قال الاستاذ محمود أمين العالم في ندوة من ندوات مسرح الحكيم :

انه رأى في المشكلة ما يشبه الحلقة التي تجتمع في الشارع حول « الحاج محمود » وهو يخطب محاولا ان يقنع الناس بفائدة « الشربة » التي يبيعها بقرش صاغ واحد محبة في رسول الله .. ويؤكد أنها تقتل الدود .. وسجل الأستاذ العالم بهذا نجاح المؤلف في محلولته الأخذ الشكلي عن الشعب .

ثم قال : ولكن المضمون - من حيث انه يدعو الى الحرية الفردية التي تناقض المسؤوليات الاجتماعية - مضمون مخرب ، و « الحاج محمود » يقنني أحيانا بشراء الشربة وأنا على يقين من أنها لاقتل الدود ، أما « الشربة » في المسرحية فانها ليست فقط لا تقتل الدود ، وانما هي تستببت الدود ..

وأنا أقول للاستاذ العالم :

لا ، اطمئن .. فان « الشربة » لا مفعول لها مطلقا ، لأن المضمون لم يستببت في بيئة مسرحية صالحة للاستنبات .. لم تستببت « المشكلة » في حدث او موقف يمنحها الحياة ، ويجعلنا نشعر بها ونفكر فيها . ونعود الى موضوعنا الاصلي ، بعد هذه الوقفة التي وقفناها مع « الفرافير » كمثال للمسرحيات التي عرضت على مسارحنا أخيرا في اشكال ادعى اصحابها أنها جديدة وأنهم ابتدعوها لمضامين جديدة .. والواقع أن هؤلاء المؤلفين وقعوا فريسة لقضية غريبة هي أن المؤلف لا يعد مؤلفا عظيما الا اذا ابتكر شكلا فنيا جديدا وشق طريقا غير معروف أو مألوف ، فجعلوا يستهلكون طاقاتهم في البحث عن أشكال جديدة لا لمضمون اجتماعي يرون أن الشكل التقليدي لا يلائمه ، ولا يفني به ، بل لمجرد إثارة الانتباه ولفت الانظار الى أنهم عباقرة .. وفاتهم ان المضمون الجديد الذي يملأ الشكل التقليدي أهم بكثير من استحداث شكل جديد .

وإذا عدنا الى يوسف ادريس كمثال أيضا فانا نرى أنه منذ حول
جهده الادبي من الشكل التقليدي للقصة القصيرة والابداع في صب المضمون
الجيد فيه ، الى المسرحيات والغناء في البحث عن أشكالها التي أوقعته في
اشكالاتها - منذ ذلك الحين وهو تائه ضائع •• لم يظفر الا بالشهرة
الزائفة •

واني أقول له مخلصا انه عندما يكتب اسمه في تاريخ الادب فلن يقرن
بشيء يساوي قصصه القصيرة •

عباس خضر

المضمون الجديد والشكل الجديد

الى الكاتب القدير الاستاذ عباس خضر

تحية اليك من قارئ مشغوف بمقالاتك القيمة ، يتبعها بتقدير عميق ،
ويعجب بما فيها من استقامة النظرة ، وبراعة الحجّة ، ونزاهة القصد ،
وبعد ، فلي تعقيب على مقالتك الممتعة « البحث عن أشكال يوقع في اشكال »
التي بدأتها بقولك : انا لا نصدق ما يقال من أن المضمون الجديد يحتاج
الى شكل جديد - الا اذا رأينا حقيقة مضمونا جديدا يتطلب الشكل الذي
صب فيه ، وأن هذا الشكل يلبي حاجة ملحة لا تتوافر في الشكل القائم
الحالي • وقلت في ختامها : « والواقع أن هؤلاء المؤلفين وقعوا فريسة
لقضية غريبة هي أن المؤلف لا يعد مؤلفا عظيما الا اذا ابتكر شكلا فنيا
جديدا وشق طريقا غير معروف أو مألوف ، فجعلوا يستهلكون طاقاتهم
في البحث عن أشكال جديدة لا لمضمون اجتماعي يرون أن الشكل التقليدي
لا يلائمه ولا يفي به ، بل لمجرد اثارة الانتباه ولفت الانظار الى أنهم عباقرة
•• وفاتهم أن المضمون الجديد الجيد الذي يملأ الشكل التقليدي أهم بكثير
من استحداث شكل جديد • »

لست أناقشك الآن في المثال المعين الذي خصصته بنقدك في مقالاتك

تلك ، بل أناقشك في القضية نفسها • واحب أن أوافقك مبدئيا على ان الشكل الجديد لابد أن يبرر وجوده بمضمون جديد يؤديه ، بل أزيد فأوافقك على أن الشكل الجديد ربما يستغله بعض الادعاء لا لحمل مضمون جديد يحتاج اليه حاجة عضوية • وأنت في مقالتك - كما فهمتها - لا تطعن في الشكل الجديد نفسه ، بل ترفضه حين لا يحمل مضمونا جديدا •

الى هنا نحن متفقان مبدئيا • لكنني أعتقد أنك تجاوزت هذا الى قدر من عدم الانصاف للباحثين عن شكل جديد ، أو من عدم التعاطف الكافي مع مشكلاتهم الراهنة في الظروف القائمة ، خلاف ما أجده في مقالاتك عادة • فلا شك أن منهم من تحدوه رغبة صادقة ملحة لان عنده مضمونا جديدا صادق الجدة يحتاج الى شكل جديد ولا يستطيع الشكل القديم أن يؤديه • ومن هنا أخالفك في جملتك الاخيرة ، لأنني أعتقد أن المضمون الجديد الجيد لا يمكن ان يحمله الشكل التقليدي بخدافيره حملا كاملا بل لابد أن هذا المضمون يدفع الاديب الصادق الاصاله دفعا الى احداث تغيير ما - يصغر أو يكبر - في الشكل التقليدي •

ولعل خير طريقة أشرح بها الى أي مدى أوافقك ، وفيم اخالفك ، أن نتذكر معا ما قاله ت.س. اليوت نفسه ، زعيم التجديد في الشعر الغربي الحديث قاطبة ، لئلا نرى أنه هو أيضا يحذر من المبالغة في التماس اشكال جديدة لغير حاجة ماسة • فهو في مقاله الهامة « موسيقى الشعر » بعد أن شرح رأيه في حاجة الشعر الى ثورات متكررة تحطم الاشكال المقبولة وتعيد صياغتها ، يقول :

« ليس معنى ما قلت آنفا أن من وظيفة كل شاعر أن يحدث انقلابا في لغة الشعر ، فان الامر يعتمد ، لا على تكوينه الشخصي فحسب ، بل على العصر الذي يعيش فيه ، هناك عصور يحتاج فيها الشعر الى الثورة التي شرحناها حتى يلحق بركب لغة الكلام وما دخلها من تغييرات هي في حقيقتها تغييرات في الفكر وفي الاحساس • ولكن هناك عصورا أخرى تقتصر فيها وظيفة الشاعر على أن ينمي التقليد الموجود وينمي امكانياته

الموسيقية في اتصاله بلغة الكلام • فمن غير المرغوب فيه - ولو فرضنا أن هذا ممكن - أن نعيش في حالة من الثورة الدائمة • وكما ان الاتباع العنيد لأسلوب أجدادنا ليس من الصحة في شيء ، كذلك التهوس في نشدان الجديد من الأساليب والاوزان ليس من الصحة في شيء • هناك أزمان لاستكشاف أرض جديدة ، وهناك أزمان لاستثمار الأرض التي فتحناها • « ونقطة خلافي مملكتها الاستاذ الكريم ، هي في تعقيبي على جملة اليوت الاخيرة ، فاني أسأل : في أي زمن نحن ؟ أما أنا فلا أتردد في الاجابة : نحن في زمان مشكلتنا العظمى فيه هي العثور على أشكال جديدة تقوم بمضموناتنا الجديدة • فلا شك عندي أن خيرة أدبائنا لديهم فعلا مضمونات جديدة نشأت من ثقافتهم المعاصرة العميقة ، وحسبهم الفني المشحوذ ، وقدرتهم على الغوص في اعماق النفس الانسانية واستكناه متناقضاتها أبعد مما استطاعه أو حاوله أدباؤنا القدامى جميعا ، كما نشأت من اختلاف مجتمعاتهم وسيرهم وتجاربهم اختلافا جسيما عما كان متاحا للقدامى العرب الذين وضعوا الشكل الشعري القديم من ناحية ، واختلافا غير قليل عما أتبع لادباء الغرب الذين وضعوا أشكال الفنون الثرية ، فليست هذه الاشكال ، على عظم ما تقدمه لنا من المساعدة والتبصير ، والتي تصلح تمام الصلاحية لحمل مضموناتنا العربي الجديد ، الذي نريد له ان يكتب الى تراث الانسانية العام باكتساب متميز يغني هذا التراث باضافة جديد اليه •

لهذا تجدني اكثر منك تعاطفاً مع جهادهم العنيف للبحث عن أشكال جديدة ، تختلف عن شكلنا التقليدي في ميدان الشعر ، ولا تلتزم بكل القواعد المستقرأة من الاشكال الغريبة في الفنون الادبية الاخرى ، حتى حين يبلغ هذا الجهاد ما سماه « التهوس » في نشدان الجديد • ليس معنى هذا انني أوافقهم على كل ما يجربون من الاشكال ، ولا انني اتنازل عن حقي النقدي - بل واجبي - في رفض أشكالهم حين لاتقنعني ، لكنني لا أسرع الى اتهامهم بالشعوذة والتهريج والبهلوانية ومحاولة الخداع ومجرد اثارة الانتباه ولفت الانظار كما فعلت في مقالاتك للأسف الشديد ، لأنني

ادرك أن الغاية الرفيعة العسيرة التي يسعون إليها لن تتحقق الا بالتجربة والخطأ ، وبعد ارتكاب الكثير من الاندفاعات والحماقات • فهذه - كما شرحت في مجال آخر - هي طريقتنا الوحيدة المتاحة لنا نحن البشر المحدودين لاستكشاف الحق والتخلص من الباطل •

دعني أخيرا - رغبة في تحديد جوهر الخلاف بيننا - أضع المسألة هذا الوضع القاطع : انني أرى - في ظروفنا الراهنة ، وطورنا الذي نعيش فيه - أننا في زمن من تلك الازمان التي وصفها اليوت بأنها أزمان الثورة على الاشكال القائمة ، والسعي في تلمس شكل جديد ، لهذا أرى - خلافا لما قلت في مقالاتك - أن الاديب عندنا ، في هذه المرحلة المحدودة ، لا يمكن أن يكون أديبا « عظيما » (وأرجوك يا أخي الكريم أن تنعم النظر في هذا النعت الذي استعملته انت) الا اذا ابتكر فعلا شكلا فنيا جديدا وشق طريقا غير معروف او مألوف • وفي هذا السبيل تجدني مستعدا لان أسامح أدباءنا على كل ما يرتكبون في سعيهم نحو تحقيق هذه الضرورة الملحة من خطأ وشطط ، فهم يأملون ، وأنا آمل معهم حار الامل ، أن ينتهوا من تلك التجارب الى استكشاف سواء السبيل •

حقق الله الآمال ، ولك أصدق التحيات •

محمد النويهي

تعقيب

يبدو لي أن الخلاف بين الدكتور النويهي وبينني يبدأ عندما يبلغ أمر البحث عن أشكال جديدة حد « التهوس » فهو يتعاطف - كما قال - مع المتهوسين في نشدان الجديد ، وأنا لا أتعاطف معهم •

ويبدو لي كذلك اننا متفقان على ما قبل « التهوس » وهو أن يكون لدى الباحث عن الشكل الجديد مضمون جديد يصفه الدكتور بأنه « صادق الجدة يحتاج الى شكل جديد ولا يستطيع الشكل القديم أن يؤديه » •

ويبدو لي - للمرة الثانية - ان الاستاذ الدكتور النويهي يختلف مع نفسه •• فهو أولا يقرر انه يتعاطف مع الباحث عن الشكل الجديد على اعتبار ان عنده مضمونا يحتاج الى ما يبحث عنه ، وثانيا يقرر أنه يتعاطف مع هذا الباحث في حالة « التهوس » •• وهذه الحالة انما تكون عندما لا يكون هناك مضمون جديد يحتاج الى شكل جديد ، ولو كان ••• ماسمى الأمر « تهوسا » الا اذا كان ما يريد الدكتور أن يقوله هو أنه يتعاطف مع الباحث عن الجديد •• عاقلا أو متهوسا !

هذا واعتقد أنه واضح من مقالي السابق ومن الفقرات التي تضمنها منه مقال الدكتور النويهي أنني لا أقف في طريق الباحثين عن شكل جديد، وعلى هذا لا أدري لماذا أحس الدكتور بأني تجاوزت الى قدر من عدم الانصاف لهم أو من عدم التعاطف الكافي معهم •• اني قصدت الى قطاع معين محدد وهو المسرحيات التي لحظت فيها « الهمبكة » وليس لي الصديق الكريم أن أضيف هذا اللفظ الدال - في لغتنا العامية - على نوع من الحركات والاقوال التي ليس وراءها فعل مثير •• ليسمح لي أن أضيف هذا اللفظ الى كلمات « الشعوذة والتهريج والبهلوانية ومحاولة الخداع ومجرد

اثارة الانتباه ولفت الانظار » التي وصفت تلك الاعمال ، بل تلك الحركات ،
ويؤسفني أن يشعر الدكتور بالاسف الشديد لوصف الاشياء بصفاتها
وتسميتها بأسمائها ♦♦

واني أرحب بكل تجربة ، بل بكل خطأ في المجال الجدي الموضوعي
البعيد عن الدعاية الشخصية أي عن « الهمبكة » ♦♦ واعتقد ان الحكم بأن
زماننا هو زمن البحث عن أشكال جديدة لابد أن يكون مبنيًا على الاساس
الذي أتمسك به وهو أن يكون لدى الباحث عن الشكل الجديد مضمون
يحتاج اليه • وهذا المضمون هو الذي يدلنا على صلاحية الزمن وما الزمن
الا وعاء •

تبقى المسألة الاخيرة التي خالفني فيها الدكتور النويهي ، اذ رأى
« ان الاديب عندنا ، في هذه المرحلة المحدودة ، لا يمكن أن يكون أدبياً
عظيماً الا اذا ابتكر فعلاً شكلاً فنياً جديداً وشق طريقاً غير معروف أو
مألوف » ♦♦

ما قول الدكتور النويهي في نجيب محفوظ كروائي عظيم ، وفي محمود
حسن اسماعيل كشاعر عظيم ، ولم يبتدع أحد منهما شكلاً جديداً ؟ بل
ما قوله في صلاح عبدالصبور وعبدالرحمن الشرفاوي اللذين يقولان الشعر
الجديد على شكل سبقا اليه ، ولم يبتدعه أحد منهما ؟

اذا كان على أي أديب - لكي يكون عظيماً في هذه المرحلة المحدودة -
أن يبتكر شكلاً جديداً فان هذا يجر الى أن يبحث كل فرد عن شكل غير
الشكل الذي يقول عليه الآخر ♦♦

مثلاً ♦♦ على الشاعر الجديد الذي يرى أن الشعر الجديد الآن يقال
على التفعيلة الواحدة ♦♦ عليه ان يبحث عن شكل لم يسبق اليه ، شكل
تكون الوحدة فيه « نصف تفعيلة » ♦

وعلى من بعده أن يقول الشعر على « ربع تفعيلة ! » وهكذا ♦♦♦

ثم يأتي بعد ذلك من يعلن ان احسن ابتكار هو العودة الى البحر ♦♦
كما يحدث في عالم الازياء ♦♦
ولا أحب أن يصرفني الاسترسال في المناقشة عن الاعراب عن تقديري
للدكتور النويهي وصدقه واخلاصه فيما يرى ، بل رغبته الشديدة الملحة في
الابتكار والتجديد ♦

عباس خضر

تجديد الشكل في الشَّعْر والمِصْحَافِ

هل يمكن اداء المضمون في الشكل القديم اداء يحتفظ بتمام جدته ؟
هذا سؤال أجبت عليه بالنفي • فادعيت أن كل مضمون جديد يتطلب
تجديدا في الشكل يكبر أو يصغر بحسب درجة المضمون من الجدة ومخالفته
للطرق الفكرية والشعورية والجمالية السائدة • وقد أقمت دعواى هذه
على الحقيقة الفنية المعروفة من الارتباط العضوي الوثيق بين المضمون والشكل
في كل انتاج جيد أصيل • ثم ادعيت أن زماننا هذا حافل بالمضمونات الجديدة
التي يحاول أدباؤنا الصادقون التعبير عنها • نشأت هذه المضمونات من ثقافتهم
المعاصرة العميقة ، وحسهم الفني المشحوذ ، ونظرتهم الجمالية التي وسعها
اطلاعهم على قيم جمالية غير قيما التقليدية ، وقدرتهم على الغوص في
أعماق النفس البشرية واستكناه متناقضاتها أبعد مما استطاعه أو حاوله جميع
ادبائنا القدامى كما نشأت عن اختلاف مجتمعاتهم وسيرهم وتجاربهم اختلافا
جسيما •

كل هذه الاسباب تقطع بأن لديهم مضمونات جديدة ، وإن يكن
وجودها وجودا بالقوة لا وجودا بالفعل ، لأنها لا تتحقق في عالم الفعل الا
إذا عثرت على الاشكال الملائمة لها ، القائمة بتمام جدتها • لذلك لا عجب
أن نجد عصرنا هذا متميزا بالبحث الدائب عن أشكال جديدة في فنون
الشعر والقصة والمسرحية • ولذلك دعوت الى أن تقبل محاولات أدبائنا في
تلمس الاشكال المناسبة بالسماح والصبر وسعة الصدر حتى حين يأتون
بأشكال لا تقنعنا بقدرتها على حمل مضمون جديد • لان وسيلتهم الوحيدة
هي وسيلة التجربة والخطأ ، ونحن نأمل أن ينتهي بحثهم الجاهد الى
العثور على الاشكال الصالحة •

والكاتب القدير الاستاذ عباس خضر ، تكرم في العدد ٤٨ من «الرسالة»

بنشر تعقيب أرسلته اليه وعاتبته فيه على ألفاظ حادة صدرت من قلمه الذي تعودنا منه الاتزان ، في نقده لمسرحية « الفرافير » التي ألفها الاستاذ يوسف أدريس ، ودعوت الى أن نكون أكبر تعاطفا مع أدبائنا المجددين في بحثهم عن أشكال جديدة تقوم بمضموناتهم الجديدة ، وقلت انني أتعاطف معهم في بحثهم هذا حتى حين يبلغ ما سماه ت.س اليوت حد « التهوس » ليقيني من أن هذه هي الطريق الوحيدة ، طريق التجربة والخطأ ، التي نأمل أن نستكشف بها الاشكال الصالحة بعد تكرار المحاولات •

وقد رد الاستاذ خضر على تعيبي هذا فرماني بالتناقض ، اذ كيف أتعاطف مع « متهوسين » ؟ وفهم أن « التهوس » تسليم مني بعدم وجود مضمون جديد يحتاج الى شكل جديد ، لذلك كرر في رده ما رماهم به في مقاله الاصلية من تهمة ، وأضاف اليها تهمة جديدة •

على أن هناك فرقا بعيدا بين « التهوس » و « الشعوذة » ، فالتهوس باستعماله المقصود هو الافراط في الحماسة الناشء عن الاقتناع الحار العميق بصدق القضية التي يؤمن بها الفرد الى حد قد يدفع بالفرد الى الشطط عن الطريق السوي لخدمة قضيته أو اثبات صحتها •

وعلى هذا الاستعمال لم يكن في كلامي تناقض ، ولم يكن داع لاستغراب الاستاذ خضر أن أتعاطف مع المتهوسين ، فان تهوسهم لا ينفي صدقهم واخلاصهم في محاولة العثور على اشكال تقوم بمضموناتهم الجديدة ، وأنا قد قلت أنهم قد يخطئون ويرتكبون كثيرا من الشطط والاندفاع بل كثيرا من الحماقات ، وقلت اني أحفظ لنفسي بحقي النقدي - بل واجبي - في رفض أشكالهم حين لا تقنعي • ولكن هناك فرقا جسيما بين اتهامهم بالخطأ والشطط الذي لا يتنافى مع الصدق والاخلاص ، وبين ما فعله الاستاذ خضر من رميهم بالشعوذة ، والتهريج ، والبهلوانية ، ومحاولة الخداع ، ومجرد اثاره الانتباه ولفت الانظار ، ثم وأضاف اليها « الهبكة » في رده على دفاعي عنهم •

وهذا ما أخذته على الاستاذ خضر وما أحرزني أن أراه يفعل ، ويزيد.

من حزني أن أراه يصر عليه ويضيف إليه ، فانه فيما أعتقد قد تجاوز حقه التقليدي المشروع في رفض انتاجهم وتخطئته ، الى اتهامهم في نواياهم بالكذب وعدم الاخلاص بل بتعمد الخداع • ليس معنى هذا أنني أنفي وجود الادعاء الذين يستغلون البحث عن جديد الاشكال لغير مضمون جديد لديهم ، وبهذا سلمت في تعقيبي ، لكني ما عنيت هؤلاء بدفاعي ، والمقالة الاصلية للاستاذ خضر تدور على نقده لمسرحية الاستاذ يوسف ادريس ، وهذا المؤلف تشهد له انتاجاته العديدة السابقة بأنه مستحيل أن يكون من أولئك الادعاء ، مهما يكن نصيب انتاجه الجديد من الاصابة أو الخطأ ، فالناقد الذي يطير الى اتهامه واتهام أمثاله بتلك التهم لمجرد أنه لم يقتنع بانتاجه الجديد يكون ظالماً أفدح الظلم ، وان لم يميز الناقد بين الادعاء الكاذبين وبين المخلصين المخطئين فأى نفع يرتجى من نقده ؟

هذا هو خلافي الاول مع الاستاذ خضر • وخلافي الثاني الكبير معه هو: ماذا نعني باصطلاح « الشكل » ؟ فهو يتحدث كما لو كان الشكل في الشعر مقتصراً على الوزن العروضي • لذلك يرى أن مغزى كلامي هو أن الشاعر الجديد الذي يريد ان يجدد في الشكل لابد أن يترك البيت القائم على التفعيلة ويأتي بيت تكون وحدته نصف تفعيلة • ثم ربع تفعيلة ، وهكذا • • • ولست أدري كيف يقع مثله في مثل هذا الخطأ ، فالشكل يشمل الهيكل أو البناء العام للقصيدة ، وطريقة تقسيمها الى موجات أو فقرات متمايضة ومترابطة بالتنوع الايقاعي من ناحية ونظام التفعيلة او عدمها من ناحية أخرى ، والموسيقى الداخلية التي يبنها الشاعر في حيز الايقاع العروضي العام من ايقاع الجمل الشعرية المتولد من ايقاع المقاطع والكلمات ، ونغم الحروف والحركات ، بل يشمل الشكل ألفاظ الشاعر نفسها أي قاموسه اللغوي ، وطريقته الصياغية في اشتقاق الصور وتشكيل المجازات •

وحين أهاجم الشكل التقليدي للقصيدة فانما أهاجمه لانه قد تحجرت فيه هذه العناصر الشكلية العديدة التي ذكرتها ، ولانه قد جمد عليها وتم ارتباطه بها فلم يعد يسمح في نطاقه بتجديد فيها ، وبهذا الجمود والارتباط

لم يعد يستطيع الانطلاق مع مضمونات الشعراء الجدد • وهذه دعوى للاستاذ خضر أن يوافقني عليها أو يخالفني فيها ، ولكني أستكبر عليه أن يخطيء فهم مقصودي فيظن أنني أقصر التجديد في الشكل على ابتكار وحدة عروضية جديدة •

وحين أؤيد الشكل الجديد أو المنطلق فلست أؤيده لمجرد تجديده في الوحدة العروضية ، بل لانه يسمح بمجال أوسع لتجديد كل تلك العناصر الشكلية المذكورة ، وبذلك يسمح بانطلاق مضموني كبير ، للأسباب العديدة التي ذكرتها في عرضي لقضية الشعر الجديد • وهذا الاستعمال الذي شرحته هو الاستعمال السائد في الاصطلاح الحديث في المقابلة بين الشكل والمضمون ، فالشكل يشمل كل ما يتصل بطريقة الشاعر واسلوبه في اداء أفكاره وعواطفه وقيمه الجمالية وحملها الى القارئ ، ولا يقتصر على الوزن العام ووحدته العروضية • وبهذا الاستعمال لا أزال أصر على أن كل شاعر « عظيم » في مرحلتنا هذه لابد أن يثبت لنا عظمته بالاتيان بشكل فني جديد يشق طريقا غير مألوف • ومن النقاد من يتطلبون هذا في كل شاعر مهما يكن عصره قبل أن يعدوه عظيما • ومنهم - مثل اليوت - من يقصرونه على عصور الانتقال ، حين يتمخض تاريخ الشعر عن انقلاب في طرق التفكير والشعور والحساسية الجمالية • ويكون التقليد الشعري السابق قد تم استغلاله واستنفاد طاقاته • ونحن لاشك في عصر من أهم عصور الانتقال في تاريخنا ، وكبار شعرائنا الجدد اذا اتقن الاستاذ خضر دراستهم وجد أن كلا منهم ، في نطاق الشكل العام الجديد القائم على التفعيلة الواحدة وعلى تغير طول البيت ، قد أضاف ابتكاراته الذاتية في العناصر الشكلية المتعددة التي وصفتها •

هذا عن الشعر ، الذي يقوم على تشكيل الالفاظ اللغوية وحدها ، أما في فن مثل الفن المسرحي - وهو الموضوع الاصلي لمقالة الاستاذ خضر التي اعترضت عليها - وهذا فن يمزج بين الالفاظ واللقاء والحركة ، ويجمع بين الادب والتمثيل والغناء والموسيقى والرقص والتحريك ، فواضح

أن مجال التجديد في الشكل ، أي في طرق اداء المضمون ، أوسع بكثير •
ولا شك أن كل مؤلف مسرحي عظيم ثابت العظمة في العصر الحديث ، من
اسبس الى شو الى برخت ، قد أدخل ابتكارا شكليا بارزا على فن المسرحية ،
يقوم بهدفه المضموني الجديد الذي يخالف به أهداف سابقه ، دعك مما
أدخله المؤلفون المعاصرون من أمثال انويه وبيكيت من تجديدات شكلية
لا يزال الخلاف محتدما حولها ، لان الخلاف لا يزال محتدما في حقيقة
الامر حول المضمونات الجديدة التي يريد هؤلاء أن يحملوها فن المسرحية،
ويرى بعض النقاد - مع تسليمهم باخلاصهم في هذه المحاولة - أنها ينبغي
ألا تكون من أهداف المسرحية • ومن الجلي أن الفن المسرحي بسماحه
بمقدار أكبر من التجديد الشكلي ، يسمح بمقدار أكبر من التجربة والخطأ
ومن الشطط والزلل ، فهو لذلك أكبر حاجة الى سماح النقاد وتعاطفهم مع
محاولات المؤلفين الجدد •

« دكتور محمد النويهي »

الهنبة

ناقشني الصديق الدكتور محمد النويهي كما لو كنت منكرا على
الادباء أن يبحثوا عن أشكال جديدة •• فليبحثوا يا أخي ، بل يجب على
كل أديب يشعر أن لديه مضمونا يحتاج الى شكل جديد - أن يبحث •
لا أخالفك في ذلك أيها الأخ الكريم ، ولا حتى في أن يخطئ
الباحث الجاد عن الشكل الجديد ، ولم أنكر التجربة والخطأ •• الى آخر
ما رحت تبسطه وتعززه ، كأني وإياك في ذلك على طرفي نقيض ••
لقد نقلت المسألة من قطاع خاص الى قضية عامة •

كان موضوعي هو المسرحيات التي قلت في مقالي الأول انها لا تحمل
مضمونا مقنعا بأنه يحتاج الى شكل جديد ، ووقفت عند مسرحية « الفرافير »
ليوسف ادريس كمثال • وجئت أنت تقول لي ان يوسف له انتاج سابق
يجعل من المستحيل عليه أن يكون ذلك • لقد ميزت أنا بين انتاجه السابق
وانتاجه اللاحق ، فأعربت عن تقديري لقصصه القصيرة ، وأبدت رأيي
فيه من حيث ان القصة القصيرة هي الفن الأدبي الذي يجيده •
انسان يجاوز ما يحسن الى ما لا يحسن ، أفليس من حقنا أن نقول
له أنك لم تحسن في هذا وأحسنست في ذاك ؟

اذن ما الوجه في أن يمنع انتاج سابق لمؤلف من أن يكون دعيا في لون
آخر من التأليف ؟

وهل تراني - بعد ذلك - لم أميز بين الأدعياء والمخلصين حتى تقول
في هذا الصدد : « وان لم يميز الناقد بين الادعياء الكاذبين وبين المخلصين
المخطئين فأى نفع يرتجى من نقده ؟ »

نقلت المناقشة بيننا من هذا الى قضية عامة عرضت نفسك فيها على أنك
وحدك نصير المجددين ، وأني أخالفك في الدعوة الى التجديد ••

واني والله لا أخالفك الا في أشياء ليست من التجديد في شيء منها
• الهوس •

إذا كان الأديب عنده مضمون في حاجة الى شكل جديد ، ويبحث عنه ،
ويأتى به ولو مخطئاً •• فهل هو « مهووس » ؟ أنا لا أراه كذلك ••
وإذا لم يكن لديه ذلك المضمون ويشغل نفسه بشراء « البردعة »
قبل شراء الحمار - ولا تؤاخذني في هذا التشبيه فانا فلاح - فانه « مهووس »
أو قل انه « يهنبق » و « الهنبقة » كلمة فصيحة حرفت الى « الهمبكة »
العامية ••

والهوس : الجنون ، وقد كنت أعجب كيف تناصره ، وأعلنت في
تعقيبي على رسالتك أنى لا أوافقك عليه ، ولكن تبين لي أنك تستعمل الكلمة
« الهوس » في غير مدلولها ، اذ قلت معرضاً بفهمي : « وقد رد الأستاذ
عباس خضر على تعقيبي فرماني بالتناقض ، اذ كيف أتعاطف مع « متهوسين » ؟
وفهم أن « التهوس » تسليم منى بعدم وجود مضمون جديد يحتاج الى
شكل جديد » الى أن قلت : « على أن هناك فرقاً بعيداً بين « التهوس »
و « الشعوذة » فالتهوس باستعماله المقصود و الافراط في الحماسة الناشئة
عن الاقتناع الحار العميق بصدق القضية التي يؤمن بها الفرد الى حد قد
يدفع بالفرد الى الشطط عن الطريق السوي لخدمة قضيته أو اثبات
صحتها ••

عند ذلك أدركت ألا خلاف بيننا في المدلول •• ولكن ما ذنبي أنا اذا
كنت أنت استعملت اللفظ في غير معناه ؟ من لى بأنك ستجعل المجنون
يؤمن بقضية ويقنع بها اقتناعاً حاراً عميقاً •• الخ ؟ لم لم تقل هذا من
الأول ؟

ومن الأشياء التي نختلف فيها وصفي للمتهوسين المهنبقين الذين
لا مضمون عندهم يحتاج الى شكل جديد ، ومع ذلك يهنبقون كي يلفتوا
اليهم الأنظار •• وصفي لعمل هؤلاء بالشعوذة والتهريج ••• الخ ،
والدكتور محمد النويهي يدافع عنهم ، بل هو لا يكتفي بالدفاع ، بل يحزن

من أجلهم ، اذ يقول : « وهذا - أي ذلك الوصف - ما أخذته على الأستاذ عباس خضر وما أحزنني أن أراه يصبر عليه ويضيف إليه » .
أنت رجل طيب يا دكتور نويهي .. ولكن ما حيلتي اذا كنت أجد أشياء هي بمثابة المضمون الذي يحتاج الى شكل أي كلمات تعبر عنه ؟ هل تريدني أن أسكت عن الحق أو الذي أراه حقا ؟ لما تتخلي عني هنا ؟ اعتبرني على الأقل متهوسا وتعاطف معي ..
لا تحزن عليهم يا أخي ، ان تصرفهم وهنقاتهم لا تستحق مشاعرك الطيبة ..

ان اتهمنا أدبيا بالكذب الفني ليس تجاوزا للحق النقدي ، كلما طاب لك أن تقول في ذلك الوصف ، بل ومن صميم عمل الناقد ، وأي عمل للناقد أهم من أن يميز في العمل الأدبي بين الصدق والكذب الفنيين ؟ لعل هذا واحد من الأشياء التي نختلف فيها وان كنت أراه بدهيا لا يحتمل الخلاف .

بقي الخلاف الذي وصفته بالكبر في قولك وخلافي الكبير معه - معي - هو : ماذا نعني باصطلاح « الشكل » ؟ فهو يتحدث كما لو كان الشكل في الشعر مقتصرًا على الوزن العروضي ، لذلك يرى ان مغزى كلامي هو أن الشاعر الجديد الذي يريد أن يجدد في الشكل لابد أن يترك البيت القائم على التفعيلة ويأتي بيت تكون وحدته نصف تفعيلة ، ثم ربع تفعيلة ، وهكذا ولست أدري كيف يقع مثله في مثل هذا الخطأ ..

أحب أن أقول أولا اني لا أعارض الشعر الجديد ، بل أرحب بما يقنعنا منه بمضمون جديد .. والمضمون دائما .. فأنا من حيث المضمون « متهوس » بالمعنى الذي أتى به الدكتور للتهوس .. وأضيف أنني قل أن أجد فيما يقال من الشعر - تقليديا كان أو جديدا - مضمونا يقنعي بأنه يستحق القراءة ..

ثانيا - لست أدري مم أتى الدكتور بأنني أختلف معه في اصطلاح « الشكل » ؟ وبأن مثلي وقع في مثل هذا الخطأ ! انه يفترض أولا أنني

وقعت في خطأ .. ثم يتعجب من وقوعي فيه !!
لقد قال ان على أي أديب - لكي يكون عظيما - أن يبتكر شكلا
جديدا •

فقلت ان هذا يجر الى أن يبحث كل فرد عن شكل غير الشكل الذي
يقول عليه الآخر .. مثلا : على الشاعر الجديد الذي يرى ان الشعر الجديد
الآن يقال على التفعيلة الواحدة .. عليه أن يبحث عن شكل لم يسبق اليه ،
شكل تكون الوحدة فيه « نصف تفعيلة » • وعلى من بعده أن يقول الشعر
على « ربع تفعيلة ! » وهكذا ..

وواضح ان ذلك انما هو ذهاب مع القول بأن الأديب لكي يكون
عظيما عليه أن يبتكر شكلا جديدا .. ذهاب مع هذا القول الى حد نرى
فيه فساد ، وهو أن يقول الشاعر على نصف تفعيلة ! أو على ربع تفعيلة !
فاذا كان الدكتور قد أخذ هذا « الذهاب » على أنني فهمت أنه مغزى
كلامه ، برغم السياق وبرغم علامة التعجب بجوار نصف التفعيلة وربعا ..
فاني أقول للمرة الثانية انه رجل طيب •
وأخيرا ينتقل الدكتور النويهي الى الموضوع الأصلي لمقالتني الأولى
فيقول :

« ... أما في فن مختلط مثل الفن المسرحي - وهو الموضوع الأصلي
لمقالة الأستاذ خضر التي اعترضت عليها - وهذا فن يمزج بين الألفاظ
والالقاء والحركة ، ويجمع بين الأدب والتمثيل والغناء والموسيقى والرقص
والتحريك الآلي ، فواضح أن مجال التجديد في الشكل ، أي في طرق
أداء المضمون ، أوسع بكثير • ولا شك أن كل مؤلف مسرحي عظيم ثابت
العظمة في العصر الحديث ، من ابسن الى شو الى برخت قد أدخل ابتكارا
شكليا بارزا على فن المسرحية ، يقوم بهدفه المضموني الجديد الذي يخالف
أهداف سابقه » •

عظيم .. ولا خلاف بيننا .. واني أتمنى أن يوجد عندنا أمثال
ابسن وشو وبرخت • كل الخلاف في الهوس والهنبة .. اذ كان اعتراضه

على مقالتي الأولى يقوم على أنه يذهب مع الهوس وأنا أقف دونه •• الهوس
بمعنى الكلمة •• وهو الجنون • أما الهوس اذا كان بالمعنى الذي أتى به
فلا خلاف •• أعني أنه لا خلاف في الموضوع ، فاني لا أوافق على تحميل
اللفظ ما لا يحتمله ، بل ما يناقض معناه •

أما الهنبة فلا حيلة لي فيها •• وليأخذها الدكتور الصديق على أنها
شكل جديد اقتضاه مضمون جديد •• فإنه يسرني أن أحيي هذا اللفظ
القديم لاستعماله بدل « الهمبة » العامة •

عباس خضر

خَصَائِصُ الْقِصَّةِ الْقَصِيرَةِ

قرأت أخيراً نحو مائة من القصص القصيرة المقدمة لمسابقة نادي القصة، فهالني أن هذا العدد الضخم ليس فيه مما يصح شكلاً أن يسمى قصة قصيرة إلا بضع قصص •• وهناك قصص كثيرة ذات تعبير جيد واسلوب حسن أو ذات دلالة اجتماعية معينة، أو تعالج موضوعاً مما يشغل الناس، ولكنها في بنائها ليست من فن القصة القصيرة في شيء •

وليس الأمر مقتصرًا على هؤلاء الناشئين الذين تقدموا إلى المسابقة، فالواقع الصارخ أنه يشمل بعض الذين كبروا وصاروا ينشرون في الصحف والمجلات ويصدرون مجموعات، ومنهم من له اسم معروف في عالم الأدب •• ومما هو ذو دلالة في هذا الصدد، ما قالته لي فتاة تجتهد في كتابة القصة، وقد سألتها عما تكتب الآن، فقالت: أكتب قصة طويلة، تركت القصة القصيرة، ماذا أفعل؟ إن كتبت قصة ذات موقف ومشاعر قالوا لي: أهذه قصة ••؟ وإن كتبت قصة ذات حوادث وسرد قالوا: هذا ملخص رواية ••

والواقع إن القصة القصيرة عمل أدبي دقيق تنطبق عليه الكلمتان المأثورتان: السهل الممتنع • وليس من اليسير وضع تعريف لهذا الفن من الأدب وإن كان يتحفظ على لساني هذا الوصف: حادث موحد يتخلله موقف محدد أو لحظة معينة ويسوده التسكع الشعوري •

وليس كل تسكع مثل الآخر، فهناك من يتسكع في المحال التجارية ولا يشتري شيئاً ••

ولا شك أنه من المفيد أن نذكر أولاً بعض ما قيل في القصة القصيرة: قال الأستاذ عباس محمود العقاد - في كتابه «ألوان من القصة القصيرة

في الأدب التركي ص ١١ و ١٢ - « ومن البديهي أن الفوارق بين هذه الأنواع (القصصية) لا ترجع الى الطول والقصر ولا الى الاسهاب والايجاز ، ولا الى العناية بالاسلوب الأدبي وقلة العناية بذلك الاسلوب ، ولا الى خطر الموضوع أو تفاهته ، فكل اولئك صفات قد تتشابه فيها جميع هذه الأنواع ، فتكبر الحكاية المطولة حتى تلتقي بالقصة القصيرة في عدد الكلمات ، أو تتناول الحكاية موضوعا من أجل الموضوعات ، ولا تتناول القصة الكبيرة الا موضوعا هينا من مسائل المجتمع أو مسائل الاحوال النفسية • انما يرجع الخلاف بينها الى فارق أصيل من باب التغليب والترجيح ، على الأقل ان لم يكن من باب الحسم والشمول • ولم نعرف تفرقة بينهما اصح واصدق من التفرقة التي أجملتها الكاتبة (اديث هوارتون) حين قالت : (ان الموقف هو الموضوع الغالب على القصة القصيرة وان رسم الشخصية هو الموضوع الغالب على الرواية) ويمكن أن نضيف الى الموقف موضوعا آخر يصلح للقصة القصيرة والحكاية - يقصد القصيرة جدا او الاقصوصة - وهو الايحاء ولفت النظر ، أو ما يقابل - حرفيا - الاقتراح - »

ويقول « ادجار الان بو » نقلاً من كتاب « الادب وفنونه » للدكتور عز الدين اسماعيل ص ١٧٢ و ١٧٣ : « ان القصة القصيرة بحق تختلف بصفة اساسية عن القصة بوحدة الانطباع ، ويمكن ان نلاحظ بهذه المناسبة ان القصة القصيرة غالبا ما تحقق الوحدات الثلاث التي عرفتها المسرحية الفرنسية الكلاسيكية ، فهي تمثل حدثا واحدا في وقت واحد ، وتتناول القصة القصيرة شخصية مفردة أو حادثة مفردة أو عاطفة مفردة أو مجموعة من العواطف التي أثارها موقف مفرد • »

ويقول هادسون - نقلاً من الكتاب السابق - « فالقصة من الممكن أن تجتاز بالقاريء فترة زمنية طويلة كما تصنع الرواية ، ولكن يحدث الفرق هنا في طريقة العرض ، فالتفصيلات والجزئيات التي تملأ كل يوم وكل ساعة في تلك الفترة الزمنية لا حاجة لكاتب القصة القصيرة بها ، بل انه يجتاز كل شيء ليتنقل مباشرة من لمسة من لمساته الى أخرى ، مجتازا بذلك

من الزمن فترة قد تطول وقد تقصر • فطريقة العلاج ترتبط ارتباطا حيا بالموضوع ، وهي - من جهة أخرى - فرق جوهرى بين القصة القصيرة والطويلة » •

ونستطيع ان نستخلص من كل ذلك أن المدار في القصة القصيرة على وحدة الموقف ووحدة الغرض ، فان هاتين الوحدتين تستبعان بقية الوحدات • ونستطيع كذلك أن نجمل خصائص القصة القصيرة في كلمتين : الوحدة والتركيز ، فالوحدة تكون في الحادث والغرض والموقف ، ولعل وحدة الانطباع التي قال بها « بو » تجمع كل الوحدات في بؤرة واحدة • والتركيز يكون في كل شيء ، وهو أهم ميزة للقصة القصيرة ، وقد بولغ في حتميته بها من حيث اللغة حتى قيل ان أية كلمة يمكن الاستغناء عنها تعد حشوا فيها ودخيلة عليها •

ويمكن أن نتبين طبيعة القصة القصيرة من القاء نظرة على تطورها من الشكل الذي كانت تكتب به للتسلية الى شكلها الحديث ، كانت في الشكل الأول تعتمد على طريقة العقدة المتأزمة والحل او المفاجأة الاخيرة • وكانت تعتمد كذلك - من حيث المضمون - على الحادث الغريب والخيال البعيد ، وأما الشكل الحديث فلم يهتم بجذب القارئ عن طريق الاغراب والمفاجأة بل هو يوجه العناية الى التعبير عن حالات النفس البشرية والاحاسيس التي تضطرب في نفس الانسان وتبدو كأنها حديث عادي عما يحدث لكل انسان ، والمضمون يحدد الشكل كما يقولون •

ولعل أول من كتب القصة القصيرة في شكلها الحديث المتكامل هو الكاتب الفرنسي « جي دي موبسان » في النصف الثاني من القرن التاسع عشر • كتبها قبله كثيرون ، منهم « مارك توين » و « ادجار الان بو » الامريكيان ولكنهم لم يهتدوا الى ما اهتدى اليه « موبسان » من ان القصة القصيرة لا تحتاج الى الوقائع الخطيرة والخيال الخارق ، بل يكفي الكاتب أن يتأمل في الوقائع العادية والافراد العاديين لكي يفسر الحياة ويعبر عن خفاياها من خلال موقف أو لحظة من لحظاتها • وكانت الواقعية الحديثة هي

المذهب الملائم لهذا المنهج ، فسلك « موبسان » في القصة القصيرة مسلك « زولا » وأضرابه في الرواية ، من حيث الاهتمام بدقائق الحياة وتفصيلاتها وتصويرها بطريقة واقعية ♦

وقد كانت قصص « موبسان » حدثا جديدا في الادب ، كما يقول الدكتور رشاد رشدي في كتابه « فن القصة القصيرة » ♦

« ولقد جاءت قصص موبسان مختلفة عن كل ما سبقها من قصص حتى أن الناس رفضوا أن يعترفوا بها في بادئ الامر كقصص قصيرة ، ولكن الايام ما لبثت أن غيرت هذا الرأي ، فوجد أن احد كبار النقاد يكتب بعد موت موبسان بأعوام قليلة فيقول : ان القصة القصيرة هي موبسان - وموبسان هو القصة القصيرة » ♦

ومن المؤسف أن عندنا الى الآن من ينظر الى القصة القصيرة الحديثة نظرة تشبه موقف الرفض الذي كان في أوروبا ♦♦ ومن هنا نتبين وجه الحيرة في حديث الكاتبة المجتهدة التي أشرت اليها في أول هذه الكلمة ♦

وقد اشتهر منهجان في كتابة القصة بعد « موبسان » : الاول منهج الكاتب الروسي « انطون تشيكوف » والثاني منهج « سومرست موم » واعتقد أن كلا منهما تأثر بموبسان وان كان قد انفرد بطريقة خاصة ، وأقربهما الى موبسان هو تشيكوف ، وتتميز قصصه بالايغال في الواقعية أكثر مما فعل موبسان ، فقد اهتم تشيكوف بالاشخاص العاديين كالفلّاحين والتجار وعمال المصانع واصحابها ، واعتمد على الصدق في تصوير حياتهم العادية والعمق النفسي في تحليلهم ♦

أما « موم » فانه - مع تأثره بموبسان - لم يعرض عن التشويق بالعقدة والحل والاغراب في قصص الواقع ♦ وقد كتب « موم » عن « تشيكوف » فأورد القول المشهور لتشيكوف ♦

« ان الناس لا يذهبون الى القطب الشمالي كي يسقطوا من فوق جبال الجليد ، انما هم يذهبون الى المكاتب ويتشاجرون مع زوجاتهم ويتناولون حساء الكرنب » ♦

وقال « موم » انه يخالف « تشيكوف » في ذلك فان ذهاب الناس الى المكاتب وتناولهم حساء الكرب لا يكفيان لخلق قصة عنهم ، فلا بد لتكوين قصة أن يسرقوا أو يرتكبوا خيانة أو يضربوا زوجاتهم •
ولكن الذى حدث أن تشيكوف استطاع ان يخلق قصصا خالدة من اضطراب الناس في الحياة العادية •

القصة العربية الحديثة

ولماذا تأخر ظهورها

نستطيع أن نلمح المشابهة في التطور أو الانتقال من قصة التسلية الى القصة الحديثة ، بين القصة العربية والقصة الغربية ، والواقع أن الذي حدث هنا كان ظلالا لما حدث هناك ، فان معظم الذين كتبوا القصة العربية ، وخاصة كتاب التسلية ، كانوا متأثرين أو ناقلين أو مقتبسين للقصة الغربية ، وقد أهتموا بقصص التسلية لموافقتها أمزجتهم وأمزجة القراء التي لم تكن مستعدة لتقبل القصة الفنية الحديثة ، وعندما بدأ كتابنا الحديثون في كتابة هذه القصة كانوا متأثرين كذلك بالقصة الغربية ، وكان تأثير هؤلاء الحديثين أكثر عمقا وجدية من تأثير سابقهم وكان « موبسان » النموذج الاول الذي احتذته القصة القصيرة الحديثة في مصر ، ويتلوه في ذلك « تشيكوف » ثم غيره .

كانت أول قصة قصيرة عربية حديثة - حسب استقراءنا - كتبها « محمد تيمور » سنة ١٩١٧ وجاء على أثره زملاؤه رواد القصة القصيرة ، وكان اتناجهم الاول في العشرينات من القرن العشرين . وقبل ذلك (سنة ١٩١٢) ظهرت رواية حديثة هي « زينب » لمحمد حسين هيكل .

وئمة سؤال هام يستوقف النظر : لماذا تأخر ظهور القصة العربية الحديثة عندنا ؟ هذا السؤال يسلمنا الى ظاهرة غريبة تحتاج الى التأمل ، وهي تتمثل في الكتاب الذين اتصلوا بالآداب الاجنبية واطلعوا فيها على الفن القصصي الحديث ، وظلوا عشرات السنين يترجمون قصصا غربية الى اللغة العربية ، ويؤلفون قصصا مصرية . ومع ذلك كله لم نظفر من أحدهم بقصة مؤلفة تتوافر لها عناصر الفن القصصي الحديث ، سواء في هذا الكتاب

الصحفيون الذين كانوا يكتبون لمجرد تسليية القراء ولكسب العيش ،
والكتاب الادباء الدارسون أو المطلعون على الآداب الاجنبية المجيدون للغة
العربية واحدى اللغات الاجنبية ، وقد رأينا قصصهم في المحاولات الاولى
فلم نجد فيها قصة تصلح لان تكون نقطة بدء للقصة الفنية المتكاملة •

وأرى أن نقف قليلا عند كاتب شارك في تلك المحاولات ، ويمتاز
بأنه التفت - في وقت مبكر عندنا - الى الواقعية الحديثة^(١) ، وقد سماها
« الطريقة الحقيقية » ذلك الكاتب هو محمد لطفي جمعة ، رأيت له قصة
طويلة عنوانها « في وادي الهموم » قدم لها بمقدمة طويلة قال فيها :

« وليعلم القارى الكريم أن فن الروايات منقسم الى قسمين القسم
الاول يسمى (رومانتيك) أي روايات خيالية والقسم الثاني يسمى (ريبالستيك) أي روايات حقيقية • فالاولى هي التي تصور البشر كما يجب
أن يكونوا لا كما هم في الحقيقة والثانية تمثل البشر كما هم
بنقائصهم ومعاييبهم ومخازيهم وأشهر كتاب الخيال السير
ولتر سكوت القصصي الانجليزي واسكندر ديماس وساكنس بمبرتون
وغيرهم ، وطريقة كتابة القصص الخيالية هي أن يجلس الكاتب في غرفته
ويتخيل الحقول الخضراء والحدائق الغناء وغدران الماء والطيور المغردة
والليالي القمرية والابطال الشجعان والنساء الجميلات والغزل والغرام
والشكوى والجفاء واللقاء ، ثم يكتب قصته • وأما طريقة كتابة الروايات
الحقيقية هي أن يلبس الكاتب ملابسه أو يتزيّن بغير زيه ويتجول في الطرق
والازقة ويدخل المجتمعات والمحطات ويتربح حركات الناس في ملاعب
القمار والحانات والحدائق العمومية ويبقى طول ليلته هائما في الطرق يدرس
الاخلاق والطبائع والعادات وهو فيما بين تلك الاشياء يقيد ما يراه ويسمعه
ويدرسه ثم يجلس ويكتب قصته ويسبك فيها كل ما رآه وسمعه » •

« وكل الكتاب في أوائل القرن التاسع عشر وما قبله كانوا يميلون

(١) اشرنا الى ذلك في « الواقعية في الادب » المتقدم في صدر هذا

الكتاب في الصفحة •

للطريقة الخيالية لسهولة ورواج رواياتها وينفرون من الطريقة الثانية لصعوبتها ونفور القراء منها • ومثل نفور القراء من الروايات الحقيقية كمثل القبيح يقف أمام المرأة ويرى قبح وجهه فيكذب المرأة ويطلب غيرها تريه نفسه جميلا • وكان أول من هدم اساس الخيال وشاد صروح الروايات الحقيقية الكاتب القصصي الفرنسي الشهير (هو نوردي بلزاك) الذي ولد في أواخر القرن الثامن عشر ومات في أوائل القرن التاسع عشر ، وهو أول من بدأ بكتابة قصصه على الطريقة الحقيقية وأول من بدأ بتحليل أخلاق البشر وقلوبهم تحليلا فلسفيا • وكل ما كان يأخذ عليه أعداؤه هو تصريحه تصريحاً يخدش وجه الحياء ولكن بلزاك لم يعأ بهم ولم يرغب أن يجبر الذيل على المخازي بل أراد أن يكشف أمرها ليراها الناس بأعينهم لعلهم يرجعون عن غيهم • وقد كتب عددا عظيما من القصص وجمعها تحت عنوان (الكوميديا الانسانية) أي رواية الانسانية المضحكة •

« وقد سار على خطوات (بلزاك) تلميذه (أميل زولا) الكاتب الفرنسي الشهير الذي انتقد (لويس أولباك) كتابه المسمى (تريزاراكن) بقوله أنه كتاب تنن لان مؤلفه صرح فيه بما يجب كتمانها •

وقال لطفي جمعة بعد ذلك انه رغب في أن يكتب قصة يرى الناس فيها معائبهم فيصلحونها ، ولا يريد أن يغشهم بتصوير الناس في صور جميلة ولكنها مخالفة للحقيقة ، وذلك طبقا لمذهب بلزاك وزولا ، وعرض الموضوع الذي تناوله في القصة وشرحه في عشرين صفحة ، وهو سقوط الرجل والمرأة « الرجل الساقط الذي أساءت اليه الهيئة الاجتماعية^(١) وجنى عليه أبوه ... الخ » والمرأة « المسكينة المحترقة المهانة الظالمة المظلومة التي أجبرها الفقر وألزمها الفاقة فباعت عرضها لتأكل بثمره رغيف خبز يابس » وعرض للبحث موضوع سقوط المرأة ومن المسؤول عنه ، ونقل مقالا من صحيفة « الجوائب المصرية » وأشار الى تقرير « اللورد

(٢) يقصد المجتمع ، وقد اطلق عليه هيكمل كلمة « الجمعية » في قصة « زينب » •

كرومر » عن الرقيق الابيض ، ومقال لفرح أنطون ، وبسط الكلام في موضوع رواية « البعث » لتولستوي ، واستنتج منه رأي تولستوي • الخ ، ثم بسط رأيه في الموضوع • وبعد أن شرح « القاعدة » شرع في « التطبيق » فكتب القصة كتابة تدلنا على أن الاطلاع على الادب ومذاهبه شيء آخر غير كتابة الأدب نفسه ، كتبها كتابة « تعليمية » كل همه فيها أن يعبر عن ارائه وأفكاره ، فراح يسرد الحوادث سردا متلاحقا لا تكاد ترى مشهدا مصورا أو تفصيلات مميزة ، ووصف الشخصيات وصفا خارجيا ، قدم كلا منها دفعة واحدة بالوصف لا من خلال الحركة والتجسيم ، وقسم القصة كموضوعات لكل منها عنوان • وفي القصة خطب عن الفضيلة والرزيلة وجناية الهيئة الاجتماعية على الافراد • • الى آخر ما لا نريد الاطالة به • ويبدو لي أن لطفي جمعة لما قرأ رواية تولستوي « البعث » أراد أن يمصرها بقصة « في وادي الهموم » فاقبس الحادث والموضوع ، ولكنه لم يهتد الى سر المعالجة الفنية •

ونعود الى سؤالنا : لماذا لم يكتب أولئك الكتاب القصة الحديثة حسب أصولها الغربية مع اتصالهم بها ووقوفهم عليها ؟ • هل كانت تنقصهم الموهبة ؟ لا أظن ذلك ، فان جدهم وعناهم في تأليف ما ألفوه يدل على انهم كانوا مدفوعين بمزاج قصصي لا يكون الا من الموهبة المتحفزة • ونستطيع ان نرى في مثل قصص المويلحي ولطفي جمعة وغيرهما نتائج هذه الموهبة وان لم يقدر لها التمام الفني على النحو الغربي الحديث •

هل كان ذلك لأنه لم تكن هناك حركة نقدية توجههم وتبصرهم بما في كتاباتهم من نقص ؟ يدفع هذا ايضا ان هيكمل وتيمور وطاھر لاشين ، بل وتوفيق الحكيم ونجب محفوظ ، كتبوا روائهم قبل أن يعنى نقادنا بالانتاج القصصي ويكتبوا عنه كتابة جادة بصيرة •

هل كان ذلك لأن القراء المعاصرين لم يكونوا على استعداد لتلقي الفن الحديث ؟ قد يكون هذا ، وقد كان فعلا ، مما دفع كتاب التسلية والترفيه

الى نقل قصص المغامرات والاثارات وتأليف قصص على غرارها ، فليقت مترجماتهم ومؤلفاتهم رواجاً كبيراً وانتشاراً واسعاً • أما الأدباء الجادون الذين كانت تؤرقهم الافكار والمشاعر وتستحثهم على التعبير لم يلتفتوا الى المطالب التافهة من جماهير القراء ، وان كان من الواجب أن نشير الى التجاوب بينهم وبين قرائهم في الاساليب العربية المألوفة التي يميل اليها كثير من القراء ، حتى انهم كانوا يتلقون كتاباتهم القصصية على أنها «أدب» لا قصص وفكاهات •• حسب المفهوم في ذلك الزمان •

والفرض الاخير الذي تمسك به ، اذ لا نجد له رداً ، بل على العكس نرى ما يعززه ، هو أن أولئك الكتاب كانوا مشدودين الى الأدب العربي شداً وثيقاً ، فكانوا يشعرون باصالة عربية يأبون أن يفرطوا فيها • ومما يدلنا على ذلك موقف محمد المويحي من الشاعر أحمد شوقي ، اذ أنكر عليه قوله انه سيحاول التجديد بتأثير اطلاعه على الادب الغربي ، وقال له : ما على الشاعر المجدد من أمثالك الا ان يتصفح دواوين القدماء فيجد فيها لا في الغرب ضالته التي ينسدها •

ونستطيع أن نستخلص من هذا وغيره أن أولئك الكتاب كانوا يرمون الى تطوير فن القصة العربي ، وأهم ركائزهم في هذا الاتجاه فن المقامة ، كما حدث في الشعر • ولذلك لم يندفعوا الى أخذ الشكك الغربي بحذافيره • ورأينا بعد ذلك هذا التيار ينقطع أولاً بظهور رواية « زينب » وثانياً بظهور القصص القصيرة على أيدي روادها • وقامت هذه القصص الحديثة على أخذ الشكل الغربي وافراغ المضمون القومي فيه •

ويكاد الدارسون يجمعون على ذلك ، وأقول « يكاد » لأن باحثاً جاداً ، هو الاستاذ فاروق خورشيد عرض في كتابه « فن الرواية العربية » لهذه القضية وهو بصدد الحديث عن القصة عند العرب ، فقال : « ان الانتاج الروائي العربي المعاصر يصل الى درجة من الاصاله تجعل من المذهل حقاً ان يكون هذا الفن وليد عشرات من السنين ، كما تجعل من المتعذر على التفكير العلمي أن يقبل ما يردده الكثيرون من أن هذا الفن

مستحدث في أدبنا العربي لا جذور له ، نقلناه مع ما نقلنا من صور الحضارة الغربية وقلدناه محاكين ما نقلنا ، ثم بدأنا نتج بعد هذا ألوانا متفردة من هذا الفن الجديد على أدبنا^(٢) » الى أن قال : « والعجيب حقا ان يسلم الدارسون بان فن الرواية والقصة فن مستحدث نقلته اليها الترجمة والاتصال بالآداب الاخرى »^(٣) . وقد اهتم باثبات « أن أدبنا وتراثنا لم يهمل هذا اللون الحيوي من الانتاج الفني ، ولم يتخلف عن غيره من الآداب في الاضافة الى التراث الانساني بما يغنيه ويشريه »^(٤) .

والقضية الاخيرة لاشك فيها ، غير أن الواقع التاريخي بالنسبة الى الانتاج القصصي الحديث ينطبق بعكس ما يذهب اليه فاروق خورشيد . وقد رأينا رواد القصة ينهجون المنهج الغربي الخالص ، ويصرحون في كتاباتهم بأنهم يأخذون شكل القصة الاوربية لينشئوا على غرار أدبا قوميا . ولم نر أحدا منهم يلتفت الى شيء من قديم القصص العربية ، وكثير منهم لم يدرس الادب العربي ، وحتى الذين ألموا بهذا الادب كان أكثرهم لا علم له بالقصة العربية في عصورها الماضية لاهمالها في الدراسة التقليدية . وليس عجيبا أن يكون ما بلغناه في القصص من الاصاله والاجادة وليد عشرات السنين - وهي عندنا تزيد على خمسين سنة - ليست بالزمن القليل الذي لا يكفي لهذا النضج القصصي الملحوظ ، ففن القصة - بمفهومه ومقوماته الحديثة - بلغ أقصى ما وصل اليه من النضج في الغرب في أقل من هذه الفترة منذ نشأته .

والمسألة في رأيي ليست مسألة قومية بمقدار ما هي حقيقة تاريخية . ولا يضيرنا في شيء أن نأخذ ونعطي ، فان أخذنا الآن عن الغربيين فقد أخذوا عنا في عصور ماضية ، اذ نقلوا عنا قصص ألف ليلة وليلة ، فترجموها من اللغة العربية الى لغاتهم ، وحاكوها في قصصهم ، وتأثروا بخيالها فيما أنتجوه .

(٢) كتاب « في الرواية العربية » ص ٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٩ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٩ .

والسؤال الاخير في هذا الموضوع : هل كان من الخير ما حدث أو كان خيرا منه أن يستمر التطور العربي في فن القصة ؟ ان الجواب عن هذا السؤال يتوقف على المقارنة بين شيئين لم يوجد أحدهما •• وهو الفن المتطور - الى آخر المدى - عن الأصول العربية ، ولهذا أعتقد أن السؤال سيظل بلا جواب الى أن يحدث رجوع من جديد •• ولا أظن ان يحدث رجوع •

حديث خرافة

كان للعرب في مختلف العصور فنونهم القصصية النابعة من بيئتهم ،
والمصورة لحياتهم وعقائدهم ومغامراتهم وبطولاتهم • وكانت هذه الفنون
متقدمة في أزمانها ، وان اختلفت في النوع عن تراث الغرب باختلاف
ظروف البيئة وأحوال الاجتماع •

ومثال ذلك القصص الشعرية الحماسية الطويلة « الملاحم » التي
نشأت في بعض المجتمعات الاوربية القديمة ، اذ كان الشعراء يطوفون
بالقرى والمدن ينشدون تلك الملاحم بمصاحبة آلات موسيقية • أما البيئة
العربية القديمة فقد كانت تتكون من قبائل غير مستقرة تسعى دائما وراء
الماء والمرعى ، فلم تكن صالحة لنشوء الملاحم وأولئك الشعراء الطوافين ،
فلما استقر العرب في مختلف البلاد - بعد الفتوحات الاسلامية بزمن -
نشأت بينهم ملاحم مشابهة لا تعتمد كلها على الشعر بل تتكون من النثر
والشعر ، يتعاقبان في السرد والتصوير والحوار ، ويكون الشعر غالبا في
المواقف التي يغلب فيها التحمس والانفعال ، وصار الشعراء الطوافون
ينشدونها بمصاحبة « الربابة » •

تروى الملاحم العربية سير أبطال العرب الحقيقيين والخياليين
ومغامراتهم في الحرب والحب ، وتقصد استثارة الهمم العربية ، وذلك مثل
سيرة عنترة وقصة سيف بن ذي يزن وقصص الهلالية الكثيرة •
ولعل أقدم الفن القصصي عند العرب القصص الخرافية ، كما هي
الحال في البداية لدى كل المجتمعات القديمة • وكلمة « الخرافية » نفسها
تضع أيدينا على البداية العربية ، وما زلنا - نحن أحفاد العرب الاولين -

نردد هذه الكلمة في معارض مختلفة ، فهذه أحاديث خرافة ، وهذا كلام خرافي ، وفلان يخرف .. الخ •

وأصل ذلك أن رجلا عربيا من بني عذرة يسمى « خرافة » زعم أن الجن قد اختطفته ومكث عندهم مدة ، ثم أعادوه الى قومه ، وراح يحكي غرائب مشاهداته في بلاد الجن وعجائب ما وقع له معهم ، فكان قومه يستمعون اليه ، ويعجبون ، ثم يقولون : « أحاديث خرافة » وصار هذا يطلق على كل كلام غريب لا يصدق •

ومما يؤسف له أن أحاديث خرافة نفسها - أي ما تحدث به عن الجن - ضاع في متاهات الزمن كما ضاع كثير غيره من القصص العربية الاولى • ومما يدل على أن هذه القصص وجدت ، وأنها كانت تعد من الأدب ، ما حكى من أن سهل بن علي أبي غالب الخزرجي وضع كتابا في الجن وأخبارها وحمله الى هارون الرشيد فقال له فيما قال : « ان كنت رأيت ما ذكرت فقد رأيت عجبا ، وان لم تكن رأيته فقد وضعت أدبا » •

وواضح من هذا ان الرشيد لم ينكر هذا الفن القصصي الاسطوري الخرافي ، بل عده من الادب ، ولم يكن مثل كثير من الدارسين للادب العربي في عصرنا وما قبله ، الذين لم يهتموا بهذا القصص ولا بما جاء بعده من القصص الشعبي واعتبروا ذلك كله بغير حق شيئا خارجا عن نطاق الادب ... •

ولو وصلت الينا تلك القصص كاملة لكان لنا منها فن قصصي عظيم مثل أساطير اليونان وغيرها •

ومع ذلك فقد أفلتت من عوامل الضياع بعض قصص هنا وهناك ، نذكر منها شيئا يدل على الاعمال شبه الاسطورية الاولى :

قالوا ان عمرو بن يربوع تزوج « الغول » وعاش معها مدة رزق منها في خلالها أولادا • وكانت زوجته « الغول » تقول له :

« إذا لاج البرق من جهة بلادي - وهي جهة كذا - فاستره عني ،

فاني ان لم تستره غني تركت لك أولادك وطرت الى بلاد قومي » •
فكان عمرو كلما برق البرق غطى وجه زوجته بردائه فلا تبصره •
حتى كانت ليلة غفل فيها وقد لمع البرق فلم يستر وجهها كعادته ، فطارت
وقالت له وهي تطير :

امسك بنيك عمرو اني آبق
برق على أرض السعالى ألق

تقول : ارع أولادك يا عمرو فاني ذاهبة نحو برق تألف لي من ناحية
أرض السعالى « الغيلان » •

وقد أشار أبو العلاء المعري الى هذه القصة القديمة في قصيدة من
شعره وهو يتحدث عن بعض أسفاره مع أصحابه على ظهور الابل التي
تحن بطبيعتها الى البرق ، فقال انه كان اذا أومض البرق يستر وجوه الابل
حتى تسير في طريقها ولا تتجه نحوه كأنه هو عمرو بن يربوع والابل
هي السعالى ، وذلك في قوله :

إذا لاح ايماض سترت وجوهها ••
كأنى عمرو والمطى سعالى •

واتخذ كثير من شعراء العرب في العصر الجاهلي موضوع الجبن
والغيلان مجالا للتعبير عن الشجاعة والبطولة ، ومنهم الشاعر « تأبط شرا »
الذي يقص علينا في شعره كثيرا من وقائعه مع الغيلان ، وكانوا يعتقدون
أن الغول اذا ضربت بالسيف ضربة واحدة هلكت فان ضربت ثانية عاشت ،
ويحكى « تأبط شرا » احدى مغامراته مع الغول فيقول :

لقيت الغول تسري في ظلام
بسهب كالعباءة صحصحان

ويمضى في قصته معها حتى يقول انه ضربها بالسيف :

فقلت نـ ، قلت لها : رويداً ...

مكانك انني ثبت الجنان

فلم ينخدع بكلامها وتحديها له أن يضربها ضربة ثانية ، بل تركها
تموت من الضربة الواحدة ، وانتظر الى الصباح ليرى ماذا حدث لها ،
فقال :

ولم أنفك مضجعهما لديها

لأنظر مصبحا ماذا دهاني

إذا عيان في رأس دقيق

كرأس الهر مشقوق اللسان

ومن هذه القصص أن الشاعر الجاهلي « عبيد بن الأبرص » كان في
سفر الى الشام ، وفي الطريق اعترضه شجاع (أفعى كبيرة) وكانت
الأفعى تلهث من شدة العطش ، فنزل عبيد عن بعيره وأخذ بقية ماء كانت معه
وصبها في فم الأفعى حتى رويت واطمأنت وانسابت في الرمل ، ثم مضى عبيد
في طريقه الى الشام ف قضى حوائجه ورجع ، ونام في الطريق ، فلما استيقظ
لم يجد بعيره ، فجعل يبحث عنه ، فإذا هو ببعير آخر على رحل معد
للكوب ، وإذا هاتف لا يراه يقول له : اركب هذا البعير حتى يوصلك
الى ما تريد ثم اتركه .. فركبه فلم يلبث أن رأى بيته .. فنزل عنه
وهو يقول :

- أسألك بالله يا هذا من أنت ؟؟

فسمع الهاتف يقول :

« الشجاع الذي أرويتني ظمأ » •

الى أن يقول :

الخير يبقى وان طال الزمان به

والشر أقبح ما أوعيت من زاد

وقصة عبيد بن الأبرص هذه من النوع الهادف وإن كان خرافيا ،
فهي ترمى إلى الخير وتصور التعاطف في شكل جميل ...
كل هذا وكثير غيره - مما يصور واقع الحياة العربية في غير المجال
الخرافي - يجعلنا لانتقي بالا إلى ما قاله بعض المستشرقين - ومنهم « أرنست
رينان » - من أن البيئة العربية الصحراوية التي عاش فيها العرب لم تكن
غنية بالمناظر المتنوعة ، فلم تمنحهم المخيلة الخالقة المبتكرة التي تتوافر
للغربيين •

فإن الغربيين يريدون دائما أن يوحوا إلينا - سواء بالقول الصريح
أو بلسان الحال - أنهم في طبيعتهم وأصل خلقتهم أحسن منا ويحسنون
ما لا نحسن ويعملون ما لا نستطيع عمله •
وقد اثبتنا ، وسنثبت لهم دائما ، أن تلك المزاعم ما هي الا •• حديث
خرافة •••

الفلاح في القصة

كان نصيب الفلاح وتصوير شقائه من فن القصة ، أكثر من نصيبه في الشعر في حياتنا الادبية الحديثة أو في الفترة الاولى منها على الاقل ، فبينما نراه لا يظفر من الشعراء في تلك الفترة حتى سنة ١٩٣٠ الا بنزر يسير من الاهتمام حسب ما حدثنا الاستاذ محمد عبدالغني حسن في كتابه (الفلاح في الشعر العربي) اذ نرى كتاب القصة يتناولونه بشكل أوسع وأعمق ، مع ان فن القصة عندنا كان لا يزال في المهد صيبا ، وفن الشعر عريق في أدبنا ومتطور في الحديث • وهذا يرجع الى أن القصة اقدر من الشعر على تصوير الواقع وتناول مشكلاته ، على أن الشعر له مجالاته الجمالية والشعورية الاخرى التي يبرز فيها القصة عند عشاقه ، فلا يغضب اخوتنا الشعراء ••

ولنعد الى الموضوع ، يقول الاستاذ محمد عبدالغني حسن :

« لعل تصوير شقاء الفلاح وكدحه وحرمانه من ثمرات ما يكدح فيه ، وتحكم ملاك الارض في رزقه ورزق أولاده ، ورضاه باليسير من الرزق ، والبلغة من العيش ، وصبره على الهوان الذي ضرب عليه وقدر له - هو من آثار الوعي الاجتماعي النابض في أوائل القرن الذي نعيش فيه ، فما رأينا في القرن التاسع عشر ولا القرون التي مضت قبله اهتمام الادب والشعر بهذه الصورة الانسانية التي تستحق كل اشفاق » •

والواقع أنه كان هناك - في القرن التاسع عشر - بعض اهتمام من جانب القصة أو من جانب النثر بتعبير أقرب الى الدقة ، فهذا الذي سنذكره كتب دون قصد الى أحداث فن قصصي وان جاء في شكل أقصوصة :

كان ذلك في سنة ١٨٨١ بالتحديد ، كتبه « عبدالله نديم » في صحيفته « التنكيت والتبكيت » • وهو يتمثل في عدة أقاصيص ، منها أقصوصة « عربي تفرنج » تناول فيها فلاحا أرسل ولده الى أوروبا لكي يتعلم فيها ثم جاء الولد متنكرا لابييه ووطنه وقيمه ومترفعا على أهله ومواطنيه ، ولعل النديم أول من تناول هذا الموضوع ، ومن أقاصيصه تلك أقصوصة « الفلاح والمرابي » وهو تصور استغلال التاجر المرابي « الخواجة » للفلاح المصري وحاجته الى الضروري من المال ، وهذه الاقصوصة تتفق في موضوعها وهدفها مع القطعة الشعرية التي قال الاستاذ عبدالغني حسن أنها كانت « من الاصوات الشعرية الاولى في تنبيه الفلاح وتحذيره من المستغلين والمرابين » وهي لمصطفى صادق الرافعي ، قالها سنة ١٩٠٨ ، منها قوله :

يا صاحب الغيط احذر العذابا
من الربا والفقر والخرابا
ان الربا ليس لنا مباحا
هيا الى غيطك سقها - حاحا ••
اياك أن تذكر لي الخواجا
فقد رأيت جارنا المحتاجا
راح اليه ماله وماجا
وباع حتى البسط والدجاجا

فاذا جئنا الى أوائل كتابة القصص بطريقة فنية متكاملة ، وجدنا رواية بأكملها عن الفلاح المصري تظهر سنة ١٩١٢ لمحمد حسين هيكل هي « زينب » وان لم يظهر اسمه عليها في الطبعة الاولى مكتفيا بأنها مصري فلاح وهي وان كانت قصة حب رومانسي بين فتى وفتاة من الريف الا أنها تصور شقاء الفلاح وحرمانه تصويرا واقعيا ، نرى في أول لوحة منها صورة أسرة « زينب » الكادحة وهي تستيقظ في الفجر ، حين قامت زينب ، فأوقدت

نارا ولدنت فوقها رغيفا لكل منهم (من أهلها) ولم تنس أباهما وأمهها ، دخل أبوها راجعا من الجامع وقد قرأ الورد وصلى الفجر ، وما كاد يتخطى عتبة الدار حتى نادى : يا محمد • وسأله ان كان قد استيقظ بعد وان كان قد أعد عمله • جلست العائلة جميعا حول (المشنة) وأكل كل منهم بحصوة ملح ، ثم قام الرجل وابنه الى عملهما » •

واذا كانت حركة تصوير بؤس الفلاح في الشعر الحديث لم تتميز الا بعد عام ١٩٣٠ كما أوضح الاستاذ عبدالغني حسن معقبا بقوله : « فقد مرت السنوات بعد الحرب العالمية الاولى ولم يرتفع صوت بالشكوى من سوء حال الفلاح » •

اذا كان ذلك بالنسبة للشعر فان القصة ، والقصة الواقعية بالذات ، كانت أول واحدة منها - عقب الحرب العالمية الاولى - عن الفلاح وهي قصة « في القطار » لمحمد تيمور ، نشرت في جريدة « السفور » سنة ١٩١٧ ، تناولت معاملة الاقطاعيين والحكام للفلاح ، التي كانت تقوم على أخذه بالكرباج وأنه لا يصلح الا بهذا ، والقصة تثور على ذلك وترى بطريقتها الفنية فساد تلك النظرة ، وتدعو الى تعليمه وترقيته^(٦) •

ثم تتسع الحركة ، حركة تصوير الفلاح في القصص ، فترى قصة قصيرة منشورة في مجلة « فتاة الشرق » للدكتور « منصور فهمي » بعنوان « ابن الحاج نصر » ترسم لنا شخصيات الريف ، تبدأ القصة هكذا :

« أنا ذا ابن الحاج نصر ، الله •• الله •• ما الذي حل في الدنيا ؟ » • وفي هذا البدء نجد مثالا رائعا للتعبير الفصيح القريب ، بل الممتزج بالواقع ، فكذا يتكلم أهلنا في الريف ••

وقد نشر الدكتور منصور فهمي قبل هذه القصة بثلاثة أشهر قصة أخرى في المجلة نفسها • ولم نر له بعدها قصصا أخرى ، فقد عدل عن كتابة القصص وانصرف الى نواح أخرى من النشاط الثقافي واعمال الوظائف ، التي تولاها • واليقين أن هذه الباكورة كانت - لولا ذلك - ستفضى الى

(٦) سبق الكلام على هذه القصة في موضوع « الواقعية في الادب » •

ثمرات أنضج ، وكنا كسبنا كاتبا من كتاب القصة البارزين •
ثم نرى في مجموعة « احسان هانم » لعيسى عبيد التي نشرت طبعها
الاولى سنة ١٩٢١ قصة بعنوان « مأساة قروية » صور فيها الكاتب مظاهر
الطبقية والنفوذ الاقطاعي في الريف وجناية الاقطاعيين على الفلاحين
الكادحين الى حد الاعتداء على العرض ، اذ تدور على حادث فتاة من القرية
كانت تحب ابن عمها وهو يحبها ، ثم تعلق بابتها بالباشا مالك الارض
وأحبته وأعرضت عن ابن عمها ، اذ جذبها في الفتى الارستقراطي رقة
حديثه وتلففه معها ، وظنت أنه سينقذها من حياة الفقر التي تعيشها مع
أهلها ، أما هو فلم يكن الا طامعا في جسدها •

ولعل عيسى عبيد أول من يستخدم الرمز عندنا في القصص لتصوير
الحادث الذي يعالجه بطريقة واقعية وتعزيز التعبير عنه • ذلك أنه عندما
كان ابن الباشا يفترس الفتاة هبطت حدأة « بقوة على شجرة التوت التي
تظللها حاملة بين مخالبها كتكوتا يحتضر ، وكان يسمع له أنين ضعيف
مخنوق » •

ويستمر في الصورة الرمزية فيشير الى ما كان من علم أهل الفتاة
بالعلاقة الاثيمة بينها وبين ابن الباشا وقتلهم اياها دون أن يجروا على ابن
الباشا ، فيقول عن الحدأة :

« ولم تكد تستقر على أحد اغصانها حتى لحق بها غراب مفقدا
بحاسة الشم القوية الخاصة بالطيور الجارحة فتعلق على غصن يحاذيه •
ولبت في مكانه يراقبها بخوف وجبن وهو ينقو بكل قواه ، وكأن الحدأة
كانت واثقة من قوتها وتفوقها على خصمها فلم تعره أدنى أهمية ، وواصلت
بطء التهام فريستها الصغيرة ، وعلى أثر النعيق جاءت عصبة غريان حاولت
سلب الحدأة فريستها ، فبسطت هذه جناحيها القويين اشارة التهديد ، وما
اتتهت من عملها حتى ألقت نظرة ازدراء باردة على أعدائها الجبناء الذين
لم يجسروا على الانقضاض عليها ، ثم حلقت في الجو ففترقت الغريان » •
ونجد بعد ذلك بضع سنين رمزا آخر بقصة أخرى عن الريف

لمحمود طاهر لاشين ، هي قصة « حديث القرية » في مجموعة « يحكى أن » وهي قصة جيدة تهدف الى تصوير حال القرية المصرية وما يعيش فيه أهلها من فقر وما هم عليه من جهل ، والى أن الطريق الى تخلصهم مما هم فيه هو أن يتسلحوا بالارادة والعمل ، وأن يشعروا بوجودهم ويصروا على تحقيق هذا الوجود . قدم لنا فيها شخصية « مأذون القرية » الذي يضلل القوم ويبث فيهم أفكارا متخلفة لا تتفق مع حقائق الدين ، ويناقشه راوي القصة ، ويتحدث الى القوم فيصارعهم بشظف عيشهم ، ويبين لهم طريق الاصلاح . ولكن حين يتأهب المأذون للقيام « بدعوى أن حضرة العمدة وكثيرا من الاعيان في انتظاره » يقبل عليه - على المأذون - الفلاحون « بنفوس مطمئنة راضية يقبلون يده ويحمدون الله على نعمة الستر . . . »

وتختتم القصة بهذا الختام الرمزي الذي يعبر عن الموقف كله ، اذ يقول الراوي :

« وآثرنا البقاء - صديقي وأنا - فتركوا لنا المصباح ، وقنعوا بأن يتبعوا فقيهم في الظلام . »

ويزداد اتساع الحركة القصصية ، ويتطور في القصة بنوعها : الطويلة والقصيرة . ففى الريف مبسوطا - بشخصياته وصور حياته ومواجهه وتطلعاته - فى قصص عبدالرحمن الشرقاوي وعبدالحليم عبدالله ومحمود البدوي ويوسف ادريس وأمثالهم من الكتاب الفلاحين الذين يزدادون يوما بعد اليوم والحمد لله .

بين مسلم وسبيحي في قصة مصرية

جرى الامر في الاسلام - تشريعا وتاريخا - أن العلاقة بين المسلمين وأهل الكتاب ، ولا سيما المسيحيين ، علاقة أخوية ومودة وتعايش وتعاون • فالشريعة السمحاء قالت : لهم من الحقوق مالنا ، وعليهم من الواجبات ما علينا •

وكان مدار التعايش السلمي على أن لكل عبادته وشعائره يؤديها كما يشاء في حرية كاملة ، تقوم الكنيسة كما يقوم الجامع ، وتصدق الاجراس كما يرتفع صوت المؤذن ، لا ينكر أحد على أحد شيئا من أمر دينه وعبادته •

أما المعاملات والعلاقات الدنيوية فهي موحدة بين الجميع ، تجري أحكامها على الفريقين كما تجري أحكام الدستور والقانون على أفراد مجتمع يسوده العدل والحرية والاخاء •

والواقع التاريخي ينطق بأن المجتمع الاسلامي في مختلف العصور والبلدان لم يعرف فرقة أو نزاعا جماعيا بين المسلمين والمسيحيين ، فان حدث شيء فردي فسرعان ما يستنكره المجتمع من الفريقين ، ويعود المنحرفان عن الجادة الى الطريق المستقيم •

عرفنا في تاريخنا كثيرا من المسيحيين الذين برزوا في نواح مختلفة كالادب والشعر والعلم والطب ، وكان لهم قدر واعتبار كأمثالهم من المسلمين ، وكان الخلفاء يقربونهم ويولونهم ما هم له أهل من عناية ورعاية ، ويسندون اليهم ما يناسبهم من الاعمال والمناصب •

وعرفنا في تاريخنا المصري خاصة ما كان من تعاون وتكتل قومي رائع

بين المسلمين والمسيحيين ضد الغزو الصليبي الذي خرج على روح المسيحية السمحة المسالمة ، على نحو ما جلاه في تصوير أدبي جميل الاخ يعقوب الشاروني في مسرحيته « أبطال بلدنا » التي كافأ عليها المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب ، وقد جرى صراعها المسرحي على الدفاع عن المنصورة ، وانتهى بنصر المصريين وأسر لويس التاسع •

وامتد ذلك التكتل القومي بين مسلمي مصر ومسيحييها الى العصر الحديث في مقاومة الاستعمار سليل الصليبية العمياء ، وبلغ قمته في ثورة ١٩١٩ التي صهرت كل طوائف المجتمع المصري وجميع طبقاته في بوتقة الوطنية الحارة الصادقة ، وأخرجت من الجميع مركبا صلدا لا يعرف العنصرية ولا يعتريه التفكك •

بعد تلك المقدمة – التي هي في الحقيقة لب الموضوع – نسوق واقعة قصصية ضمنها الكاتب المصري المسيحي « عيسى عبيد » قصة من قصصه التي كتبها في أعقاب ثورة سنة ١٩١٩ •

وقد صور عيسى عبيد ما حدث بين تاجرين أحدهما مسلم والآخر مسيحي ، في خلال الثورة ، تصويرا يقوم على مذهب جديد في الادب كان قد أخذ فيه – دعوة وتطبيقا – هو وأنداده من الكتاب الذين أخذوا على عواتقهم أن ينشئوا فنا قصصيا في الادب العربي الحديث •

ذلك المذهب هو ما سمي بعد ذلك في العربية بالمذهب الواقعي ، وكانوا يطلقون عليه « مذهب الحقائق » مقابل كلمة « الريالزم » الاجنبية • يقوم « مذهب الحقائق » كما يقول عيسى عبيد « على دعامة الملاحظة والتحليل النفسي الراميين الى تصوير الحياة كما هي بلا مبالغة أو تقصير أي الحياة العارية المجردة » ويعلل ذلك بأن للتصوير الصادق أثرا بالغا في نفس القاريء ، لانه يجعله يشعر بصحة الرواية المأخوذة عن الحياة وبحقيقة وجود الشخصيات المصورة •

وكان يرمي مذهب الحقائق الى ما يعبر عنه عيسى عبيد بقوله « على أننا في ابان نهضة كبيرة أوجدتها حركتنا الوطنية ، ومن شأن النهضة أن

تحدث عادة انقلابا في العادات والتقاليد وتغيرا في الميول والأفكار ، وقد ظهر أثر ذلك في كتابة كثير من كتاب الناشئة الجديدة « الى أن يقول عن هؤلاء الكتاب الناشئين أنهم « متطلعون الى آداب جديدة تضارع الآداب الغربية بالصفة العلمية والطريقة التحليلية والمرامي الفنية ، وهذا مما يثلج صدورنا ويفعم نفوسنا بالامل الكبير من نجاح قصصنا ورواياتنا العصرية المصرية ، لان غايتنا منها ايجاد أدب مصري موسوم بطابع شخصيتنا المصرية ويمثل حياتنا الاجتماعية والنفسية والوطنية » •

وطبقا لتلك الاسس - من حيث السياق الواقعي الصادق ومن حيث القصد الى أدب يعبر عن الشخصية المصرية - صور لنا الكاتب ما حدث بين بين المسلم والمسيحي هذا التصوير الدقيق المطابق للواقع في خلال الانتفاضة الوطنية ، الرامي الى الهدف المنظم ، هدف التكتل والتعاون والتواد بين عنصري الامة الثائرة على قيود الاستعمار •

القصة عنوانها « مذكرات حكمت هانم » - وهي آخر قصة في مجموعة « احسان هانم » - تقول البطلة في احدى مذكراتها بتاريخ أول ابريل سنة ١٩١٩ :

وقع شجار هائل بين المعلم مسيحة والشيخ عبد ربه ، فقد انفجرت مرة أخرى بشكل مريع ، تلك العداوة القديمة ، عداوة الحرفة والمنافسة المستحكمة بين هذين البائعين ، واشترك في الشجار أفراد عائلة كل منهما ، حتى سالت الدماء • وانجلت المعركة عن اصابة الشيخ عبد ربه بجرح يبلغ في رأسه من حجر رمى به ، وبكسر ضرسين من فك المعلم مسيحة من أثر ضربة « روسية » •

وكان قد خاف العقلاء من تجار الحي والجيران نتيجة عداوة هذين الرجلين المتباينين في الدين ، لثلا ينسب أعداؤنا عداوتهما الى التعصب الديني ، فتدخلوا بينهما مرارا لحسم النزاع وحملهما على المصافحة ، الا أنهم في كل مرة كانوا يصطدمون بقوة عنادهما الغبي وما وضعه كل منهما شرطا للصالح • فقد كان التاجر المسلم يطلب مصرا أن ينقل المعلم مسيحة حانوته الى

الى حي آخر ، بحجة أنه يأخذ عملاءه ويذبح عنه اشاعات مضرّة بسمعته ورواج بضاعته •

وكان التاجر القبطي يطلب عين الطلب لاقدميته ، وكلاهما يرى في قبول هذا الشرط نلما لكرامته •

وأدى شجارهما هذه المرة الى تدخل البوليس ، ففتح لهما محضرا • وفي مذكرة أخرى بتاريخ ٧ ابريل كتبت حكمت هانم : أصبحنا اليوم واذ بحركة غير عادية في الشوارع ، شاهدت أناسا مختلفي السحن والازياء يسيرون زرافات وجماعات ، تدل سيماهم على الفرح والسرور يحملون من الاعلام المصرية مختلف الاحجام ، وكنت أسمع أصوات هتافات بعيدة صادرة بلا شك من جوف المدينة وعبّا حاولت معرفة ما يهتفون به ، واذا بجماعة من الطلبة أخذوا في حيناً يسيرون صفوفاً منتظمة متراسة متتابعة ، سير في مقدمتهم واحد منهم يحمل علما مصرياً كبيراً رسم عليه الصليب يعانق الهلال ، وكتب تحت هذا الرمز الوطني « يحيا الاستقلال التام » •

وتقول حكمت هانم بعد ذلك انها خرجت مع صاحبها في مظاهرة نسائية •• الى أن تقول :

وما كدنا نصل الى الشارع حتى استرعى نظرنا منظر مؤثر للغاية ، فقد رأينا الشيخ عبد ربه يعانق المعلم مسيحة قائلاً بنشوة فرح اختلجت لها عضلاته : نحن أخوة يا معلم مسيحة ، لا يحق لنا أن نتشاجر ، ورأينا القبطي يقبله ويضمه الى صدره كأنه يعانق أخاً لم يره منذ سنين عديدة • واجتمع حولهما جمع غفير يصفق لهذه العواطف الوطنية المتجلية بأبهى مظاهرها والثيرة في النفس نشوة طرف واعجاب ، وكان القوم يهتفون بكل ما فيهم من قوة : يحيا الاتحاد •

التفت عندئذ الى رفيقاتي فوجدت الدمع يترقرق في أعينهن الطاهرة • حتى في النكسة الوطنية التي حدثت بعد ذلك وتمثلت في الصراع بين الاحزاب والتكالب على الحكم والنفوذ واقتناء الثروات •• حتى في هذا

تعاون العنصران •• فكنا نراهما في كل حزب مترابطين متعاونين ••• على
الخير والشر •

وبعد : فإن الاسلام انما تتم صورته الاجتماعية بتجلية روحه العظيمة
التي ضمت بين أحضانها العنصرين في مجتمع واحد متكافل ، يعمل
العنصران فيه باعتبارهما عنصرا واحدا لا انفصام له ولا تمايز فيه •

اختلاف الفهم

تجري الآن في حياتنا الادبية خلافات وصراعات متعددة ، بعضها شخصي تدفع اليه حماقة أو منفعة ذاتية ، وبعضها موضوعي له أهداف فكرية وتثريه وجهات نظر متباينة • وهذا وذاك قد يخالطه الجهل ويلاسه قصور النظر وسوء الفهم أو التعصب لجماعة معينة •

واذا وضعنا الحماقة والمنفعة العاجلة والجهل والغباء والتعصب الى جانب ، ونظرنا في الخلاف الموضوعي ذى الاهداف العامة ، فانتا لا تنزع من انتشاره ولا من استشرائه ، بل على العكس نراه دليلاً على الحيوية في واقعنا والنهوض في حياتنا الادبية والفكرية •

حتى الحماقة واخواتها •• لا بأس بها كطفيليات تنبت على الحوافي ، وغبار يثار ثم يصفو منه الجو ، وزبد يطفو ثم يذهب جفاء •• هذه أيضاً دليل الحيوية وضريبة الحركة النامية •

لو تأملنا الحركة الادبية العربية الحديثة في مراحلها الماضية ، لوجدناها قامت على الاختلاف ، بل على احتدام المعارك بين القديم والجديد ، والظليعة التي قادت الافكار الجديدة في النصف الاول من هذا القرن ، خاضت معارك حامية مع أنصار القديم ، والمكاسب التي تكشفت عنها هذه المعارك والتي خلصت اليها نية ظافرة ، بعد أن سكن الغبار وانطفأ الاوار واصبحت في حياتنا الادبية اصولاً مقررة وامورا مجمعا عليها - هذه المكاسب لا يرجع الفضل فيها الى أنصار الجديد الذين كانوا فحسب ، بل يرجع كذلك الى أنصار القديم •• اذ كفكف هؤلاء من غلواء الجديد وأبانوا لانصاره كثيرا

من أخطائهم • وعندما تنتهي المعركة يستين حتى للمنتصر ما وقع فيه من أخطاء •

وكل جديد في الادب لابد أن تصحبه معركة ، بل انه لا يتم تمامه الا بعد أن يخرج من المعركة ظافرا ، والذي يحدث أن الجديد - بعد الفورة الاولى - يتصالح مع القديم ، اذ يتضح من الصدام - لكل من الفريقين ، أو للعقلاء الواعين منهما ، ما في جانب خصمه من حق وما في جانبه من باطل •

لنأخذ مثلا المذهب الواقعي الذي التفت اليه أدباء الطليعة عندنا في أوائل هذا القرن ، وقويت دعوته واتسع تطبيقه في العشرينات منه وما بعدها ، كان هذا المذهب ثورة على أمرين كانا يسودان الحياة الادبية ، أولهما محاكاة القدماء في الشكل وفي المضمون ، أي في الاسلوب اللغوي الذي يتقله الزخرف والمحسنات المتكلفة ، وفي المشاعر والافكار المرددة التي تأخذ الطريق على النبض الاصيل • وثاني الامرين الخيال البعيد الذي انحدر الى شعرائنا وكتابنا من الرومانسية الغربية على حين كانت في بلادها على وشك الغروب • واوغل أنصار الواقعية الثأرون على الكلاسيكية والرومانسية - في محاكاة الواقع وتصوير البيئة المحلية حتى غفلوا عن مقتضيات الفن الجميل ، واشتطوا في بعض الامور ، سواء في النظرية وفي التطبيق •

وبعد أن سكن غبار المعركة بينهم وبين أنصار القديم تبنوا شططهم وسوء ما أوغلوا فيه ، وأصلحوا أمر الواقعية بالانتخاب من الواقع وتعميق التناول ، وحسنوها بشيء من الخيال وأشياء من جمال التعبير •

وقد تعرضت الواقعية عندنا أخيرا لمحنة جديدة ، كان ذلك من نحو عشر سنوات ، اذ ظهرت في حياتنا الادبية حركة غريبة باسم الواقعية وباسم ربط الادب بالحياة وتوظيف الفن في خدمة المجتمع ••• الخ • وزعم زاعموها أنهم يجددون بهذه الدعوة وأنهم أتوا بالذئب من ذيلة •• كما يقول المثل الدارج •

والواقع ان هذه الحركة كان فيها جديد •• هو الصراخ الاجوف

والهتاف بشعارات معينة وفرض اللون من الانتاج « الهتاف » على الادب ، وكان واضحا ان تلك الشعارات والهتاف بها متأثرة بتيار أجنبي ما لبث أن ارتد على اعقابها امام الانبعاث الاصيل الذي خرج من اعماقنا يعبر عن اصالتنا ويصد كل دخيل لا يلائمنا •

وكان الظفر في هذه الحركة للجانب الاصيل المدافع ، وانحسر الخلاف الحاد عن تراجع الهجوم واندحار المهاجمين • وكانت النتيجة أن استمرت الواقعية النامية في حياتنا الادبية منذ أن أرسى الرواد قواعدها • واسفر الاختلاف هنا عن نهضة مجددة واكبت النهضة السياسية والاجتماعية المنبعثة من صميم بيئتنا وفق احتياجاتنا وتطلعاتنا •

وفي أدبنا اليوم معركتان كبيرتان لا تزالان ناشبتين هما الخلاف على الشعر الحر ، والاختلاف بشأن اللا معقول • وقد كان المرحوم العقاد على رأس الجبهة المعادية للثنتين ، وليست الجبهة الاخرى ضعيفة • فللمشعر الحر انصار كثيرون ، من الشعراء ومن الجمهور ، أما اللا معقول فمركز الثقل فيه هو توفيق الحكيم ومسرحياته اللا معقولة •

ويبدو لي أن معركة الشعر الحر ستسفر عن فوزه ، ولعل من عناصر قوته أنه يقف على أرض عربية من حيث تفرعه من التفاعيل العربية والتزامه وزن التفعيلة الواحدة • واعتقد ان نصره مرهون بإمكان تقديم مضمون شعري مقنع ، وما قدم منه مقنعا حتى الآن قليل •

أما اللا معقول فهو أجنبي مائة في المائة • • وهو ليس مرفوضا لهذا بطبيعة الحال ، فهناك أسباب اخرى على رأسها أنه لا معقول • • ولو فرضنا أن الحياة غير معقولة أو أنها تشتمل على كثير أو قليل من اللا معقول وأنها لهذا غير مفهومة ، فلماذا نضيف إليها جديدا غير مفهوم ؟ أفلا يكفيها ما فيها ؟

وقد قرأت مسرحية « يا طالع الشجرة » لتوفيق الحكيم ثم شاهدتها على المسرح ، وأقر أنني شعرت بمتعة ، لعل مرجعها الى احتكاك المعقول باللا معقول في حوار توفيق الحكيم الممتع دائما • • ثم • • أليس من الممتع

أن يقوم الانسان بجولة في مستشفى أمراض عقلية ويستمع الى من فيه من المرضى ويرقب أحوالهم وتصرفاتهم ؟
ولم أجد في هذه المسرحية ما يؤيد ادعاء المؤلف في مقدمتها أنه استوحى فيها الادب الشعبي ، فكل ما في الامر أنه يسمع من بعيد صوت أطفال يغنون « يا طالع الشجرة هات لي معاك بقرة » وأن في المسرحية شجرة •

ومهما يمكن من شيء فان توفيق الحكيم قد أحسن بلا معقوله الى حركتنا الادبية •• اذ أتاح الفرصة لاختلاف جديد أثراها بأفكار جديدة •• ولم يخل ما يقال في أى الناحيتين من فائدة •••
ولابد من أحد أمرين : أما أن تنتصر الواقعية ، فتتغلب على المنافس الجديد وتطرده ، فيكون هذا دعما لها وقوة ، أو ينتصر اللا معقول فتظفر بوليد جديد ان خلا من فائدة فلن يخلو من متعة •
وليطمئن خصوم اللا معقول ، فان الاحتمال الثاني من قبيل اللا معقول •

العقاد والنقاد

سئل الاستاذ العقاد عن النقد والنقاد فقال :

« النقاد •• عفا الله عنكم •• وهل عندنا اليوم نقاد ؟ ان هؤلاء « الدكاترة » بدأوا كتاباتهم القديمة بترديد شعارات وآراء مستوردة •• ثم انتهى بهم الامر الى ما ترى •• أين هو النقد وأين هم النقاد •• حتى المذاهب الادبية التي لا تكلفهم كثيرا من نقلها من لغتها الى لغتنا العربية يتخبطون في عرضها ولا يحسنونه » •

وهذا كلام صحيح في اجماله ، لا ينفي صدقه بعض الاعمال والمحاولات الجادة المخلصة القليلة ، فليست لنا اصالة ولا ابتكار في النقد الحديث ، ولكن هذا لا يقتصر على نقاد اليوم ، بل يشمل نقاد الماضي القريب وعلى رأسهم الاستاذ العقاد ••

حقا كانوا لنا روادا ، وفتحوا آفاقا جديدة ، ولكنهم في النقد كانوا يعتمدون على ما استوردوه •• هم أيضا •• وليس هذا عيبا ، بل هو على العكس فضل كبير ، ولم يكن أمام الرواد الا ان يفعلوه ، فجددوا آدابنا وقلبوا قيمها وبعثوا فيها حياة جديدة يجري فيها دم جديد •

مدرسة العقاد مثلا هاجمت جمود الشعراء وعكوفهم على تقليد القدماء في تعبيرهم وترديد معانيهم ومشاعرهم ، ودعت الى وحدة القصيدة والتعبير الاصيل • وثار طه حسين على جمود الدراسة الادبية ، وشق الطريق نحو التحرر والانطلاق بأعمال جديدة كانت نموذجا للجيل الدارس • ودعا محمد تيمور الى الواقعية في القصص وانشاء أدب مصري مبتكر يستملي وحيه من دخيلة نفوسنا وصميم بيئتنا •

فعلوا ذلك بعد أن تأملوا أدب الغرب وراعيهم الفارق بينه وبين أدبنا • •
نقلوا من هناك ما ينقصنا هنا ، كانت الثورة على تقليد القدماء ووحدة القصيدة
والحرية في الدراسة والعناية بتطوير الواقع وتحليل النفس المعاصرة - كانت
كل هذه أمور معروفة في أوروبا منذ عشرات السنين ، فلم يبتكر أساتذتنا
شيئا من لديهم حين دعوا إليها ، وإنما كان دورهم هو دور النقل من ناحية
ودعم الناحية الأخرى ، وهو دور لاشك عظيم لم يججده منا الا الجاهلون
والمهرجون •

وكان المنتظر من الجيل التالي لاولئك الرواد أن يضيف الى دورهم
جديدا في الادب الانشائي وفي النقد • وتحقق الجديد فعلا في الادب
الانشائي ، وصارت لدينا اعمال ادبية تدل على الاصاله وتقف مع الآداب
الاجنية جنبا الى جنب •

ولكن من حيث النقد • • • كان الامر كما قال الاستاذ العقاد في حديثه :
« ان هؤلاء الدكاترة النقاد «الموضة» بدأوا تدفعهم حماسة الارتجال • •
ثم تخلفوا لانهم تنقصهم الاصاله والصدق والابتكار • • وأخيرا - كما ترى -
توقفوا ، وكان لابد لهم من هذه النهاية وهذا المآل » •

وماذا نرى ؟ لا نرى فقط الانصراف عن الاضافة والعمل الجاد في نقد
آدابنا ، بل نرى كذلك الادعاء والمهاترات • • ولا شيء يشغل نقادنا الا
ترديد أفكار العربيين ترديدا مشوها والجدل العقيم حولها ، كأن ليس هناك
الا « ت • س • اليوت » ومعادله الموضوعي ، وهل يكون نقد الادب من الداخل
أو من الخارج ؟؟ •

وكان الثورة التي نعيشها الآن والتي نصنع فيها الحياة على أرضنا كما
نريد لانفسنا لا كما يريد لنا غيرنا ، وما يرجي من الادب من المشاركة في
هذا الصنيع - كأن ذلك ليس مما يستحق اهتمامات الدكاترة النقاد مثل
السيد اليوت ومعادله الموضوعي !

والامر المؤسف حقا أن كلا من جيلي النقاد في أدبنا الحديث يصدر
عن ذاتية صارخة ، فقل من تناول الاعمال الادبية بموضوعية متجردة من

دوافعه الشخصية في علاقاته بغيره من الادباء • حتى المعارك والمناقشات العامة • لا يحدوهم فيها الوصول الى الحقيقة بمقدار ما يهمهم استعراض العضلات والظفر باعجاب جمهور المتفرجين •

ومما يدل على الاعتبار الشخصية عند العقاد مثلاً ما قاله في ذلك الحديث الذي نشر أخيراً حين سئل : لماذا لم يتحدث عن أعمالهم الأدبية ؟ قال : « أسألهم لماذا لم يتحدثوا عني • • لقد أفادوا من جهدي ومن كتبي ، فما هي الانطباعات التي عكستها كتاباتي فيهم ؟ كان الاولى أن يبدأوا هم فيعترفوا بالجميل • • لكنهم يصنعون العكس ، لا هم لهم الا شتيمة العقاد ومحاربة هدمه • • ولكن هيهات • • هذه ندوتي ، بيتي وقلبي مفتوحان لهم ، فليقبلوا علي أقبل عليهم • • »

فالامر عنده في تقدير الادباء ، ليس الا مبادلة • • مبادلة الاقبال والمودة أو مبادلة الخصومة والعراك • • وعندما سئل عن كتاب القصة المجيد في نظره ذكر أسماء الذين يوادونه ، لم يذكر واحدا ممن يخاصمونه أدبياً • وهذا هو المقياس عند استاذنا العقاد ، فمن ذهب الى ندوته وتردد اليه فهو الاديب الحق ومن عداه • • وخاصة من يكتب شيئاً يغضبه • • فهو لا شيء • •

وقد تنقبل هذا من الاستاذ العقاد كرائد عظيم له حق الابوة المطلق • • أما هؤلاء النقاد الدكاترة وغير الدكاترة • • فان سلوكهم في الكتابة والنقد معيب مكشوف • • لا نكاد نرى واحدا منهم يكتب شيئاً الا تدفعه اليه اما مجاملة المنفعة ، أو محاولة الانتقام ، أو مصارعة يحاول فيها أن يظهر للجمهور غالباً ظافراً • • •

والذين يعيشون في الحركة الأدبية يعرفون ذلك تماماً • • يعرفون مثلاً أن فلاناً يهاجم كتاب فلان فانما يفعل لان الكتاب اشتمل على نقد أو تعريض بالمهاجم • • ويعرفون « الشلل » و « تكتيكاتها » في الاشادة بالانصار وتجريح الخصوم وتجاهل الذين لا يشايعون • • وهذا الاتجاه الذاتي في النقد • • انما هو من اخلاق المجتمع القديم

التي لا تزال متغلغلة ... المجتمع الذي كان يحكمه الاستغلال وتسوده
الاطماع الفردية والتطلع الشخصي الذي يسحق الغير .. مجتمع الاقطاعي
الذي كان يجعل همه الاكبر أن يقال انه يملك اكبر عدد من الفدادين في
المديرية ..

ولن تتغير حتى تغير ما بأنفسنا ، واعتقد ان الادباء والنقاد الذين يحللون
النفوس ويهدفون الى التعاطف والتحاب أقدر الناس على أن يحللوا أنفسهم
ويغرسوا فيها المحبة والتسامح وخاصة فيما بينهم ، ويدركوا أن الميدان يتسع
للجميع وأن خلافاتهم يجب أن تكون كاختلاف الآلات والنغم الذي يتألف
منه كل موسيقى متحد •

وليعلموا ان المجتمع الجديد يتطلب منهم كفاية وعدلا .. كفاية
بالاتاج الصالح ، وعدلا في النقد بتجرده عن تلك الذاتية العتيقة البغيضة •

على ضوء تجربتي في المتفرغ

سألني أحد الزملاء الصحفيين - في تحقيق صحفي عن تفرغ الادباء والفنانين - عن تجربتي في العام الذي يسرت لي فيه وزارة الثقافة والارشاد القومي أن اتفرغ لدراسة أدبية - سألني الزميل : هل كان تفرغك تجربة ناجحة ؟ فأجبت بما كان فيها من ظروف النجاح ، وذكرت كذلك بعض المعوقات التي يشتمل عليها النظام القائم لتنظيم هذه العملية ، وأذكر مما قلته أن توقيت التفرغ بسنة لا يحقق الاطمئنان التام للمتفرغ ، لارتباطه بعمله الاصلي من حيث أن في فكره دائما انه سيعود اليه ، وقد تفوته ترقية أو تبخر منه درجة .. كما حدث لي فعلا .. فيذهب الاطمئنان في الهباء ولا يتوافر الجو المقصود توافره لمصلحة الانتاج الذي تفرغ من أجله .

وقد يكون المتفرغ في عمل حر بالقطاع الخاص مثلا ، وليس من السهل أن يقطع عمله ثم يعود اليه . لهذا وذاك اقترحت أن يكون التفرغ دائما لا موقوتا بمدة معينة ، وليس ثمة خوف من ذلك ما دام الاختيار قائما على أساس الانتاج السابق للمتفرغ الذي يتبين منه أنه من أهل الجهد والدأب على الانتاج المفيد ، مما يجعله أهلا للثقة .

ولما سألني الزميل الصحفي : هل كانت منحتك المالية مجزية .. تخرجت من الاجابة الصريحة .. لانني في الحقيقة وجدت نفسي في خلال تفرغي « متقسفا » لا متفرغا بالمعنى المقصود وهو تهيئة جو صالح للانتاج الادبي أو الفني بعيدا عما يقلق البال من أسباب المعيشة . لذلك لم أبرر التجربة ، واكتفيت من الغنيمة بالايباب كما يقول المثل ، أو بالكتاب الذي جهدت ما وسعني ، بل أكثر مما وسعني .. أن أولفه ..

ولقيت في ذلك عناء وشدة ، لا بالنسبة لشخصي ، فأنا قد تعودت على الكفاح والتشغف منذ كنت طالبا من الريف يعيش بالقاهرة وقد انقطعت أسباب امداده من البلد .. ولكن ما ذنب أفراخ تكاثروا قبل عهد التفكير في تنظيم الاسرة الذي يجري الآن ؟..

وندخل بعد في نوع من النقد الذاتي .. لم أستطع صبرا على « فومها وعدسها وبصلها » أي فوم التفرغ وعدسه وبصله .. ولم أستطع صبرا على صياح الافراخ .. فقبل انقضاء المدة وجدتني مضطرا الى كتابة مقال هنا أو اذاعة حديث هناك ، من الانتاج « الخفيف » الذي يشغلنا دائما عن الانتاج « الثقيل » .

ومن المقابلة بين « الخفيف » و « الثقيل » نستطيع أن نتبين جدري التفرغ ، فالواقع أن الزملاء - وأنا منهم - تشدهم مطالب العيش ، الى « ثريات » الانتاج الادبي دون أن يجدوا فراغا لاغناء الحياة الادبية بدفع « مبالغ » كبيرة من الانتاج ترفع رصيد أدبنا الى المستوى المنشود .

وخلال الدراسة التي قمت بها في سنة التفرغ - وهي في تاريخ أدبنا الحديث - تكشفت لي حقائق رهيبة ، منها ما يتصل بسياق حديثنا عن الشد والجذب بين الانتاج الادبي الكبير وبين أسباب المعيشة ، فقد رأيت كثيرا من الادباء ذوي المواهب والقدرات الفنية تخلفوا عن الركب في بعض الطريق ، وكان يرجى أن يكون لادبائنا بهم شأن لو ذلل لهم ما عاقهم عن مواصلة السير ، وغمرتهم لجة النسيان بسبب من جنس معوقاتهم .. اذ شغلت شواغل العيش « نفسها » من بعدهم - ونحن منهم - عن انقاذهم من غرق النسيان ودراستهم دراسة تصل الماضي بالحاضر وتربط الفرع بالاصل .

وها نحن أولاء نرى الدولة تهتم بالرعاية لتتخذ الجيل الحاضر من مثل ما أغرق الجيل السابق ولكننا نرى التنفيذ دون مستوى الاهتمام الكبير بمراحل تعود القهقري الى الوادي الماضي السحيق ..

التنفيذ .. وما أدراك ما التنفيذ .. يقصد طالب التفرغ الى ادارة التفرغ فيجدها متفرغة ... مديرها لا يحضر الا يومي الاثنين والخميس ..

هكذا يقال لك وان كنت تتفقده حتى في هذين اليومين .. وقد تجد هناك موظفا يعطيك « الاستمارة » التي تملؤها ، ثم تعيدها بعد اجراء ما يلزم من التزكيات وتنتظر .. اللجنة .. وما أدراك ما اللجنة ..

وعندما تحدث المعجزة وتجتمع اللجنة وتنتظر في الطلبات وتقرر منح التفرغ لمن تختاره - يكون قد مضى على تقديم الطلب اكثر من سنة .. وعندما تقع المعجزة الكبرى وتجتمع لجان « البعثات » التي لا تدري مادخلها في الموضوع ، ويمر « الورق » من موظف الى آخر ومن ادارة الى اخرى ، ويصدر الامر النهائي - يكون قد مضى أكثر من سنة أخرى ..

وينظر المتفرغ فيجد أن المنحة المالية المقدرة له أقل مما يتقاضاه الآن .. فقد تغيرت حالته المالية في خلال السنتين أو الاكثر منهما .. أخذ علاوة .. رقى ترقية رفعت مرتبه .. أي شيء آخر .. فيشكو طالبا الزيادة ، ويقول مدير الادارة : لا ، قد انتهى الامر .. وهو رجل رقيق ، فيعقب على ذلك بأنه سيرفع الامر الى اللجنة ، ولكنه يعد .. أو بالاحرى يوعد .. بأنه سيعارض الزيادة ، لانه رجل رقيق يحتاج الى الهدوء ويبغي الراحة ، وفتح الباب وما يترتب عليه من كثرة الطلبات و «دوشة الدماغ» لا تتفق مع ما يحتاج اليه ويبغيه من الهدوء والراحة .

ولا يزال الشاكون من التقدير الاقل منتظرين المعجزة : اجتماع اللجنة ، واذا وقعت المعجزة الكبرى وتغلبت اللجنة على « وعيد » مدير الادارة ، فيسكون ذلك - ان كان - بعد أن تتغير الاحوال المالية للمتفرغين .. فيعيدون الشكوى ، وتتصل الحلقات ، ويؤذن « ديك الف ليلة » في نهاية كل منها ..

هذه صورة لجانب من تنفيذ الفكرة الكبيرة التي ترمي بها الدولة الى اثراء حياتنا الادبية والفنية بما يرجى منها . وهي صورة قد يتبادر الى ذهنك أن فيها ميلا الى مبالغة « الكاريكاتير » ولكنها الواقع نفسه كما يقع ، أؤكد لك .

وماذا تكون النتيجة ؟

هي ما نراه الآن من كتابات « ثريات » يطالعنا بها بعض المتفرغين في الصحف والمجلات ، وما فعلته أنا ونقدت نفسي فيه قبل أن اتعرض لنقد الزملاء ♦♦

محرون في الصحف أخذوا التفرغ ، ولكن ما تزال الصحف نفسها تنشر لهم كما كانوا قبل التفرغ ، مع فارق واحد بطبيعة الحال ، هو أنهم الآن يكتبون « بالقطعة » بعد أن انقطعت مرتباتهم وحلت محلها مرتبات التفرغ ♦

وغير محررين في الصحف يصنعون نفس الصنيع ، يقدمون « ثريات » في الاذاعة والمجلات ♦

وماذا تكون النتيجة الثانية ؟

هي النتيجة الحتمية ♦♦ الانتاج « الخفيف » لايزال عقبة في طريق الانتاج «الثقيل» ♦

وكاننا يا بدر لا رحنا ولا جينا ♦♦

بيت الطاعة في أول قصة تناولته

أبدأ بالاستدراك على هذا العنوان : بيت الطاعة في أول قصة تناولته ، من حيث الجزم بأن القصة التي سنتحدث عنها أول قصة مصرية تناولت هذا الموضوع ، فربما لا تكون « أول » بل هناك ما سبقها في تناوله ولم أره ، وقد تكون كذلك فعلا على ما نظن ، وهو ظن يقرب من اليقين ، لما بذلته من التبصير والاستقراء •

هي قصة قصيرة لمحمود طاهر لاشين كتبها بهذا العنوان « بيت الطاعة » ونشرها في مجموعة « سخرية الناي » ، خطرت لي بمناسبة ما نشر أخيرا في موضوع « تنظيم الاسرة » الذي يشغل الاذهان في الوقت الحاضر ، من أن لجنة الاحوال الشخصية للمسلمين بوزارة العدل رأت في تنفيذ حكم الطاعة كرها أن سوق الزوجة الى بيت الزوجية بقوة الشرطة لا خير فيه لان تستقيم الحياة الزوجية وانه كثيرا ما يؤدي الى ارتكاب جرائم ، فضلا عن أنه ينافي الكرامة الانسانية ، ومهما كان في موقف الزوجة من تحد لتعاليم دينها ولحكم القضاء فان ذلك لا يبرر اهدار الكرامة ، ولهذا انتهى الرأي الى عدم جواز تنفيذ حكم الطاعة بهذا الشكل ، وأنه يكفي معاملة الزوجة بآثار نشوزها ، وان من حق الزوج طلب التفريق بينه وبينها مع الزامها بالآثار المادية لذلك •

هذا الذي ينتهي اليه التشريع الآن قاله من نحو اربعين سنة الرائد القصصي محمود طاهر لاشين في قصته « بيت الطاعة » - قاله بطريقته الفنية المجسدة في أشخاص القصة :

رجل من أصل تركي يصفه الكاتب هكذا :

« ميسور الحال ، يظهر لأول وهلة من هندامه الحسن ، وياقته العالية و (بمباغه) الانيق ، وعصاه الثمينة ، على انه لا يعد بين أهل طبقة متعلما ، فهو لا يعرف بعد (فك الخيط) الا قليلا من اللغة التركية تلقنها عن أمه صغيرا - ولا يعد في الوسط الذي هو منه عاملا ، فقد قضى شبابه في عز والديه يفكر ويدبر ، ولكن في السخف والصيانيات ، ويسعى وينشط ، ولكن للذاته وملاهيته » ♦

تزوج ذلك الرجل فتاة يصفها الكاتب هكذا :

« على جانب عظيم من الجمال ، ولكنه جمال لا يدركه الكثيرون ، فليس مصدره (الخدود اللبي زي التفاح ، والوش اللبي زي لهطة الاشطة ، والحواجب اللبي زي هلال شعبان ، والمناخير اللبي زي بلحة الشام ، والصدر اللبي زي بلاط الحمام) ، بل هو جمال الروح ، الجمال الذي يوحى الى الفنان ، ويحتاج نفس الشاعر ، أو على الأقل الجمال الذي ينشر السعادة المنهضة في بيت زوج مهذب ، ولكن كيف يتسنى لمخلوق (الزوج) هذه نشأته ، وتلك جبلته كالذي مر ذكره أن يدرك سر هذا الجمال ♦

ولنغض عن عبارة « كالذي مر ذكره » التي نلاحظ انها نابية في السياق القصصي ، ونمضي في القصة مع الكاتب لنرى كيف يصور اصطدام عواطف الزوجة الرقيقة بجمود ذلك الزوج الغليظ ♦♦ يسمى الرجل الظن في زوجته ، بل في جنس المرأة ، ويعلل الكاتب ذلك تعليلا موفقا ، اذ يقول انه « يعلم ضعف من وقعن في غوايته من النساء ، لذلك فهو ضعيف الثقة بالنساء ومن ثم نشأ في نفسه احساس الغيرة واستفحل أمره - النافذة لا تفتح - الحادم لا يخاطب - الملابس حسبما يصنف - العتبة لا ترى الا بمشيئته وتحت اشرافه ♦

وأدى الصدام بين الزوجين بهما الى المحكمة الشرعية ، وكانت قضية « الطاعة » ودخلت الزوجة « بيت الطاعة » وأحست بأن كرامتها الانسانية نهدر ♦♦ ومن هنا تسلت اليها وسائل السقوط ♦ فالكرامة والخلق أمران متلازمان ، وندع « لاشين » يصور لنا ذلك بأسلوبه الظريف :

» ••• وباحدى الوسائل التى لا تعجز عنها النساء تتصل الزوجة بشاب على سطح المنزل المجاور وتحولت من امرأة عفيفة الى عشيقه الشاب • وعادت اليها نضارتها التى كانت قد ذبلت ، وأينعت فيها بهجة الحياة ، واستجابات لدعوة التقريب بينها وبين زوجها « وهى دعوة قامت بها عجوز أتى بها الزوج لتخدم الزوجة في بيت الطاعة ، وكان لها دور في اتصالها بالشاب على سطح المنزل •

وقال ممدوح افندى (الزوج) لاحد أصحابه :

» ايه رأيك بقى يا خفيف ؟ آهى رجعت عاوزة تبوس ايدى زى الكلب
•• هاهما •• »

واتصل الزوجان بعض الاتصال ، واتصل العشيقان كل الاتصال •• وبعد أشهر عاد الزوج بزوجه الى منزلها الاول مهلا مكبرا •• لان جنينا كان يتحرك في أحشائها ، ولم يكن ممدوح افندى قد رزق من قبل ولدا •• ثم وزعت رقاع الدعوة المذهبة الحروف والآي نصها :

الدهر أقبل بالهنأ واليوم قد نلنا المنى
والطير غرد صائحا بشرى لنا بشرى لنا

تشرف بدعوة حضرتكم لسماع المولد النبوي الشريف يوم الجمعة القادم الساعة السابعة مساء بمنزلنا الكائن بشارع ••• احتفالا بأسبوع ولدنا (أنور) والعاقبة عندكم في المسرات « •

وقد تقرأ هذه القصة الآن فتمر بها على انها قصة ذات موضوع معروف ومطروق ، ولكنك اذا نظرت اليها نظرة زمنية ، أي باعتبار انها باكورة في موضوعها وحسن تناوله لاكبرتها وعرفت فضل كاتبها ، لا فى الريادة الادبية فقط ، ولكن فى الريادة الاجتماعية كذلك •

ومما يلاحظ ان كتابنا القصصيين الاوائل حملوا همَّ مجتمعهم وهالهم تأخره وما يعوق تقدمه من معوقات ينسب بعضها ظلما الى الدين وجهلا بالدين •

ولم يقتصر الامر فى ذلك على مذهب أدبي معين كالواقعية ، وإن كانت هذه أكثر الاتجاهات عناية بالمجتمع ، بل شمل الاتباعين (الكلاسيكيين) كالمويلحي في « عيسى بن هشام » وحافظ ابراهيم في « ليالى سطوح » وكذلك الابتداعيين (الرومانسيين) مثل المنفلوطي في العبرات والنظرات •

كانوا كلهم جد مشغولين بالاهداف الاجتماعية الى جانب عنايتهم بالتجويد الفني ، كل على حساب اتجاهه في الادب •

ومن قبل هذا الادب الحديث ، نجد كذلك ما كان قبله من فنون قصصية كالمقامات وحكايات كليله ودمنة ، وكذلك الادب الشعبي بألوانه المختلفة ، قصة وموالا وزجلا ••• كلها او معظمها تنلزم الفضائل الاجتماعية والصفات الكريمة في الانسان •

ولعلنا نخلص من ذلك كله الى ان مزاجنا الادبي - والقصصي خاصة - أميل الى الالتزام الاجتماعي • لم نتخل عن هذا الالتزام الا في فترات غلبنا فيها على أمرنا ، فشعرنا باليأس ، وهرب ادباؤنا من المجتمع •

ولو نظرنا مثلا الى حال الادب قبل ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ والى حاله بعدها لرأينا مصداق ذلك ، وموضوع المقارنة هو الواقع الاجتماعي من حيث الهرب منه في الحالة الاولى والالتصاق به والعناية بالتعبير عنه في الحالة الثانية •

ولذلك أعتقد ان كل المحاولات للبعد بالادب عن الالتزام الاجتماعي في هذه الوثبة التي نعيشها ستذهب في الهباء ولن يبقى منها الا ما ينفع الناس •

نحن الآن نعيش بلا شعر

أنا - ولا تؤاخذني في البدء بهذه ال « أنا » - رجل مخضرم ••
عاصرت عدة تطورات في الشعر العربي الحديث • قرأنا لشوقي وحافظ ،
وكنا قد تعلمنا في الدراسة المدرسية أن البارودي أنقذ الشعر العربي من
ركاكة الممالك وأعاد اليه ديباجته العربية الاولى ، وعرفنا أن شوقي وحافظا
ومن عاصرهما ومائلهما من الشعراء ساروا على نهج البارودي في إعادة القوة
والجزالة الى الشعر العربي مع البروز والتفنن في الاغراض العصرية •
ولم يطل استمتاعنا كثيرا بشعر هذه المدرسة ، فقد التفتنا الى حملة العقاد
والمازني وشكري عليها ، قال لنا هذا « الثلاثي » :

ان الشعر يجب أن يكون تعبيراً عن نفس الانسان وخواطره ومعانيه
الخاصة ، ويجب ان تكون القصيدة وحدة موضوعية ، وهذا وذاك لا يتوافر
ان في شعر شوقي وأمثاله ، لانهم يرددون المعاني والخواطر التي قرأوها في
الشعر القديم ، وقصائدهم كالشعر القديم لا تقوم على وحدة ، بحيث لو
أخذت بيتاً من مكانه ووضعته في مكان آخر ما أضر ذلك بالقصيدة شيئاً •
واقنعنا بهذا الكلام ، وانتظرنا في الوقت نفسه أن نرى شعراً يطابق
الدعوة الجديدة ، ولكن مكان البناء الذي هدم ظل خاليا •

وجاء بعد هذا الثلاثي الشعراء الرومانسيون مثل ناجي وعلي طه وبعض
شعراء مدرسة « أبولو » فقالوا لنا :

ان الشعر شعور •• لا أفكار ومعان ذهنية •• فالشعر الجدير باسمه
هو الذي يسبح في بحر العواطف والانفعالات ويخلق في سماء الخيال ،
ووصفوا السماء بانها لازوردية !

وأغرقتنا هؤلاء الشعراء فعلا في بحور عميقة وأخذونا الى عوالم بعيدة
•• حتى تعبنا وقلنا لهم : كفى •• الى هنا •• نريد أن نعود الى الارض ••
وعدنا الى الارض على صوت ينادي بالواقعية ويقول : أيها الشعراء دعوا
ذواتكم ومسبحاتها وانزلوا الى معركة الحياة •

ونظرنا الى معركة الحياة ، وتفقدا فيها الشعر ، ولكننا لم نجده في
الميدان ، ولم نر الا الدعوة نفسها معلقة •• كالجرس الكهربائي الذي
تماست أسلاكه فظل يضرب متصلا ، وظن المستمعون به أن أحدا لا
يستدعيهم •

وأخيرا قالوا •• ان الحياة الجديدة المتطورة لا تصلح الاوزان القديمة
للتعبير عن واقعها ، لان البيت الموزون المقفى وحدة صغيرة لا تتسع للتجربة
الواقعية الجديدة المنبسطة ، ولا بد من نسق جديد للشعر •

وكان النسق الجديد •• ولكننا وجدناه شكلا لا مانع لدينا من الاقتناع
به ، فليست البحور والقوافي مقدسة ، وليست وقفا غير قابل للحل •• أما
المضمون فلم نجده حتى الآن مقنعا •• المفهوم منه مجرد « أخبار » لا تحمل
الى النفس أي شيء غير الاخبار •

وقد اقتنعنا ازاء تلك التطورات كلها بالنظريات فقط •• وكل واحدة
منها تهدم ما قبلها ، حتى تهدمت في نفوسنا على التتابع كل القيم التي تقوم
عليها المذاهب الشعرية المتتابعة واحدة وراء أخرى ، وفي كل مرة يهدم فيها
هرم لا يبني مكانه آخر ••

وكانت النتيجة ان أصبح مكان الشعر خاليا في حياتنا : العامة والادبية
••• كليهما ••• ومن الغريب ان الشعر التقليدي المتهم بحق أنه لا يعبر
عن واقع عصره - كما ينبغي - كان رائجا عند الجماهير ، أدباء وغير أدباء ،
على حين أن الشعر الجديد الموصوف بأنه يعبر عن واقع الحياة الجديدة لا
ينال هذا الرواج •

ولعل تفسير تلك الظاهرة •• ظاهرة الاقبال على الشعر التقليدي فيما
مضى •• ان الناس كانوا يتطلبون التطريب لتحقيقه لهم الاوزان التقليدية ورنين

قوافيها النحاسية •• بدليل أن شاعرا كحافظ ابراهيم كان ينال الاعجاب لانه يجيد الالتقاء ، وبالالتقاء وحده فاق في الشهرة أنداده من الشعراء •
وأنا الآن شخصيا - وآسف لرجوعي الى هذه الـ « أنا » - لا أشعر في تذوقي الادبي بوجود الشعر على اختلاف ألوانه ومذاهبه ، وفي الوقت نفسه لا أشعر بأسف على ذلك ولا أحس باننى افقدت شيئا •
وليست هذه مسألة فردية تخصنى ، كما قد يقال ، فانى أولا لم أكن هكذا من البدء ، انما حدث لى ذلك بالتطور •• وثانيا وصلت المسألة في اعتباري الى حالة عامة بعد التأمل والاستقراء • وقد ناقشت فيها كثيرا من الزملاء فوجدت عندهم صدى مطابقا لما في نفسي •

يخرج الديوان - ان خرج - وتشر القصيدة - ان نشرت - فلا يقرؤها الا بعض الشعراء ، أما الادباء غير الشعراء فليل منهم من يقرأ الآن شعرا ، والشعراء انفسهم منقسمون متناكرون •• التقليديون لا يعترفون بالشعر الجديد ولا يلتفتون اليه ، والعكس كذلك •• أما سائر الناس فهم بمعزل عن الشعر كله ، ماعدا الاغاني التي يسمعونها لادائها الغنائي •
وهكذا أصبح الشعر هواية أصحابها محدودون مثل هواة طابع البريد •• ولم يعد حاجة أدبية عامة ••

حقا ان في بعض البلاد العربية الاخرى اهتماما بالشعر ، ولكن المتأمل يعلم أنهم في المرحلة التي اجتزناها وسيجتازونها حتما ويصل الامر ، عندهم الى مثل ما هو عليه عندنا •

على أنني لا أستطيع أن أجزم بأحد الأمرين : هل سيظل أمر الشعر على هذه الحالة التي ينحدر فيها الى نهايته او سيظهر شعراء يغيرون هذه الحالة ويثبتون وجود الشعر واستمراره •

ولا أشك أن احتمال الامر الثاني لا يزيد على واحد في المائة ، وهو مجرد احتمال ، أما التسعة والتسعون الباقية فهي واقع ملموس ••

فماذا نطلب من الشعر ؟ الشكل أم المضمون ؟ والمقصود بالشكل طبعا الاوزان كيفما كانت •• قديمة أو حديثة •• والقوافي ان وجدت ، والمضمون

هو ما يؤديه الشكل وما يحمله الى النفس من أحاسيس ومشاعر •
أما الاوزان والقوافي فهي قيود بقيت في الشعر وحده •• كانت القافية
موجودة في النثر ، وهى السجع وكان يصحب السجع نسق في الفقرات يشبه
الاوزان ، فتنحصر النثر من هذا وذاك ، واعتبر هذا التحرر كسبا أدبيا عظيما •
بل وصل تحرر النثر الى ما هو أبعد من ذلك ، فقد تخلص الكتاب
مما كان يسمى « الاسلوب البليغ » الذى يقصد به العبارات الفخمة والتراكيب
الجزلة ••• الخ •

ومن هنا انعدم في الأدب المقال الذى يعالج شئون الحياة العادية غير
الادبية ، لانه كان يعد من الادب لاسلوبه « البليغ » فقط ، بل كان بعض
الكتاب يكتب علوما طبيعية بأسلوب الادب فتدخل كتابته في باب الادب •
وبقى الشعر في قيوده الشكلية التى لا أظن اننا بحاجة اليها الا في
الاناشيد والاغاني ، ولا شك أن هواة الشعر يحبون التوقيع الموسيقى الذى
يحدث من الاوزان ، وهم يذكرون ذلك في استنكار الشعر الجديد ، ولا
شك كذلك ان هواة السجع كانوا في وقته يحبونه ويتمسكون به ، وقد
سمى سجعاً تشبيها له بصوت الحمام المحبوب ، ومع ذلك فقد انتهى غير
مأسوف عليه •

أما المضمون الشعري الذى يثير في النفس الاحاسيس والمشاعر فليس
موقوفا على ذلك النسق من الكلام الموزون المقفى او الموزون فقط ، فاننا
نجد كثيرا في النثر ، فالكاتب عندما يشعر بالموقف « الشعري » ينطلق فى
التعبير عنه تعبيرا طبيعيا حرا يحقق أغراض الشعر المضمونية •
والنثر يحمل الينا المضمون الشعري بالقدر المعقول ، ويحبنا التهاويل
والاغراق في التصورات البعيدة التى لم يعد جهاز التلقى في نفوسنا يرحب
بها •

على ان كثيرا من الشعر لا يحمل المضمون الشعري ، فلو جردته من
موسيقى الوزن لم يبق فيه شيء يختلف عن الكلام العادي •

فالشعر الآن انما يختفى أو يأخذ في الاختفاء كظاهرة أدبية تاريخية كان لها وجود وانتهى أمرها ، وهو فى هذا مثل غيره من ظواهر أدبية اختفت كالمقامة ورسائل التهاني والتعازى والكلام المسجوع على العموم والمقالات التى تتناول الحياة اليومية أو المعلومات العلمية بأسلوب يعتمد على الوسائل التعبيرية المستعملة فى الادب •

ونحن نحس فعلا بنهاية الشعر ، وبعض الشعراء هجروه الى الكتابة • ولكن يصعب علينا ان نعبر عن هذا الاحساس •• باعتبار الشعر شيئا تقليديا له مكانه بين ألوان الادب ، وهو مكان تقليدى فقط •• كالاشياء الموجودة لانها وجدت فى زمن مضى ولا تزال قائمة برغم عدم الحاجة اليها • والايام أو الاعوام الباقية فى حياة الشعر سيظل الشعر قائما فيها على ذلك الاعتبار وبدافع القصور الذاتى •

حاشية :

كتب ونشر هذا المقال بجريدة « الشعب » فى ٢٨ يونية « حزيران » سنة ١٩٥٩ • وقد تغيرت حال الانتاج الشعري بعد ذلك تغيرا يختلف عما يرمى اليه المقال •• وأنشره الآن فى هذا الكتاب تسجيلا لانطباع معين فى فترة معينة •

نظرات في كتب

الرمز في « الجنة العذراء والطريق »

« الجنة العذراء » اسم الرواية الأخيرة للاستاذ محمد عبدالحليم عبدالله . وانت تقرأها ، فاذا فرغت منها وتذكرت العنوان فلا بد أن تسأل متأملاً : ماذا يقصد الكتاب بالجنة العذراء ؟ أهى قرية البطل « رضا » التى ولد فيها ونشأ طفلاً ، ثم شرد منها مع أمه وهو لا يزال طفلاً ، ثم عاد اليها شاباً بعد كفاح طويل في القاهرة ؟ أم هى « ثريا » الفتاة القاهرية التى أحبته وأحبها ، ثم خطفها الجنود الانجليز العابثون في القاهرة خلال الحرب العالمية الثانية ؟ أم هى الوطن الكبير « مصر » ترمز اليه العذراء التى سلبت ونسب تعد الى أهلها حتى انتهاء القصة ؟

كل واحدة من الثلاث تصلح أن تكون هى المقصودة بالجنة العذراء ، والكتاب بدائه أو شاعريته وخياله حائراً بينها جميعاً ، كما يتركك قلقاً على مصير الفتاة . . . وهى نهاية غير سعيدة لا أظن اصحاب الأفلام - عندما يحولونها الى فيلم - يدعونها على طبيعتها المقصودة المعبرة ، فلا بد في عرفهم أن يجتمع شمل الحبيين ويعيشا في الثبات والنبات وينجبا الصبيان والبنات . ولا بد ان نسأل : هل قصد الكاتب الدلالة الرمزية لنهاية القصة ، أم ان المسألة جاءت هكذا دون ان يقصد ؟ واذا لم يكن قصد الرمز فهل تكفينا عبرة الحوادث التى وقعت للفتى المشرود المظلوم الذى ضيعه ابوه وقسا عليه أخوه الأكبر ، اذ دبرت حادثة لزوجة أبيه الشابة (أم رضا) أدت الى طردها هي وطفلها من الضيعة ونفيهما الى القاهرة حيث يعيشان أولاً في كنف « بركات » أخى الزوجة وكان قد نفى هو أيضاً من القرية بعد حادث سرقة ارتكبه ، ويكبر الفتى رضا حتى يستقل بأمه عاملاً في مطبعة ، ثم تجذبه

الحوادث الى القرية فيعود اليها مطالبا بحقه •

هل تكفينا من هذا كله عبرة الحوادث التي انتهت بمصرع الاخ الظالم وعودة المظلوم الى حقه أو عودة حقه اليه ؟ هل تكفينا هذه النتيجة ، مع المتعة الممتعة التي شعرنا بها ونحن نطالع القصة فنعيش مع النماذج الحية التي رسمها المؤلف بصدق وعمق ، صدق الريفي الذي عاش بين القرية والعاصمة وخبر ما هنا وما هناك وكاد ينفرد بين قصاصينا برسم أمثاله الذين اضطربوا في حياتهم بين قراهم وما قسم لهم من عيش في العاصمة ، وعمق الكاتب الذي تمرس بفنه ونمى موهبته بثقافة عنصرية ذات جذور تراثية •

ونجد عبدالحليم في هذه القصة قد تخلص من أشياء كانت فيما سبقها ، وكانت لنا معه مواقف نقدية فيها ، نجده قد بدأ القصة غير متعصب فاستولى على انتباه القارئ من البدء ، وتخلص من الفضول والتفصيلات وأخذ بالتركيز ، وصارت اللوحة تغني عن كثير من الوصف ، وأصبح الحوار كما ينبغي ان يكون الحوار طبعيا معبرا عن الشخصية ، مع الاحتفاظ بفصاحته ، ولا بأس ببعض العامي عندما اقتضى الامر أي عندما شعر الكاتب بضرورته وحتميته للتعبير الفني • ولم نعد نرى استطرادا يكاد يخرج بنا عن طريق مستقيم مرسوم •

واستطيع أن أقول ان هذه القصة - لما ذكرت - أحسن قصص عبد الحليم عبدالله جميعا • ليس هذا فقط ، بل هي من القليل الذي يستطيع الانسان ان يضع يده عليه كنماذج مختارة في أدبنا القصصي الحديث • بيد أن الوقفة التي أريد أن أقفها أمام هذه القصة ، هي في الموضوع العام او الهدف الذي رمى اليه ، وهذا يعود بنا لمسألة الرمز الى شيء غير موجود مباشرة في القصة وتوحي به الحوادث •

اذا قلنا بالأمر فيها ، وكل ما هناك قضية مظلوم ظلم فكافح حتى انتصف ورد اليه حقه ، فما بال العذراء التي خطفها الانجليز ولم يعيدها ؟ ماذا يريد الكاتب أن يقول لنا بذلك ، وما العبرة فيه ؟

واذا كنا لا نظفر بجواب اذا اخذت الحادثة على واقعيتها فلا بد ان تتلمسه في الرمز ، لابد ان السكاتب اذن يومىء بالعدراء الحبيبة الى مصر ، اذ سلبها الاستعمار حريتها ولم تكن قد استردتها منه بعد •

ومسألة الرمز قد أصبحت في حياتنا القصصية « مودة » وخاصة بعد ان اتجه اليها بقوة كاتبنا القصصي الكبير نجيب محفوظ ، بادئا بقصة « أولاد حارتنا » وان كان بعض النقاد يفسر بعض أعماله السابقة تفسيراً رمزياً فيه تكلف وتحميل للأشياء أكثر مما تحتمل •

واذا نظرنا الى الرواية الاخيرة لنجيب محفوظ ، وهى « الطريق » فسنجد الموقف منها يشبه الموقف فى « الجنة العذراء » من حيث النظر في موضوعها العام ، وهل هو - أي موضوع الطريق - مجرد انحراف شاب نشأ في بيئة تعادي القانون والمجتمع ، واصطلحت عليه أسباب ، وتوافرت ظروف ، جعلته يرتكب ما ارتكب من جرائم ، ثم كان مصيره الوقوع في يد القانون والعدالة ؟ هل الموضوع هو هذا الذى تباشره الحوادث فقط فنكتفي به الى ما يعطينا القصصي العملاق من شخصيات حية وأعماق بشرية ... الى آخر ما اعتدناه منه في سائر قصصه ؟ وان كان الذى تعطينا اياه هذه القصة أقل ، اذ نراها أقل مستوى من سابقتها على عكس ما رأينا بالنسبة لقصة « الجنة العذراء » •

أم أن هناك شيئاً ترمز اليه القصة وتوحى به ؟

اختلف النقاد في ذلك وفي تفسير ما افترضوه من رمز ••

قال ناقد : هناك طريقان نقرأ بهما رواية « الطريق » لنجيب محفوظ •• وكلتاها تعطيك ما تطلبه من متعة ••

وفصل الطريقتين على ان الاولى هى الطريقة الواقعية التى تساير الاحداث ودلالاتها التى لا رمز فيها ، وان الطريقة الثانية هي طريقة البحث عما يرمز اليه ومحاولة تفهمه ••

واختلف تفسير الرمز ، هل البطل يمثل الانسان الحائر الذى يبحث

عن « الله » في شخص الأب ؟

ويرشح لهذا التفسير المنهج الذى جرى عليه نجيب في غير هذه الرواية كما في رواية « أولاد حارتنا » وبعض القصص القصيرة ، وهو الى هذا منهج فلسفي يلائم دراسة نجيب محفوظ الفلسفية التى لم تظهر في اعماله الاولى كما تظهر في هذه المرحلة التى بدأت برواية « أولاد حارتنا » .

ويطيب لي ان أفسر رمز القصة تفسيراً اجتماعياً قد يتفق مع ما أبغيه أنا في العمل الادبي اكثر مما يتفق مع منهج نجيب محفوظ ..

انني افترض أن المؤلف يريد أن يقول ان البطل (صابر) - ممثلاً شباب العصر - كان بالبحث عن والده الذى لم يعرفه لانه نشأ بعيداً عنه - كان بهذا يبحث عن أصل ينتمى اليه وتراث يعتمد عليه . ومما يرشح لهذا التفسير عبارات توحى به في نهاية القصة ، كان صابر يريد ان يعثر على والده المجهول الذى قدر انه لابد ان يكون من ذوي النفوذ فيفيدة في التحقيق والافلات من يد العدالة ، كأن هذا اشارة الى الاعتماد الكلي على التراث دون جهد ببذل في التقدم ، ويشبه المحامي عن هذا التطلع الذى لا فائدة منه ، وعندما يبدي صابر يأسسه من الاعتماد على أبيه يقول له المحامي :

« بل هناك جدوى فيما هو معقول » .

هل معنى هذا ، او هل يشير هذا الى ان نأخذ بما يفيدنا من تاريخنا وماضينا ، دون الاعتماد الكلي عليه ؟

وبعد فما هو المحصول الذى نجنه من الرمز في هذه القصة أو تلك ؟ وما قيمة هذا الذى فسرتة او يفسره غيري بعد غناء ؟ هل هو مكر يمكره القصاص كي يختلف عليه النقاد ؟ واذا كان النقاد يجهدون حتى يدركوا البرموز اليه ويختلفون فلا يتفق احدهم مع الآخر فما بالك بالجماهير القارئة التي تكتب لها هذه القصص ؟

ان شعراء « الرمزية » وكتابها لا يعبأون بالجماهير ، ولا يتجهون الا الى الخاصة ، بل خاصة الخاصة ، ومذهبهم يقوم على الايحاء بالمعاني والمشاعر

التي تعجز كلمات اللغة عن ادائها ، فهم يبحثون عن مكان في النفس لا تستطيع اللغة بدالاتها العادية ان تبرزها • وهو مذهب أليق بالشعر منه بالقصة ، وان كتبت به قصص قليلة مثل قصص الكاتب التشيكي « كافكا » • وليس ما يكتبه كتابنا القصصيون من قبيل تلك الرمزية ، انما هم - في حالة الرمز - يفترضون شبها بين الحوادث والشخصيات التي يتحدثون عنها وبين شيء آخر محذوف يوثقون اليه باسترسالهم في الحديث عن المذكور • ونسبة هذا الصنيع الى الرمزية فيها تجوز ، لانه في الحقيقة تشبيه كبير حذف أحد طرفيه ••

والرمزية التي نلاحظ في الشعر الصوفي تقدم أيضا على مثل ذلك التشبيه ولكنها تقوم كذلك على خصائص رمزية من حيث الالفاظ والجمل التي توحى بغير دلالاتها الوضعية •

أما اخواننا القصصيون الذين يرمزون بالحوادث والأشخاص الى أشباهها فانهم يتعبوننا بذلك دون أن نحصل من رمزهم على متعة كالتي يحصل عليها طلاب الرمزية الشعرية •

وليتهم يهتمون بدلا من ذلك بتنمية الأغراض الاجتماعية المباشرة ، وأقصد بالمباشرة ما يقابل الرمز لا ما يقابل التصوير الفني ، وان في قصة الطريق موضوعا اجتماعيا جزئيا كان أجدر ان يجعله نجيب محفوظ موضوعا كليا للقصة ، وهو موضوع العلاقة التي نشأت بين صابر وبين الفتاة « الهام » والتي أوشكت ان تؤثر فيه ، انه يحدثنا عن مشاعره ازاء هذه الفتاة المختلفة عن عرفهن من النساء حديثا كان يمكن ان يتخذ وسيلة الى تطوير هذه الشخصية •

على أننا لو نظرنا الى البناء الفني لرواية « الطريق » وجدنا القسم الأول والأكبر منها يسير على النهج الواقعي : شخصيات مرسومة بأبعاد اجتماعية ، وتحليلات نفسية مطابقة لكل ما يجري في الواقع وقائمة على علاقة الفرد بمجتمعه وتأثره ببيئته ، وفي الجزء الأخير عندما يلتقي البطل بالحامي الذي يدافع عنه نجد أنفسنا فجأة أمام شخصية تجريدية خالصة هي شخصية الأب

الغائب المبحوث عنه •• لا نجده أمامنا لأنه لم يعثر عليه ، وإنما نسمع عنه
حكايات غريبة باللغة الغرابة ••

ومحصل ذلك أن القاريء يختلف انطباعه من الجزء الاول الى الثاني،
بل يصطدم عندما ينتقل الى الجزء الثاني ، فلا يدري أهو يقرأ رواية اجتماعية
واقعية ، أم رواية رمزية •• أم يقرأ روايتين احدهما واقعية والأخرى
رمزية ••؟

الجزء الأخير يصور جوا تحس فيه بما يمنع من ارادة المعنى الحقيقي،
ولا تجد هذا الاحساس في الجزء الاول الذي تجرى فيه الأحداث ويعيش
الاشخاص ولا شيء يمنع من فهمها فهما اجتماعيا حقيقيا لا رمز فيه •
وبعد فاني أريد أن أقول للأستاذ نجيب محفوظ : ان مجتمعنا الآن
محتاج الى موهبته وقدرته العظيمتين أكثر مما تحتاج اليهما الفلسفة الميتافيزيقية
التي قتلها العلم الحديث ممثلا في شخصية « عرفة » احدى شخصيات « أولاد
حارتنا » ومجتمعنا كذلك محتاج الى مواهب شبابية تتأثر بنجيب محفوظ •

الذاتية والموضوعية في «ليل له آخر»

« اعتقد ان حياة الكاتب وتجاربه أثمن كنز يستمد منه في كتابة قصصه ، وان له أن يتنفع بها الى أقصى حد ، ولكن كيف ؟ هذه قضية ، أخرى تقابلها ، هي قضية الموضوعية التي تقضي بأن يكون أشخاص القصة في صور تختلف عن صورة الكاتب ، بحيث يشعر القاريء أنهم خلق آخر ، وبهذا يتيح الكاتب لنفسه الحرية في تشريح شخصياته من غير أي تخرج ، لأنهم يصبحون موضوعا منفصلا عن الكاتب ، يقف منه موقف الحياد ، فلا مجاملة ولا دفاع ، بل تحليل وفحص كالفحص العلمي المجرد » .

كتب هذا كمقدمة لمحاولة تقييم رواية «أصابعنا التي تحترق» للدكتور سهيل أدريس في كتابي « كتب في الميزان » .

وقد رأيت وجه شبه بين تلك الرواية وبين الرواية الجديدة « ليل له آخر » للاستاذ يوسف السباعي . وذلك من حيث أن كلا من الكاتبين هو بطل الرواية ، أو أحد أبطالها الرئيسيين ، لا تخفيه غير التغيرات أو الأفعنة الروائية ، وبقية الابطال بعضهم من خاصة الكاتب تخفيهم أيضا تلك الأفعنة .

البطل الظاهر في رواية « ليل له آخر » هو « سهير » البنت السورية التي أصيبت بشلل الاطفال ، فانزعج والدها ، واهتم الوالد بعلاجها في لندن حيث أخفقت المحاولة الاولى ، وبعد سنين أعيدت تجربة العلاج ، فتمت بنجاح .

هذا الحادث اذا رفعنا عنه القناع الروائي فاننا نعلم أنه وقع فعلا لولد المؤلف ، وهو في الواقع طبعا يختلف عنه في القصة ، يختلف في الهيكل

العظمي فقط ، ولكن اللحم والدم والعروق ، وخاصة مشاعر «الأب» مصورة
تصويرا لا أخاله الا طبق الأصل ، لما فيه من صدق ونبض وحرارة •
ومن هنا أستطيع القول بأن البطل الحقيقي للقصة هو « الأب » وهذا
معنى ما قلته من أن البنت هي « البطل الظاهر » • • فقد صور الاستاذ يوسف
السباعي مشاعر الاب أدق تصوير ، الأب الحاني الذي يرفع ابنته رعاية مثالية
فيجعل من نفسه صديقا لها ، يفاهم معها وتطلعها حتى على حبها بعد أن كبرت
• • فيشاركها في تذليل ما يعترض طريقها ويسر لها كل ما تريد •

وفي شخصية الأب نرى الذاتية الواضحة ، فغير خاف أنها منتزعة من
شخصية المؤلف نفسه • وهذه الذاتية أمدت العمل بفيض من الحيوية
والانطلاق والواقعية ، بفضل ما جبل عليه يوسف السباعي من الصراحة
والصدق ، واستطاعته أن يجرد من نفسه شخصا آخر يوضع تحت المنظار
المكبر في التحليل القصصي ، وقد فعل ذلك في معظم قصصه •

وتساعده على النجاح في هذا المنهج ، القدرة التجريدية التي تحدثنا
عنها ، وصفات شخصية أخرى ، منها سعة الافق والجرأة على التعبير دون
تهيب ما عسى أن يكون من الوقع أو مما يقال عنه ، وخفة الظل التي تتخلق في
السياق القصصي جوا مرحا ممتعا •

غير اننا نلاحظ ان الذاتية في هذه القصة ، وان نجحت في التخلص
مما يخشى منها عادة في العمل القصصي على وجه عام ، أوقعت المؤلف في
مأخذ لعله الوحيد في القصة من حيث الأثر الذاتي ، ذلك أنه صور لنا الابنة
« سهير » مدللة من أبويها لا يمنع عنها شيء ولا يرد لها مطلب ، دون أن يؤثر
هذا التدليل المفرط فيها أي تأثير سيء ، ويعلل الوالد ذلك في أحاديثه مع
الآخرين بانها « عاقلة » • وقد يكون ذلك حقا بالنسبة للواقع الخاص ، وهو
حينئذ يكون أمرا غير عادي ، ولكن الواقع العام غير ذلك من حيث ما يحدث
عادة من الافراط في التدليل مما يعرفه الجميع •

واذا صرفنا النظر عن هذا المأخذ الأخير ، ونظرنا الى القصة ككل
تتوافر له أسباب الاجادة بما فيها التجربة الشخصية نفسها ، فاننا لا نتردد

في الحكم بأن الذاتية في هذه القصة من عوامل نجاحها والاجادة فيها *
ولا ينبغي أن يقف في طريق ذلك الحكم ما يحتمه النقاد في العمل
القصصي من ضرورة توافر الموضوعية ، فاننا ازاء عمل أدبي ناجح لا يشعر
النقاد المنصف فيه بضعف أو خلل ، والعمل الأدبي دائما هو السابق على
النقد ، والأديب الأصيل لا يكتب تطبيقا حرفيا لأصل نقدي موضوع ، بل
ينطلق على طبيعته الأدبية ، فان أحس الناقد في عمله بخلل أو ضعف أرجعه
الى أحد الاصول الفنية ، وان وجده على العكس عملا ناجحا ولو كان مخالفا
لأصل فني راجع هذا الأصل نفسه ونظر في صلاحيته المطلقة *
وبالنظر الى مسألة « الذاتية والموضوعية » في قصة « ليل له آخر » فاننا
بناء على ما تقدم نقول أن الكاتب المتمرس الذي تتوافر له صفات معينة
كأنني ذكرناها يستطيع أن يحيل العنصر الذاتي الى عنصر النجاح في العمل
الأدبي *

واذا تجاوزنا الابنة والوالدين فاننا نرى بقية أبطال الرواية من عمل
الخيال البحث * والأبطال معظمهم سوريون مصريون * والحوادث تجري
أصلا في دمشق حيث ينشأ حب بين فتاة سورية هي الابنة وبين شاب مصري
ضابط كان يعمل هناك في وحدته العسكرية ، وينشأ حب اخر بين شاب
سوري وأديبة مصرية عينت مدرسة بجامعة دمشق *

وتتد الحوادث الى لندن مرتين ، الاولى عند المحاولة الأولى لعلاج
البنت من شلل الاطفال هناك ، وقد أخفقت العملية ، المرة الثانية عندما
أحسّت الفتاة - اذ كبرت وأحبت - بأنها تريد أن تكون جديرة بزواج
حبيبها ، فأصرت على تكرار العملية ، وكانت قد رفضت هذا التكرار الذي
أشار به الطبيب في المرة الاولى * وكانت الرحلة الأولى في الشتاء ، والثانية
في الصيف ، فوصف لنا المؤلف الحياة الضبابية الكثيرة في لندن شتاء ، وكان
ذلك خطأ موازيا لخط العملية المخففة والعودة باليأس * أما في الصيف
فكانت الشمس المشرقة والأشجار المورقة ، فيشرق الأمل والاستبشار ،
وتثمر العملية ، وتعود الفتاة على ساقين سليميتين *

وفي دمشق يحدثنا المؤلف عن كل ما يحيط بأشخاصه فيها من جمال الطبيعة ، وما يسود البلد من تيارات سياسية في الفترة التي تمت فيها الوحدة حتى وقع الانفصال • وهذا هو موضوع الرواية ، اذ حلل المؤلف المجتمع السوري السياسي وبين الدوافع الشعبية الساحقة التي دفعت الى الوحدة بسرعة دون أن يكون هناك وقت لدراسة المعوقات الأخرى التي تتمثل في ذوى الاغراض المختلفة ، من شيوعية وبعث ، وما ظهر أخيرا من رأسماليين هددهم التأميم والاصلاح الزراعي • تكونت من هؤلاء وهؤلاء أقلية ساخطة يقول المؤلف في موضع من الحوار ما معناه أن هذه الاقلية انتصرت على تمسك الشعب بالوحدة ، لان « السخط أشد دفعا للعمل من الرضا » •

والقصة تتكون من خطين متوازيين وان كانا يلتقيان •• الخط الاول هو العلاقات الأسرية أولا بين « سهير » ووالديها ، وبينهم وبين الأسر الأخرى • والعاطفية الغرامية ثانيا بين سهير والضابط الشاب والحبيبين الآخرين •

والخط الثاني يجرى في خلال تلك العلاقات نفسها ، وهو الخط السياسي • وهو يجرى بطريقة عضوية لا نشعر فيها بأية مباشرة ، وقد وفق المؤلف في سياقه سياقاً طبيعياً عضوياً بالتركيب الواقعي والخيالي و « توليفة » الاشخاص •• ما بين وحدوى وبعثي وشيوعي ، ورأسمالي واقطاعي •• فجعل كلا منهم يتحدث ويتصرف حسب ما تملي عليه عقيدته أو أهواؤه •

ولم يغفل المؤلف في خلال ذلك الميول البشرية المختلفة ، فالفتاة سهير مثلاً ، وهي من العناصر الوطنية الصالحة ، تصرح في مناجاة نفسها عندما علمت بأن حبيبها الضابط أصيب في معركة مع اسرائيل ، تصرح قائلة في نفسها : « جرح الوطن العربي لم يكن شغلي الشاغل وقتذاك •• انما هو جرحك انت » ••

وموضوع العلاقات الاجتماعية والعاطفية موجه ، من أول الرواية الى

آخرها ، في خدمة الموضوع السياسي العام ، فالفتاة العرجاء تكافح لتجعل نفسها كيانا اجتماعيا بغض النظر عن شلل ساقها ، ثم تكافح لتشفى من الشلل كي تحصل على حبيبها وهي أهل لزواجه غير قانعة بحبه اياها ورضاء بها كما هي ، ثم تهب الزوابع السياسية فيقع الانفصال ويعتقل الحبيب ، وتصاب الفتاة في مظاهرة للطلبة والطالبات ضد الانفصاليين ، تصاب برصاصة تسبب لها شللا مؤقتا ..

ويستمر الليل الى آخر الرواية ، بل تشتد حلوكته .. أما آخر الليل المأمول فهو المأمول .. كما تقول البطلة في مناجاة حبيبها .
« سيتهي الليل يا حبيبي .. وتقبل مع الفجر .. لتجدني أهتف باسمك .. وأمد ذراعي لألثاك باسمه وأبقى بجوارك لاكون كما اردتني .. سيدة الناس .. يا سيد الناس » .

ولا أعتقد أن الاستاذ يوسف السباعي قصد أن يرمز بشيء الى شيء .. على أنه يمكن أن يقال أن سهير ترمز الى سوريا ، وحمدي « الضابط » يرمز الى مصر ، وان الليل الذي غانيا فيه الفرقة لا بد ان ينجلي .. لا بد له من آخر .

ولا بد من وقفة قصيرة عند كلمات « سيدة الناس .. وسيد الناس » التي وردت في العبارة السابقة .. كان الحبيب قد قال لحبيته انه سيجعلها سيدة الناس كما هي .. قبل أن تجري العملية .. فشعرت بأنها لكي تكون سيدة الناس حقيقة يجب أن تشفى من الشلل .. وتسير الى جانبه سليمة الساق ويدها في يده .. سيدة الناس !

شعرت بأن هذه الكلمة لا تتفق مع روح القصة وجوها الديمقراطية الاشتراكي .. الذي لاسيادة فيه لاحد على أحد .. حقا انها من العبارات المألوفة في الواقع ، ولكنها من روايب قيم غير ديمقراطية وغير اشتراكية . وقد ناقشت الاستاذ يوسف السباعي في هذه النقطة ، فقال أن هذا التعبير سيد الناس أو سيدة الناس - يجري على اللسان دون أن يقصد به أي معنى للسيادة التي لا تتفق مع الديمقراطية . والمقصود في الحوار أن بطلي

القصة كل منهما ينبغي للاخر أن يكون ذا مكانة محترمة في المجتمع ولا شيء آخر من سيادة او نحوها •

ومع تسليمي بهذا المقصود اشعر أن التعبير يشتمل على الظلال التي أشرت اليها وان تجنبه كان أفضل وأسلم •

ثم هو من الوجهة الفنية البحث لا يتفق مع الشخصيتين اللتين تتحدثان، فقد رسمهما المؤلف ديمقراطيين انسانيين لا يعبان بالمظاهر، فحمدي مثلاً قد احب سهير عرجاء ولم يتردد في خطبتها والعزم على الزواج منها وهي عرجاء •• وهذا يدل على أنه لا يعتد بالمظاهر ولا يدين بسيادة أحد على الناس •

وبعد فان قصة « ليل له آخر » هي احدى الروايات التي أخذ فيها الاستاذ يوسف السباعي على نفسه أن يؤرخ بها - على الطريقة الادبية القصصية للحوادث الوطنية في حياتنا العربية منذ ثورة ٢٣ يولية • أولها « رد قلبي » التي بين فيها كيف استتبت الثورة ، ومنها « نادية » التي عالج فيها التأميم وصور العدوان بصورة منافية للانسانية ، ورمى فيها الى السلام العام • ومنها « جفت الدموع » التي كتبها في ظروف الوحدة بين مصر وسوريا •

وهذا المنهج الاخير الذي يسلكه الاستاذ يوسف السباعي في تتبع الاحداث القومية الكبيرة ، يختلف عن منهجه في قصصه قبل الثورة ، التي كان يهاجم فيها الفساد وهو قائم •

قابل فكريس: ديوان محمود حسن اسماعيل

ليسمح لي القارئ أن أدخل على هذا الموضوع بطرف من حديث شخصي ، لأن له دلالة موضوعية ، على أنني قد بلغت من العمر المرحلة التي يباح فيها للكاتب ان يمنح من ذكرياته ويعود بالنظر والمقارنات الى ماضيه ، وعلى أن ما سأذكره لا يعد من المفاخر أو من المآثر التي قد تثقل على القارئ من الكاتب ، بل هو العكس من قبيل الاعتراف •

لي مع البدء الطيب الذي بدأه محمود حسن اسماعيل في الشعر - بدء غير طيب في النقد •

كان قد سبق فأخرج ديوانه الاول « اغاني الكوخ » ١٩٣٤ ثم ثنى بديوانه الثاني « هكذا أغني » ١٩٣٧ •

وكنت ابدأ النقد ، بدأته في مجلة « الرسالة » بمقالات « شعراء الموسم في الميزان » - ١٩٣٦ - ولم اكن قد خرجت عن مزاج كلاسيكي مطبوع بما درسناه من شعر الاقدمين وما قرأناه من دواوين المحدثين التقليديين • وبهذا المزاج أهويت على شعر ابراهيم ناجي وأحمد رامي ، وأعليت من أشعار الهراوي والاسمر والزين •

ولما ظهر ديوان « هكذا أغني » دفعه الي كي أكتب عنه صاحب الرسالة الاستاذ الزيات ، وكنت قد بدأت العمل معه بالمجلة •

وبنفس المزاج الكلاسيكي أهويت على المولود الثاني لمحمود حسن اسماعيل بطريقة اقلقتة ونفت عنه النوم لياالي أسبوع كامل •• كما قال لي بعد •• اذ ذهب ظنه الى أبعد من الواقع ، فتخيل مؤامرة تدبر له على يد جماعة تخاصمه وجدت في شخصي أداة التنفيذ •

لم تكن هناك اية مؤامرة أو تدبير .. كل ما في الامر اني كنت متخلفا عنه ، وكنت دون مستوى هذا اللون من الشعر الجديد ..
كنت أنقد شاعرا ينأى عما قيل من الشعر ، ليعبر تعبيراً جديداً -
كنت أنقده بمقياس لا يعد الشاعر شاعراً الا بمقدار التصاقه بروائع ما قيل *

واليوم وتأمل ذلك الذي حدث من قرابة ثلاثين عاماً ، كي استخلص العبرة ، فأنفذ منه الى أمرين : الاول ما لا يزال يعاني منه الاديب المتقدم ، اذ يعرض له التقد المتخلف .. أو النائي .. ومن حقي أن أذكر ان تخلفي ذلك لم يطل ، وأني اجتهدت بعد في أن أفتح نفسي ومداركي لكل جديد * والأمر الثاني خاص بشاعرنا نفسه ، شاعرنا الذي بدأ صادقاً في التعبير ، لا يريد ان يحاكي ، ويأبى أن يتخذ الشعر حلية ووجاهة في المجتمع ، وظل حتى اليوم يعاني التعبير الشعري كرسالة يضطلع بها ويصدق في ادائها ، ويجتذب الى « دربه » في الشعر كثيراً من الشادين الذين يؤثرون الصدق والمعانة *

كانت رسالة محمود - على ما يبدو لي - وما تزال ، هي التحرر ، التحرر من التقليد والترديد في الكيان الشعري ، وتحرر الانسان من الرق بأنواعه المختلفة ، وتحرر النفس الانسانية من كل ما يعوقها عن « الزحف الى النور » وهذه هي عبارته الاثيرة التي يكررها في مختلف المواضع ، كما يكرر « الدرب » في الدلالة على المذهب او الطريق الى الغاية المنشودة *

بدأ محمود يعني للكوخ الذي جاء من لدنه الى القاهرة « مشحونا » بانفعالاته نحوه ، ومحملاً بتجاربه الاولى حيث كان في قلب « الصعيد » وغناء شاعرنا « الصعيدي » ليس كسائر الاغاني * انه غناء الشجى وتوقيع الارادة الحادة ، انه يعني بمزمار غير مألوف كما يقول لنفسه في الديوان الاخير :

« اتبعيني في دروبي واحذري أي هروب »

« فأنا أظما ، واسقيك من السر الرهيب »

« وأنا أشقى وأشجيك بمزماري الغريب »

وفي أول ليلة دنست تراب فلسطين أقدام التائهين •• يغنى الظلام ،
وينوح الضوء ، ويسمع الانبياء :

« مزامير ويل ، غنى صداه »

وهو يغنى « نار الجراح » كما يقول :

مالك لا تلهم غير الاسى ولا تغنى غير نار الجراح ؟

غناء محمود حسن اسماعيل من البدء حتى اليوم ثورة على الرومانسية
الوانية الضعيفة ، كما كان وظل شعره عامة ثورة على الكلاسيكية البيغاوية •
بدأ يغنى جراح ساكني الكوخ ، وينشد لها الالتئام ، على حين كان
الشعراء يغنون الملدات ويهيمون في المسرات • انه دائما يأتني بجديد ،
لا ينسج على منوال •

واستمر يغنى الجراح والآمال في « هكذا اغنى » •

وكأنه قد مل الغناء وداخله الشعور بالضياح •• الضياح القومي ••
فجمل يسأل « أين المفر » ١٩٤٨- حينما اسودت الدنيا واكتمهت
الآفاق •

ثم اشتد الصراع وقامت المعارك بين بقايا عهد يؤذن بالأفول وطلانح
جديدة تنتصر ، فكانت قصائد « نار وأصفاد » التي قلت في خلال ذلك
وظهرت في ديوانها سنة ١٩٥٩ •

وأخيرا جاء الديوان الاخير

« مع هدير الشروق »

وهو يفجر صحو الاعماق ••

مع الانسان وهو يستر ذاته ••

الموج يجرف الهشيم ••

•• والرياح تعزف الرباب للسائرين مع النور ••

الشاطيء قريب ••

والضحى ..

.. قاب قوسين ..

جاء اذن ديوان « قاب قوسين » مصدرا بهذه الكلمات - جاء غناء جديدا
للنصر .. ما تحقق منه ، وما هو قاب قوسين او قوس واحد .. كما يقول
في آخر القصيدة الاولى :

فقد وصلنا .. لم تكد .. فاقتربى

من ضفاف النور ، في قاع الصدور

قاب قوسين .. بلى ..

انا على قاب قوس ، من ضحى المرسى الاخير

ومن صدق شاعرنا ان دواوينه تمثل مراحل حياتنا القومية والاجتماعية
على نحو ما أسرتنا . والجزء الاول من هذا الديوان - وهو قسم كبير
منه - يعبر عن الانتصارات العربية التي تحققت في السنوات الاخيرة مزجها
الشاعر بنفسه أو نقول تمثلها في ذاته ، وعبر عنها في صور تتشابه دائما في
الشكل ، وتختلف احيانا في الموضوع ، كموضوع فلسطين والسد العالي ،
اما من حيث الشكل فأنا نجد في كل منها يجري حوارا بينه وبين نفسه ،
يستحثها للتقدم والزحف الى النور ، ويحذرهما من النكوص والتسكع في
الظلام ، وخير مثال لهذه القصائد قصيدة « أنا والنفس والطريق » وهي
تحكي لنا كيف يتسامى الانسان - كفرد من القوم - فيصر على بلوغ
أهدافه العليا البعيدة مجتازا اشواق الحياة ، ماضيا الى غايته لا يتنيه عنها
شيء من مغريات أو أوهام او مشقات . انه يفيض الى النور .. نور الغاية
السديدة .. ويخشى على نفسه أن تتعاس أو تنحرف عن الجادة في التواءات
ومتاهات ، يبدأ قائلا لها :

« اتبعيني في دروبي واحذري أي هروب »

« فأنا أظما وأسقيك من السر الرهيب »

« وانا أشقا واشجيك بمزماري الغريب »

« وأنا أسرى ، فأهديك الى الشط الرحيب »

فاذا أنشئت اليه واطمأنت الى ما يعدها به ، جعل يستحثها ويدنى منها
شعاع الامل ، يقول :

« فأنفذى .. فالسر ان سرت على قيد ذراع »
« واصرعي الموج ، ولو أقبلت من غير شراع »
« واركبي الاعصار والاصرار في وجه القلاع »
« انما الخائف عند الزحف ، محتوم الضياع »

وبعد أن يحذرهما من النكوص والاستجابة للمغريات يدعوها الى الصفاء ،
يقول :

« واذا حياك وجه غلف الزور عيونه »
« فبدت ليلا على الادغال زارته السكينة »
« مطمئن الذعر ، مصلوب الهوى فوق الضغينة »
« تزحف البسمة من أوكاره ثكلى حزينة »
« فابسمى أنت ولا تبقى صفاء تحملينه »
« واسكبي النور ، يساقيه ، ويمتص دفينه »
« ويريك النفس في سحتته ، تعوى سجينه »
« واتبعيني واتركيه للدجى يشوى جفونه »

ولعلك تشعر معي بالتعارض في هذه الايات بين الصفاء المنشود وبين
الحدة والشماتة في تصوير « الوجه المغلف بالزور » .
ثم نمضي مع الشاعر في حوار مع النفس ، فنراه يحذرهما أن تخلد
الى الراحة وان تلتفت الى الزمن الماضي الذي يصوره في هذه الصورة
الجميلة بقوله :

« وزمان احذب الخطوة من عض السلاسل »

وقد ولى الظلم والذل ، وفك القيد ، واندحر الفارس « المسجور في
البغي حسامه » :

« فجأ الله خطاه بضحي عات صدامه »

« وانتهى .. لاشيء .. الا ما يرى عنه ظلامه »

« فازحفي •• دربك حر ، أذهل الدنيا ابتسامه »
وها نحن اولاء قد وصلنا الى النور :

« يجرف الظلمة ان مست عصاها طرقاتك »

« فازحفي •• قد باتت العتمة من كل جهاتك »

« وركبت الضوء ، معراجا لاغنى أمنياتك »

وهذه المكاسب العظيمة التي حققناها علينا أن نحرسها :

« فاذا أحسست وهما للدجى دب ورائي »

« فانسخي روحك اعمارا يدوي بالفناء »

« وانفذى بالنور في أخفى سراديب الخفاء »

« واسحقه قبل أن يسترق الليل حدائي »

« فتسيرين على الدرب بلا أي عناء »

« فاصحيني •• انتسر النور يجري في دمائي »

ولا ارى معنى لعبارة « يدوي بالفناء » وقد قرأت هذه القصيدة

منشورة من قبل ، فكانت الجملة هكذا : « يدوي بالفناء » •

ولعل الفناء أدركها في خطأ مطبعي بالديوان ••

والقسم الثاني من الديوان معظمه قصائد عاطفية لا ترقى في الصدق

وبلورة الاغراض ووضوح الهدف الى مستوى القسم الأول القومي ، فكثير

من القصائد العاطفية يسوده التوليد الذهني والتفنن في التصوير الصناعي

أكثر مما نحس فيه بصدق التعبير وحيوية الانفعال •

قصيدة « فانتني مع النهر » - مثلا - نرى الشاعر فيها يحدثنا عن

نفسه كشاعر يؤثر في « الفاتنة » بأنغامه ، وهي تحدث النهر عن ولها به ،

ولا نكاد نجد الفاتنة نفسها في القصيدة وكيف فتت الشاعر •• تقول

للنهر :

يانهر •• قاسمني الهوى مرة

وهات أخبرك عن عابدي

نجى أحلامي ، وشادى الهوى
بمعجزات النغم الخالد

ومن الجيد في القسم العاطفي وصفه للملاك النائم في قصيدة « الملاك
النائم » وان كنا نلاحظ أنه يكرر كلمة « حينما » في أول كل بيت ..
يبدأ هكذا :

حينما تهجمين في مهدك الطاهر
والسحر متعب في جفونك
ثم تلو ذلك احدى عشرة « حينما » ولا جواب لحينما .. وان كان
يقول بعد :

لو سمعت خافقي في دجى الليل
وشكوى جراحه في سكونك

وهذا لا يصلح جوابا للحينمات قبله ..
وحينما يدع الشاعر هذا التوليد العاطفي ويجنح الى الصور الاجتماعية،
يجيد كل الاجادة ، ففي قصيدة « صحراء العجائب » يعطينا صورة رائعة
لشخصية المنافق ودخائله النفسية ، يقول فيها :

برت آية البهتان جلدة وجهه
مطايا رياء لا تضيق براكب
اذا قيل : هذا الصخر ماء .. رأيته
يردد للينبوع شوق السباب
وان قيل : هذا الماء نار .. رأيته
عليها مجوسيا عريق المذهب
وان قيل : تلك النار فجر .. رأيته
اذان مصل هز سمع الكواكب
وان قيل : هذا الفجر قبر .. رأيته
من الشكل يستجدى دموع النوادب

تلاشى بلا موت ، وأودى بلا ردى
لعل بهذا النعش بعض المكاسب
أمانك ربي منه ... هذا منافق
أخف لقاء منه وجه المصائب

محمود حسن اسماعيل مدرسة في الشعر العربي الحديث ، أهم
خصائصها التعبير الشعري المنحوت على غير مثال سابق ، والمجنح بأجنحة
من الاستعارات المنحوتة هي أيضا على غير مثال سابق • ومحمود نفسه
شاعر له تصور خاص للأشياء ، وله قصد صادق في الحياة يعبر عنه تعبيرا
صادقا ، ومن صدقه الحدة لان الشاعر نفسه حاد •

ويبدو لي أنه يتأمل التجربة الشعرية قبل أن يعبر عنها بطريقة
تختلف عن التعبير نفسه • انه يعاشر التفصيلات والجزئيات ويفكر فيها ،
ثم يستخلص منها ما يحدثنا به أمرا كليا يدفعه إلينا نتيجة مسلمة • واعتقد
أنه لو أشركنا في جزئيات التجربة بعرضها علينا ، وجعلنا نسير معه فيها حتى
نخلص معه الى الكلي العام ، لكان ذلك اقرب لنا الى المتعة الفنية وابتعد عن
كثير يفاجئنا به فنجد عتتا في ادراكه وتذوقه •

وما زلنا نتنظر من محمود حسن اسماعيل المزيد من الابداع •

عيسى بن هشام والفن الزواني

في أقل من سنة صدرت ثمرات طيبات لمشروع « المكتبة العربية » الذي اختطه في العام الماضي المجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب والعلوم الاجتماعية ، وتعاونت معه في تنفيذه الدار القومية للطباعة والنشر ومؤسسة التأليف والترجمة •

ظهر من هذا المشروع حتى الآن عدد من الكتب في مختلف النواحي ، من تأليف وترجمة وتراث قديم وتراث حديث • ولكن مما يؤسف له أن التقاد لم يلتفتوا اليها ، فلم يكتب أحد منهم عن كتاب منها •• ربما لأنهم مشغولون بالسرحدات التي ألفها فلان وابدعها فلان •• وربما لان هذه الكتب لم تهتد اليهم بعد •

وقد أهتم المجلس الاعلى بناحية جديدة في هذا المشروع ، هي كتب التراث الحديث التي طبعت طبعات قديمة ونفذت ، وأصبح الجيل الحالي من الأدباء والمثقفين يكاد يكون منقطعاً عن هذا التراث القريب ، الذي كان طليعة نهضة لا تزال وسنظل نجني ثمارها ، وقد صدرت طائفة من هذه الكتب مصدرة بمقدمات تحليلية كتبها اساتذة كانت لهم صلات شخصية بمؤلفيها ، أو عنوا بدراساتهم عناية خاصة •

بين يدي الآن من هذه الكتب كتاب « عيسى بن هشام او فترة من الزمن » لمحمد المويلحي • وكان الكاتب قد نشر هذا الكتاب حوالى سنة ١٨٩٩ في حلقات مسلسلته بجريدة مصباح الشرق التي كان يصدرها والده ابراهيم المويلحي ، وجمعها بعد ذلك في كتاب سنة ١٩٠٦ •

والكتاب يعد بمثابة قصة طويلة زباطها البطل والراوي : أما البطل

فهو « أحمد باشا المنيكلي » ناظر الجهادية في فترة تقع في النصف الاول من القرن التاسع عشر • تخيل الكاتب انه بعث على طريقة أهل الكهف • وأما الراوي فهو « عيسى بن هشام » استعار الكاتب اسمه من بديع الزمان الهمذاني في مقاماته المشهورة ، وهذا الراوي يتقصه المويلحي نفسه • والموضوع الذي يهتم به هو المقارنة بين عصر (الباشا) في النصف الاول من القرن التاسع عشر وبين عصر « عيسى بن هشام » أو المويلحي في النصف الثاني من نفس القرن ، وهو الوقت الذي كانت مصر فيه قد أخذت بكثير من مظاهر الحياة الغربية بما فيها من مساوئ ومحاسن • وتنتهي المقارنة باستحسان الحسن من الجديد والقديم كليهما ، واستهجان السيء منهما •

وقد نهج المويلحي في هذا الكتاب منهج المقامات العربية المشهورة ، ولم يكن هو أول من فعل ذلك في العصر الحديث ، فقد سبقه « علي مبارك » في القصص على طريقة المقامة متجها الى المضمون العصري ، وذلك في كتابه « علم الدين » الذي قصد به الى نقل المعارف المختلطة بطريقة قصصية، كما قال في المقدمة •

أما الاتجاه العصري في « عيسى بن هشام » فهو تصوير الحياة الاجتماعية ونقدها ، مع رسم نماذج مختلفة من شخصيات المجتمع • وهذا الاتجاه يدني الكتاب بعض الشيء من الفن القصصي الحديث • وكنت أود ان يبين ذلك الاستاذ على أدهم في تقديم الكتاب ، أو أن يهتم ببيان ذلك أكثر مما فعل ، فقد أجمل الكلام بقوله في آخر التقديم دون حيثيات سابقة :

« وأحسب أنه لا امتراء في أن محمد المويلحي كان الرائد الاول للروائيين المصريين الذين جاؤا بعده وقد مهد لهم السبيل ، وقدم لهم المثال ، مع قوة الاداء ، وبلاغة التعبير ، والمحافظة على سلامة اللغة وصحة العبارة ، وكتابه فاتحة في الادب العربي الحديث يستحق أن ينوه بها ، وتذكر له بالتقدير وعرفان الجميل ، وهي اول محاولة صادقة لصنع الادب بالصيغة

المصرية وتلويحه باللون المحلي ، واخضاعه لتناول مشكلات العصر ، ووصف التيارات المختلفة التي تضطرب في جوانبه • •
أما ان الكتاب فاتحة في الادب العربي الحديث • • الخ ، فهذا لا شك فيه • ولكنني أختلف مع الاستاذ علي أدهم في قوله بان محمد المويلحي كان الرائد الاول للروائيين المصريين الذين جاءوا بعده ، للأسباب الآتية :
١ - الكتاب ، وان كان قد اتجه نحو تقديم شخصيات من المجتمع وتناول مشكلات عصرية ، لم تتوافر له المقومات الأساسية لفن الرواية •
٢ - الذين كتبوا على غراره - مثل حافظ ابراهيم في ليالي سطح - لم يكونوا روائيين ، بل ان حافظا التصق بفن المقامة القديمة اكثر من المويلحي ، ولو كانت هناك زيادة لكان الاولى بها بديع الزمان الهمذاني •

٣ - المعروف الذي يجمع عليه الدارسون ان أول رواية فنية مصرية متكاملة هي رواية « زينب » لمحمد حسين هيكل ، ولا علاقة لها بالمنهج الشكلي والاسلوب الذي سلكه المويلحي ، وكذلك الاتجاه ، فزينب رومانسية ، وعيسى بن هشام كلاسيكي ، وان كان كل منهما يتخذ مادته من واقع المجتمع المصري •

٤ - على أن رواية زينب - مع اختلافها عن عيسى بن هشام - هي الرواية الوحيدة التي كتبت في نحو ربع قرن بعد عيسى بن هشام ، ولا أرى « عذراء دنشواي » لظاهر حقي قد اكتمل لها ما يسلكها في عداد الروايات الفنية الحديثة •

٥ - عندما نشأ فن القصة القصيرة عندنا حوالي ثورة سنة ١٩١٩ جافى رواده كل ما يمت الى المقامة العربية التي اتخذها المويلحي شكلا لكتابه ، جافوا حتى اللغة العربية الجذلة • وهذا يدلنا على أن كل القصصيين الحديثين سواء أكانوا كتاب رواية أو قصة قصيرة بعدوا كل البعد عن منهج المويلحي في عيسى بن هشام •

٦ - مما يؤيد ذلك ما قاله الاستاذ يحيى حقي في مقال بالسجل الثقافي

(سنة ١٩٥٩) وهو يدل على القول بأن الرواية كانت أسبق في الظهور عندنا من القصة القصيرة - قال من أسباب ذلك : « خوف دفين في قلوب هؤلاء الكتاب من الالتصاق الشديد بفن المقامة لانهم كانوا يريدون التحرر منه » وكان يحيى حقي من أوائل من مارسوا كتابة القصة القصيرة ، فهو يحدثنا عن ملابس شعربها وعانها • وإذا خرجنا عن موضوع « عيسى بن هشام والفن الروائي » فلا بأس بمناقشة قصيرة للاستاذ يحيى حقي في قوله بأن الرواية كانت أسبق من القصة • هذا صحيح اذا سلمنا بأن رواية واحدة تكفي في هذه الدعوى اما اذا نظرنا الى الفيض الغزير من القصص القصيرة التي سبقت نشوء الروايات - ما عدا « زينب » الفريدة - فان هذا يحملنا على النظر في دعوى سبق الرواية • هل يعطي عمل مفرد حكما عاما بالسبق على أعمال كثيرة تمثل نهضة واسعة قام بها عدد كبير من رواد القصة القصيرة - منهم يحيى حقي نفسه - أنتجوا لنا فيضا من قصص قصيرة نشرت في الصحف والمجلات وفي مجموعات خالدة نعكف الآن على دراستها في مجالات مختلفة من تأليف عنها وكتابة مقدمات لطبعاتها الجديدة التي تصدر في « مشروع المكتبة العربية » انني أميل الى القول بأن القصة القصيرة كانت أسبق •• اذ أنظر الى مجموعة كبيرة من الأعمال واضعها في الاعتبار بدلا من عمل واحد مفرد •

هل أحسان عبد القدوس مُفترى عليه ؟

كثيرا ما سألت نفسي هذا السؤال بعد ان افرغ من قراءة قصة للاستاذ احسان عبدالقدوس او في اثناء القراءة •• ما سر هذه الحملات التي يشنها بعض النقاد على هذا الكاتب ؟ ان مبعثها - ولا شك - ما تحتوي عليه قصصه من مواقف وافكار جنسية ، حتى ليسميتها الاستاذ العقاد « أدب الفراش » ويفسر استنكاره اياه بانه الذى يقصد به اثاره الغريزة وجذب جماهير القراء عن طريق هذه الالامارة ، ويفرق بينه وبين الادب الجنسي الذى لا يستنكره بان هذا الادب يعالج الجنس كظاهرة حيوية لدى الانسان تعد في جملة الظواهر الذى يتناولها الادب بالبيان والتحليل الجاد •

وتنعكس تلك الحملات على الجماهير ، أو قل ان الجماهير نفسها تلاحظ ما في القصص من جنس ، فتهتم به وتفكر فيه وتجتار •• ما في ندوة يمثل فيها كاتب أمام جمهور ، مثل ندوات أسابيع الكتاب العربي وغيرها ، الا كان احسان عبدالقدوس وقصصه - تصريحها وتلميحا - موضع الاسئلة ومثار الاهتمام •

حتى وزارة التربية والتعليم ، أو قسم « الالف كتاب » الذى كان بها وصار الان في وزارة التعليم العالى ، هذا القسم حذف من كتاب اصداره موضوعا نقديا لرواية من روايات احسان •• برغم ان هذه الرواية بالذات لا شيء فيها مطلقا مما في قصصه ورواياته الاخرى من الجنسيات ، وهي رواية « في بيتنا رجل » وبرغم ان روايات اخرى مكتوب عنها في نفس الكتاب تشتمل على جنسيات ، وبعضها مقرر في مكاتب المدارس •• ولكن اسم « احسان عبدالقدوس » •• الاسم فقط يثير الريبة ويدعو الى الاجفال !

وكان موقف وزارة الثقافة مختلفا ، فقد مثلت الرواية-بعد مسرحيتها - على مسرح التلفزيون ، وشاهدها من تلاميذ المدارس أضعاف من يقرأون الكتب منهم .. ونشرت مؤسسة التأليف كتابا نقديا آخر لمؤلف « الالف كتاب » يشتمل على الموضوع الذي حذف من الكتاب الاول والمكتوب عن « في بيتنا رجل » .

هذا وذاك وذاك .. يدل كله على موقف عجيب من الكاتب - احسان عبدالقدوس - لا ينبغي ان يظل معلقا او غامضا او داعيا الى الحيرة والتردد ولا سيما انه كاتب مقروء على نطاق واسع في مصر وفي البلاد العربية ، ولعله اكثر كتابنا رواج مؤلفات في الوقت الحاضر .

اشعر ازاء ذلك ان واجب النقاد ، لا نحو الكاتب نفسه ، بل نحو الجماهير القارئة ، ان يجلبوا ذلك الموقف والا يكتفوا برميهِ بالاحكام المطلقة وانتهى التى تشبه القذف بالطوب .

وسأحاول هنا شيئا من ذلك ، فأعود الى سؤالى الحائر الذى بدأت به .. هل احسان عبدالقدوس كاتب يتخذ من الشؤون الجنسية وسيلة الى جذب الجماهير القارئة ولا شيء وراء ذلك .. أم انه مقترى عليه وان اعماله الادبية تستكمل عناصرها الفنية وتهدف الى غايات جدية في حياتنا ؟

هذه روايته الاخيرة « لا شيء يهم » يمكن ان نأخذ منها الجواب ، انها تعرض علينا نماذج حية من مجتمعنا الحاضر ، وتجسم مشكلة خطيرة يكافح الشعب والدولة في مقاومتها ، ثلاثة اصدقاء : أحدهم ايجابي سديد الاتجاه نحو الاهداف العامة ، والثاني منحرف لا يؤمن بغير منفعة الشخصية ويحطم كل القيم في سبيل تحقيقها ، والثالث سلبي لا يهمه شيء .. وهذه هي المواقف الثلاثة التى تسود مجتمعنا الحاضر ، فيدفع به أحدها الى انتقم ، ويحاول الثاني جذبه الى الوراء ، والثالث يتفرج .

ويدور الصراع في القصة بين القوى العاملة الجادة في بناء المجتمع

وبين القوى الأخرى المعوقة ، وتجري المعالجة بطريقة صريحة تكشف الحقائق وتجلبو المواقف التي تقيم وتغض على كثير من الناس •

وقد خرج احسان عبدالقدوس بموضوع هذه القصة عن ما لا يزال معظم كتابنا القصصيين يدئون فيه ويعيدون من فساد ما قبل الثورة ، وقد شبع هذا الماضي كتابة وتصويرا حتى أصبح ينطبق عليه المثل الدارج «القتل في الميت حرام » وأنا كواحد من القراء والمواطنين أقسم بالله العظيم اني مقتنع كل الاقتناع بالفساد الماضي ولست محتاجا الى تصوير او ابراز فيه ولا أشك في ان جميع المواطنين مثلي في ذلك حتى الرجعيين انفسهم •• فهم مقتنعون بسوءه ولو خنوا اليه •

انما المجال الجدير بالابداع الان هو الحاضر وما يشرف عليه من مستقبل مأمول • واعتقد ان في حاضرا كثيرا مما يحتاج التناول الادبي بطريقة المهمة الاساسية للادب وهي الاحتجاج •• فلننا نحتاج الى تصوير الشخصيات الايجابية ومواقفها اتقدمية فحسب ، بل نحن كذلك في حاجة أشد الى ابراز العناصر المعوقة لتقدمنا والاختفاء التي تقع في تطبيق الاشتراكية وتكاد تنزل الایمان بها •

وذلك هو ما فعله احسان عبدالقدوس في قصة « لا شيء يهم » وأعطانا اياه من خلال تصويره ورسمه للشخصيات والاحداث بطريقة تجمع بين الامتاع والاستهداف ، وان كان احيانا يميل الى سياق الافكار وشرحها اكثر مما يحتمل السياق الفني •

عندما أنظر الى هذه الناحية الموضوعية في قصص « احسان » والى ما يهدف اليه فيها من غايات اجتماعية وانسانية - أقول في نفسي انه مظلوم وان الحاملين عليه متحاملون متجنون •

ولكني لا ألبث ان اعود فانظر الى الكفة الأخرى من الميزان •• ماذا فيها ؟

فيها نوعان مما يؤخذ عليه ، ويظهر اني سأضطّر هنا الى الترتيب والترقيم المدرسي - بحكم المهنة القديمة - كما يلي :-

اولا - بنات يطالبن بالحرية في الزواج والحب ، وبحق العمل الذي يحقق لهن الكيان الاقتصادي ، واخفاق وخيانات في الحياة الزوجية التي لا تقوم على اساس الحب ، ، ودعوة الى الصداقة بين الجنسين •• الخ • وهذا كله من اهداف المجتمع المتقدم التي اخذنا بها فعلا في حياتنا الحاضرة ولا يعارض فيها الا القلة الواقة ، ومعارضتها تعجز عن ملاحقة الركب في سيره الحديث •

ثانيا - وهنا طبقا للترقيم المدرسي ايضا نرى نوعين :

(أ) القبلية المعمقة ، والرغبة الصارخة ، والجسد المشتعل •• الى آخر الاوصاف والصور الحسية المثيرة ، التي ترفع مستوى توزيع « روز اليوسف » عندما تنشر حلقات القصة ، والتي تجعل الناشرين يتهافنون على المؤلف ويهتمون بصورة الغلاف حتى تبدو فيها « البنت » في منتهى الاغراء المباح ••

(ب) افكار خطيرة لا يمكن التسليم بها ، وهي فكرة واحدة رئيسية يلح عليها الكاتب ، وهي تجيء في موقف بقصة « لا شيء يهم » عندما تتردد الزوجة على خليلها في شقته ، ويجرى بينهما الحوار المبرر لعلاقتها على اساس ان المهم هو الحب ، وان الحب وحده يبيع كل شيء •• اما عقد الزواج فهو أمر شكلي ، وتتفرع من هذه الفكرة الرئيسية صور مختلفة في قصص احسان عبدالقدوس ، منها صورة الزوجة التي تستدعي في خيالها صورة الحبيب وهي مع زوجها •• وتتغلب بهذا التصور على النفور من الزوج •

عندما أنظر الى كل ذلك أرجع عما قلته في نفسي أولا واقول : لا ، انه ليس مظلوما وانه يستأهل الحملات التي تشن عليه •

ثم أقول للمرة الثالثة والاخيرة : انه مظلوم ومفتري عليه .. ولكن من الظالم ومن المفتري ؟ انه هو الكاتب نفسه الجاني على نفسه .. هو الذى يظلم فيه القصصي الممتاز بتلك العناصر الجنسية التي لو استعبدت منه ما ضر استبعادها شيئا من الناحية الفنية ، وانا اعتقد ان احسان عبدالقدوس كاتب جذاب بدون هذه الجنسيات وانه بصورة الحية وسياقه الفني المتمتع وأفكاره الاجتماعية السديدة يجذب قراءه ، والدليل على هذا قصته الوطنية « في بيتنا رجل » التي لا تشتمل على قبلة واحدة ولو بريئة ، وقد نجحت نجاحا جماهيريا كبيرا في مختلف الاشكال التي ظهرت فيها : كتابا ومسرحية وفيلما •

ولا أنفي ان بعض القراء يجذبهم الجنس ، ولكن ماذا لو نقص هؤلاء من عداد القراء الكثيرين في سبيل ان يخلص فن الكاتب من تلك الشوائب •

محمود طاهر لاشين

محمود طاهر لاشين هو أحد الرواد الاوائل لفن القصة القصيرة العربية ، الذين أرسوا أصول هذا الفن في مصر وفي سائر بلاد الوطن العربي . له مجموعتان قديمتان ومجموعة حديثة . أما القديمتان فهما « سخرية الناي » و « يحكى أن » وقد ظهرتا في العشرينات من هذا القرن ، وأخيرا صدرتا في طبعة ثانية بمشروع المكتبة العربية الذي يقوم به المجلس الاعلى للفنون والاداب والدار القومية للطباعة والنشر ومؤسسة التأليف والترجمة . ظهرتا مصدرتين بمقدمتين تحليليتين ، كتب الاولى لسخرية الناي الاستاذ يحيى حقي ، وكتب الثانية لـ « يحكى أن » الاستاذ محمود تيمور .

أما المجموعة الثالثة فقد أصدرها المؤلف نفسه سنة ١٩٤٠ مصدرة بمقدمة للدكتور حسين فوزي . وعنوانها « النقاب الطائر » . ولطاهر لاشين - الى جانب القصص القصيرة - رواية اسمها « حواء بلا آدم » ظهرت سنة ١٩٣٤ مصدرة بمقدمة للاستاذ حسن محمود . نشأ طاهر لاشين في أسرة من الطبقة المتوسطة في حي شعبي بالقاهرة ، هو حي السيدة زينب ، وتلقى التعليم الابتدائي باحدى مدارسها وهي مدرسة محمد علي الابتدائية . ولما أتم هذه المرحلة لحق بمدرسة قريبة من الحي ، هي مدرسة الخديوية الثانوية ، ثم تخصص في دراسة الهندسة بمدرسة الهندسخانة العليا ، وتخرج فيها ، وعين مهندسا بالحكومة في مصلحة التنظيم ، وظل بها حتى أحيل الى المعاش في أواخر سنة ١٩٥٣ . كان طاهر لاشين قد شغل عن الانتاج الادبي سنين طويلة حتى نميته .

الحركة الادبية • • فلما سمع أسمه يردد كرائد قصصى بعد النسيان الطويل سره ذلك واحيا النوازع الادبية في نفسه وحرك فيها دوافع الكتابة فطلب تسوية معاشه قبل بلوغ السن القانونية بسنتين ، وأجيب الى طلبه • ولكن الموت ضن علينا باتجاهه المأمول فعاجله بعد ذلك بأشهر اذ توفى في صيف سنة ١٩٥٤ •

عرف طاهر لاشين بين أصدقائه بالمرح والدعابة وخفة الظل وطلاقة الحديث ، يسترسل في كلامه على طبيعته ، يقول كل ما يريد أن يقوله في ظرف وأدب ، ويتقبل كل ما يقال له بسماحة وسعة صدر • وكان من ابرز أعضاء المدرسة الحديثة التي حملت لواء الثورة الادبية في اعقاب الثورة الوطنية ، ثورة سنة ١٩١٩ ، وأخذت على عاتقها انشاء فن قصصي عربي حديث يعبر عن الشخصية المصرية في اصالة وصدق بعيد عن تقاليد القدماء وتقليد الاجانب على السواء •

مهندس شاب موظف ، توفر له وظيفته حياة مادية رغدة في ذلك الوقت الذي كان يعتبر فيه الموظفون طبقة متوسطة ممتازة ماديا واجتماعيا ، وله الى جانب الوظيفة بعض أملاك من العقار تدر عليه بعض الايراد • نشأ لاشين في تلك الطبقة المتوسطة التي كانت لها تطلعات الى الطبقة الاعلى منها ، تطلعات مادية واجتماعية وبعضها سياسي ، ولكن تطلعات كاتبنا تنحصر في التعبير الادبي • وعن أي شيء يعبر ؟

تعلق — مثل سائر أفراد المدرسة الحديثة — بأدب الغرب القصصي الذي اقترن ازدهاره او قام هذا الازدهار على تصوير الحياة الواقعة بما فيها من تناقضات ومفارقات ، فالتفت الى واقع مجتمعه كي يفرغ انفعاله به في شكل مماثل للشكل الغربي •

انه مهندس في مصلحة التنظيم ، فهو يجوب شوارع القاهرة وحواريها وأزقتها ، ويتأمل بيوتها ومبانيها العتيقة وسكانها واخلاقهم وعاداتهم وكلامهم ، يحادث الناس ويختلط بهم ويتعرف الامهم ونوازعهم واسرارهم ، ويبادلهم الروح الطيبة والسخرية الظاهرة التي تملو على التعاسة الخفية ، ويختزن

من كل ذلك مادة قصصه •

تخطر له في خلال ذلك افكار القصص ، قد توحىها قراءاته ، وقد تنبع من صور المجتمع الذي يضطرب فيه ، فيعمل فكره فيها على مهل ، ويتأنى في « تصميم » القصة ، ثم يصبها في الشكل الهندسي الكامل •

كانت تؤرقه هموم اجتماعية ، لم يلتفت الى السياسة وانتكاساتها في البلاد ، بل أولاها ظهره وراح يتأمل المجتمع •• لم يكن أمثاله اذ ذلك يجبون الاشتغال بالسياسة ، لان السياسيين كانوا يعملون في خط منعزل عن الاهتمامات الاجتماعية •

هاله الثالث العتيد « الفقر والجهل والمرض » الذى توطن في البلاد ، وانصرفت عنه عيون السياسيين ومكن له المحتلون ، فمزج الفن بالاصلاح • طاهر لاشين مصري أصيل ، برغم تركية اجداده ، التي تلاشت بارستقراطيتها وعنجهيتها قبل أن تصل اليه ، تجري في دمائه روح الشعب المصري الذي يتغلب على آلامه بالفكاهة والمرح والسخرية حتى من نفسه • كان الشعب مغلوبا على أمره ، يدرك ما هو فيه من بؤس وسوء حال ، ولكنه لا يجد ما يتذرع به غير القناعة والرضى بالمقسوم ، شعب يمرح وهو شعر بمأساته ••

وكذلك كان طاهر لاشين ، أحيانا يمرح ويداعب ، وأحيانا يحزن ويأسى على الكوارث ، وان كانت الناحية الاولى هي الغالبة على قصصه • وهو في الناحيتين هاديء متفائل لا يثور أو لا تتور اشخاصه كما يقول الاستاذ حسن محمود في مقدمة ••• « حواء بلا آدم » :

« فلفظ الاستاذ طاهر لاشين جانبان ، أولهما وهو الغالب عليه ، جانب الدعابة البريئة ، والثاني جانب التأثر والشفقة ولكنهما تأثر وشفقة لا يذهبان بعيدا ولا يدفعان الى الثورة ، بل هما تأثر المتفائل بالحياة وشفقته ، فالحياة خلقت من نعيم وشقاء واناس الاستاذ طاهر لاشين ينعمون ويشقون لانهم جزء من الحياة وهم يرجون الاجر والثواب ان لم يكن في هذه الحياة الاخرى ،

وتلك الاستكانة الظاهرة تحملنا على أن نكون أقرب الى محبتهم وان لم تدفعنا الى احترامهم •

« ولذلك لا نجد في فن الاستاذ طاهر لاشين تلك الالوان المظلمة التي نجدها في بعض الاوروبيين ، ولا يجب ان نلومه على ذلك ، فليس ذلك مجاله ، وليس من طبيعته • والواقع ان هذه الالوان المظلمة لم تظهر بعد في الفن القصصي ، وقد نغبط لهذا الامر ، ففيه دليل على أن الشقاء الاجتماعي لم يبلغ في هذا البلد حدا يدفع الى اليأس والتمرد ، أو هو بلغ هذا الحد ولكن البركان لا يزال ساكنا » •

كتب هذا الكلام سنة ١٩٣٤ ، وقد عشنا في تلك الفترة •• نشأنا في شقائها الاجتماعي وغصنا فيه الى الازقان ، والحمد لله على التمرد وانفجار البركان •• وان كنا لا نزال نعاني من المخلفات •

بدأ يكتب القصص بعد محمود تيمور • وقد صدرت مجموعته الاولى « سخرية الناي » في أواخر سنة ١٩٢٦ • لم يدون هذا التاريخ على الكتاب، انما استنتجته من الاعلان عنه في جريدة « الفجر » التي كانت لسان حال المدرسة الحديثة • وقد كتبت الجريدة تقديمًا له في العدد الصادر بتاريخ ٦ يناير سنة ١٩٢٧ ، وظهرت المجموعة الثانية « يحكى أن » مع مقدمة للدكتور أحمد زكي أبو شادي في سنة ١٩٢٨ استتاجا مما ذكره الاستاذ يحيى حقي في كتاب فجر القصة المصرية من أنها ظهرت بعد سخرية الناي بستين تقريبًا وقد نشرت « الفجر » معظم قصص المجموعتين ، منذ العدد الثالث (١٩٢٥-١-٢٢) حتى توقفت عن الصدور • وقالت « الفجر » في تقديمها لسخرية الناي انها كانت تود أن يكتب الدكتور حسين فوزي نقدا لها • لولا أنه متغيب عن فرنسا • وعلى أثر ذلك توقفت الجريدة •

وكان طاهر لاشين يكتب في الفجر - غير القصص - تعليقات فكهة تحت عنوان « حديث المجالس » يتناول فيها مختلف نواحي الحياة الجارية بأسلوب ساخر • وكان يوقع أولاً باسم « محمود طاهر » ثم أضاف اليه فترة « لاشين » •

لحظت فيما نشر من قصص المجموعتين الأولين بجريدة « الفجر » أنها متداخلة في الزمن ، بمعنى أن المجموعة الاولى لم تكتب وتشر أولاً ، ثم كتبت قصص المجموعة الثانية ونشرت بعدها ، بل رأيت قصصاً من الثانية نشرت قبل قصص في الاولى ، بل نشرت قصص من الثانية قبل نشر المجموعة الاولى في كتاب . ولحظت الى جانب ذلك ان كلا من المجموعتين يشتمل على الجيد وغيره . وبناء على هذا لا نعد المجموعة الثانية تطوراً أو ارتقاء لفن الكاتب بالنسبة للمجموعة الاولى . كل ما في الامر أن نسبة الجيد الى غيره في « يحكى ان » أكثر منها في « سخرية الناي » .

قصة « سخرية الناي » التي بدأ بها المجموعة الاولى وسماها باسمها ، ليست - على ما أظن - من أوائل ما كتب طاهر لاشين ، اذ رأيتها منشورة في « الفجر » بعد قصص كثيرة من المجموعتين وهي لا تمثل فنه القصصي ، من حيث الواقعية الخالصة المسترسلة الأسلوب ، ومن حيث البناء الذي له أول ووسط ونهاية . انما هي قصة يختلط فيها تصوير الواقع بالتحليقات الشاعرية الرومانسية والتأملات الفكرية العميقة ، كل ذلك في اسلوب تظهر فيه الجزالة العربية التي لا تخلو من التلاعب والتكلف في بعض التراكيب . وهي لهذا تصدم القارئ العادي والمستعجل ، ولكن القارئ الاديب المتمهل يخشى محتواها رشفة رشفة في لذة وعمق تدنق . يمثل الأول القارئ الذي كتب عليها - النسخة من دار الكتب - : « بايخة جدا » ويمثل الثاني الذي كتب في آخرها : « عندما يجتمع القمر والنور ، ونسائم الروض الفاترة الرطبة ، وأنين الناي المكتوم ، يرسل في أجواء الليل روعة لا يعرفها الا اولئك الذين يعرفون آلام البشر » .

وأغلب الظن أن المؤلف كتب هذه القصة بعد أن تأثر بقراءة من جنسها جعلته يخرج عن الخط الذي يسير فيه .

تتكون القصة من خمس لوحات : يبدأ الكاتب اللوحة الاولى بهذه المقدمة الفكرية : « من الاجسام جسم يضغط فيكسر ، وجسم يضغط فلا يكسر ، بل يلين فيتحوّر ، وجسم يضغط فلا يكسر ولا يلين فيتحوّر ، بل

ينقى ويتبلور • كذلك النفس ، ضعيفها يكسر ، وخيشها يتحور ، وقيمها ينقى ويتبلور ، ومن النوع الاخير الانبياء والعظماء • وعم وهدان » •
وعم وهدان هو بطل القصة الذي « ضغطه البؤس صغيرا ، ولاحقه شابا ، ولازمه كهلا ، فهو شريد حائر ، يسلمه الصيف اللافح الى الشتاء القارس ، ويطوح به الريف العابس الى الحضر الهازيء ، فيطرده البؤس ويتعقبه الشقاء » •

وهذه اللوحة الاولى تصوير اجمالي لحياة البطل من حيث انه لم يقض عليه البؤس فيموت ، ولم يدفعه الى الانحراف فيكون لصا أو قاطع طريق ، ولكنه تجسم أخيرا في فلسفة « تستخف ما كان وتستخف بما يكون » فهو رجل لا يأسى على ماضيه ولا يأبه بالمستقبل ، وهو يرسل هذه الفلسفة في الفضاء من ثقب نايه أنغاما فرحة حزينة مستسلمة للمكتوب •

واللوحة الثانية تمشي بنا على أرض الواقع « هنالك عند مدرسة الصنائع منطقة صاخبة لاغية ، تكتنفها مصانع الحكومة عن اليمين ، ومصانع الاهالى عن اليسار ، تجاوب فيها المطرقة المطرقة ، وتعالى في جوانبها فقعة الحديد بين دوي الآلات المستمر كأنه همهمة الشياطين والمردة تزوم وتهترس » •

وتشتمل هذه اللوحة على صورة ساخرة من الواقع المصري في ذلك الحين ، اذ كانت الصناعة المصرية متخلفة تنحصر في أشياء تافهة ، اذ يقول لنا بعد ذلك ان تلك المصانع « أهلية » لانها ليست حكومية ، لا لأنها لأهل مصر ، انما هي لاجانب من أمثال « أرمنيان وبترو ودارتانيان » •
والسخرية تقول : ليس كل ما هنالك مصانع أجنبية ، فهناك أيضا مصانع أخرى مصرية للمصريين •• وتفتن اللوحة في رسم « بائع المخلل » وما على عربته من البراميل المرصوفة المملوءة « باللفت الوردي والخيار الزمردي والليمون الكهرماني » ورسم « بائعة المحشى » الوائية من جودة بضاعتها ورخصها ، وثوق « فورد » من سياراته ومحركاته الى حد أنها لا تزيد في مناداتها على أن تقول في هدوء : (الطيب ياغشيم) مع مد ياء

الغشيم مدا رزينا بعيدا عن أية مباحاة أو أنانية » وكذلك باعة القلل والاباريق والازيار والبلايص •• يقول من خلال هذا التصوير وبين سطوره في سخرية ممزوجة بالمرارة : هذه هي الصناعة المصرية !

وهذا المكان الذي ترسمه اللوحة الثانية لا يهمننا في متابعة بطل القصة الا أنه طريق الى مكان آخر في طرف القاهرة ، وهو ريف به مزارع ونخيل وأكواخ وتقوم في بعض أرجائه دور كدور المدن وحوانيتها •

في هذا الريف يعيش « عم وهدان » ومن هنا تبدأ اللوحة الثالثة في الوصف التفصيلي لعم وهدان ونشأته والسبب الذي دفعه الى الهرب من مسقط رأسه ، يصفه بالطريقة الشائعة في كتابة تلك الفترة وهي الوصف في دفعة واحدة ، وهنا يتجلى فنه « الكاريكاتوري » المعبر ، يبدأ بشيء من التكليف في التعبير فيقول في تقديم البطل : « ولست مسئولاً عن كائن من كان يشذ به خياله ، فيحسب ان سيجد هاهنا انسانا له أكثر من رأس واحدة ، وعينين اثنتين وتكونا كأني تكوين بشري مألوف • بل هي رأس أقرب الى الضخامة ، لولا شعرات بيض موزعة في أنحائها لكانت أنموذجا بديعا للصلع ، تتقدمها جبهة عريضة خط فيها الدهر خطوطا صريحة لا يستطيع عم وهدان معها أن ينكر انه ابن الخمسين ، ثم عينان عميقتان محدجتان ، فوقهما حاجب ونصف حاجب ، وتحتهما لحية وشارب ، لا يحسد أحدهما الآخر على شيء ، فلكل منهما نصيبه الوافر من المشيب ، ولكل منهما الحرية المطلقة في أن ينمو حسبما أراد •••• » •

ويحدثنا بعد هذا عن اضطهاد زوجة أبيه اياه وقسوة أبيه عليه ، مما دفعه الى التشرّد •

وها هو ذا عم وهدان في اللوحة الرابعة قد وصل الى هذا الحي الريفي حيث تقبله أهله وأكرموه بعد أن قدمه اليهم امام المسجد الذي عطف عليه لما عرف شأنه • ووجد الرجل الشريد راحته وطمأنينته بين أهل انحي الذين أنزلوه بينهم موفور الرزق والكرامة ، وراح يقضي أوقاته « اما ساهما واجما يفكر في كل شيء وفي لا شيء ، أو عازفا على نايه يشدو

ويتفنن ، واما ناشطا •• يجوس خلال الدور ، يقضي حاجة هذه من تلك ،
ويبلغ رسالة تلك الى هذه ، وقد لا يؤديها لأن الاطفال قد تشبهوا به ، فهو
جالس بينهم يداعبهم كأنه طفل ذو لحية مستعارة » •

أما اللوحة الخامسة فيها « فيلا » صغيرة أنيقة تقوم في تلك الضاحية ،
ويقيم بها « سرى من سراة القاهرة ، بناها منذ عام وأنفق على رياشها
وأثاثها بسخاء ، ولبت فيها مع زوجته ينتظران قدوم الولد الغائب بقلوب
تنتفخ من سرور وفرحة كلما اقترب الميعاد » والولد غائب في باريس حيث
يطلب العلم • ولما أتم دراسته وظفر بالشهادة عاد الى وطنه وأبويه ، عاد
الفتى يحمل العلم في رأسه والهمة في صدره ، ولكنه كان يحمل السل في
أمعائه « وعاش الفتى وأبواه في دارهم الخلوية معذبين من جراء هذا المرض
وفي احدى الليالي لمح المريض نور البدر من خلال الستائر « فاستهى أن
يقوم فينظر نظرة قد تكون الاخيرة وأن يملأ صدره من الهواء العليل
يتزود به الى قبره ، ولكن خارت قواه قبيل النافذة فسقط مغشيا عليه ،
فأسرعا به الى سريريه •• ثم أسرعا ففتحوا النوافذ ، على الهواء ينعشه ، وعلى
ضوء القمر يعيده الى صوابه • فدخل الهواء ودخل النور ، ولكنهما كانا
يحملان أنغام الناي مرسله متتابعة ، تستخف ما كان وتستخف بما سيكون ••
ومرت سحابة على وجه القمر •• » •

نلاحظ ان اللوحتين الثانية والخامسة ضعيفتا الارتباط بالقصة ، مما
يجعل بناءها العام غير متماسك على خلاف بقية القصص في المجموعتين • ولو
صرفنا النظر عن هذا وعن الشاعرية والرومانسية فاننا نجد في هذه القصة
بعض الخصائص لكاتبه طاهر لاشين على وجه عام • نرى السخرية الخفيفة
أو المرح الذي يقف على عتبة السخرية ويحول دون امعائه فيها روح
انساني وميل الى التعاطف • ونرى الاشخاص المستسلمين للقسمة والنصيب ،
ونرى التعبير الادبي الذي يجمع بين « كلاسيكية » اللغة واصالة الكاتب
بحيث يتكون من الأمرين أسلوب شخصي متميز ، وذلك برغم ما فيه من
بعض الأخطاء اللغوية التي نلاحظها في النصوص المتقدمة ، كتأنيث الرأس

مثلا ، وبرغم بعض العبارات التي تستهويه فتبدو متكلفة لا تضيف جديدا من الدلالة • وسنرى الأسلوب في بقية القصص يسلس ويخضع لمقتضيات القص ، وان كان يظل محتفظا بالقوة التعبيرية والتميز الشخصي •

ونرى كذلك في هذه القصة ما نراه يتكرر في كثير من قصص المجموعتين ، من وصف بيوت الفقراء والعمال ، اذ يقول عندما ينتهي من وصف حي مدرسة الصنائع الى الحي الريفي : « ونحن فيها أقرب مانكون الى مستقر البطل ، بينا وبينه قنطرة خشبية طويلة عريضة ملتوية تنحني حتى ليمر تحتها أتلع القطارات جيدا ، وحتى ليشرف المرء فوقها على بيوت العمال ، حقيرة قذرة بأوسع معاني القذارة والحقارة ، متساندة بعضها الى جانب بعض في ذلة ومسكنة جهة الشرق ، تقابلها في الغرب تلال من تراب الفحم متجهة عابسة كأنها رمز حياة التمساء » •

واهتمامه ببيوت الفقراء ، والعمال في أحياء القاهرة الشعبية وقدارتها وتداعي بنيانها وتكدس السكان فيها ، انما هو من تجربته كمهندس تنظيم ، وهو يبت في الوصف من روحه الانساني كأديب مرهف الحس اطلع على تصورات مماثلة في أدب الغرب وخاصة في الأدب الروسي •

ووصف طاهر لاشين بوجه عام وصف مجنح •• ان صحح هذا الوصف ، أعني انه يؤدي أغراضا تعبيرية غير مجرد الوصف كما ترى في وصف بيوت العمال المتقدم ، ففي نعتها بالتساند مع الذلة والمسكنة ايماء الى ما يكون عادة بين هذه الطبقة من التعاون وما كان يفرضه عليهم الواقع السيء من المذلة والمسكنة • ثم انظر الى ما يقابل هذه البيوت من تراب الفحم العابس الذي يعكس حياة التمساء •

ويبدو لي من بدايات طاهر لاشين الموفقة في كتابة القصة انه لم ينشر الا بعد أن وثق من نفسه ، ولعله فعل مثل ما حدثنا به شحاته عبيد في مقدمة مجموعته من أنه كتب قبل القصص التي نشرها قصصا أخرى أعملها • وذلك على عكس كاتب مثل محمود تيمور أسرع بنشر أوليات انتاجه • ومما يتصل بذلك ما قاله أصدقاء طاهر لاشين من أنه كان يترى قبل أن

يكتب ، فلا يبدأ في كتابة القصة الا بعد أن تنضج فكرتها في ذهنه ، ثم يترىث في الكتابة فلا يتم القصة في جلسة واحدة •

يقول الاستاذ حسن محمود - وهو صديق لطاهر لاشين عرف فنه القصصي منذ نشأته - ان طاهر لاشين لم يكن من الكتاب الذين أمضوا فترة طويلة في المران على الكتابة قبل أن يصير لهم جمهور « فان مجهود الاول في القصة ، ولعلها قصة (في قرار الهاوية) كان مجهودا بارزا جعله في طليعة كتابنا القصصيين » •

و « في قرار الهاوية » هي القصة الثانية في المجموعة الاولى « سخرية الناي » وهي قصة جيدة فعلا •

أما قصة « يحكى أن » التي صدر بها المجموعة الثانية وسماها باسمها ، فهي تمثل ما في معظم قصص الكاتب من الاهتمام بالموضوع الاجتماعي والحرص على صبه في قالب الفني ، والعناية بالتنسيق بينه وبين سائر عناصر القصة ، بحيث يتم التعادل بين كل العناصر ، من رسم الشخصيات والتحليل وحبكة السرد والحوار •

وحتى الآن ما زلنا نلاحظ في قصاصينا جميعا العناية بالهدف الاجتماعي ، في المحاولات الاولى وفي القصص الفنية المتكاملة • واذا نظرنا الى رواد القصة القصيرة نجد العناية بالاصلاح الاجتماعي عندهم ظاهرة بشكل واضح ، كما في قصص محمود تيمور ، وكذلك في قصص الأخوين عيسى وشحاته عبيد مع الاهتمام البالغ بالتحليل ، ولكننا نجد أقل نسيجا عند محمود تيمور الذي يعنى أشد العناية برسم الشخصيات •

الموضوع الرئيسي في قصة « يحكى أن » - كما يبدو من البدء والختام - للذين يحاكي فيهما ابن المقفع في كليله ودمنة - ان الانسان ينبغي عليه أن يتبصر في عواقب الامور قبل أن يأخذ بأوائها • على أن الموضوع المقصود هو ما يحتوي عليه هذا الاطار الكلي مما كان يسود المجتمع اذ ذاك من الرغبة والتطلع الى فوق ، تطلع الطبقة المتوسطة الى ترف الطبقة الغنية وراثتها ، لا لحاجة حقيقية ، والا كانت الطبقة الفقيرة

الكادحة أولى بذلك ، على حين نراها قانعة راضية بما قسم لها من البؤس
وشظف العيش ، انما كان التطلع من الموظفين وأمثالهم الى الانراء عن أي
طريق ، وكان طريق الزواج ممهدا بالنسبة للموظفين ، اذ كانوا مرموقين
محترمين حتى من الطبقة الغنية ، كما نلاحظ ذلك من مثل قول الخاطبة
لمبروك أفندي وهي تعدد صفاته المرغوبة عند أهل العروس : « وأنت سيد
الناس ، شباب وموظف في الميري •• الخ » • وغالبا تكون عواقب هذا
التطلع مثل عاقبة مبروك أفندي ، لأن الطمع – من ناحية الزوج – يعمي
عن التبصر ، والاقبال – من ناحية الزوجة وأهلها – يكون دافعه التستر
وانهاء فترة انتظار العريس والخوف من الفضيحة أو التعنيس •

وفي القصة نظرات جانبية ودلالات اجتماعية أخرى ، مثل انحراف
البنات المصرية في فترة انتقالها من التقاليد القديمة الى الحياة العصرية ،
وانطلاقها في الأخذ بأسباب المدنية الغربية دون أن يكون هناك ما يردعها
أو يوجهها الى السلوك اللائق من تربية منزلية سديدة ، ومن نقد نظام
الخطبات وما يستلزمه من تمويه ومبالغات وعدم الفهم الحقيقي لشخصية
الزوجة أو الزوج •

واذا نظرنا في عناصر القصة الفنية فان أول ما نلاحظه هو التقدم
– بالنسبة للكاتب وأثرابه – في رسم الشخصية ، فهو لا يقدمها لنا دفعة
واحدة ولا عن طريق الوصف المجرد ، انما هو يعرفنا بها على مهل وفي
المواقف المناسبة ، وأبرز ما يصطنعه طاهر لاشين في رسم أشخاص القصة ،
أمران : الاول الاكتفاء باللمحة الدالة عن الاوصاف الكثيرة ، والثاني صب
الصفات في سياق خبري ، يقدم « نعمات » المدللة الكسول اللعوب ذات
المغامرات المريبة المنتشية بسهرة الامس ، فلا يذكر شيئا من هذه الاوصاف
بل يقول انها « لا تصحو من نومها قبل الساعة التاسعة صباحا ، فاذا ما
استيقظت تئابت وتمطت ، ثم تئابت وتمطت ، وشرعت تنكمش وتنسبط
على هذا الجنب تارة وعلى الآخر تارة اخرى كبسمكة ورقة الميكا التي كنا
– ونحن صغار – نجدها في لفائف الشكولاته ، أو تستوي على ظهرها فتمد

ذراعيها الى مؤخر السرير تعبت بقوائمه الرفيعة على نحو ما تصنع عازفة على قيثارة ، وهكذا حتى يروقها أن تنهض فتنهض ، أو حتى تتبرم والدتها فتضطرها الى النهوض •• على أن نعمات كانت اليوم أكثر استسلاما الى تراخيها وما فيه من حركات وسكنات ، اذ كانت تستمتع بذكرى ليلة الامس ، وتختنى لقاء أمها من أجل ليلة الامس أيضا •

وهو لا يحدثنا عن جمال نعمات بالالوصاف المألوفة • بل يكتفي باستغلال صورتها في « الفستان الديكولتيه » وتأمل مبروك أفندي فيها وافتتانه بها •

وكذلك يصور لنا شخصية مبروك أفندي بما فيها من غفلة وغباء وطمع من خلال مواقف مختلفة في الوظيفة وعلاقته بالرئيس ، وبزملائه وفي المنزل •• الخ •

وكذلك يصنع في تصويره للأم ، وحتى الأب الغائب يعطينا لمحات خاطفة عن ميوله النسائية وبعده عن بيته واهماله لتربية ابنته التي هي في الحقيقة صورة له من حيث البحث عن الجنس الآخر في الخارج •

وتنتشر الفكاهة في قصص طاهر لاشين مستخدمة في الاداء الفني : في رسم الشخصيات وفي اللمحة النافذة وان كانت أحيانا تبلغ درجة التكلف • انه مثلا يصف صوت الام بهذا التعبير الدقيق الظريف « ولما كان صوتها آتئذ بلغ قمة سلمه الموسيقي حتى نبج (لولو) يحتج على أن يجد من كبرى أسياده منافسا له في عوائه •• الخ » • ومثل ذلك يقول في وصف مبروك أفندي بالبله وهو داخل الى رئيسه « يضم سترته الفضفاضة فتضم ، ويحاول أن يعامل شفتيه بالمثل فيأبيان ، فيداري عصيانهما بابتسامة لا يسمح الظرف الحرج باتقانها ، فاذا هي باهتة بلهاء » • ومن التكلف في هذا المجال قوله في وصف الخادمة العجوز « وهي نوبية تمادى الزمن عليها في خدمة البيت حتى بلغ الهرم بتكوينها عامة وبوجهها خاصة حدا يجوز للمرء حياله أن (يموت في جلده) من شدة الخوف أو أن (يموت على نفسه) من شدة الضحك حسب مزاجه الشخصي » ومن مبالغاته الفكاهية في هذه القصة

قوله عن الخاطبة : « وضربت صدرها ضربة لو وقعت على نظيره من غيرها
لاستدعى له أقرب طبيب » •

وقد عنى طاهر لاشين بالاتقان في الاسلوب اللغوي وبالتعمق في التعبير
الفني ، فكون لنفسه بذلك - كما ذكرنا - أسلوبا شخصيا متميزا ، يقوم
على التركيب العربي المتين الخالي مما يكون عادة في أساليب المحاكين
للقدماء من الترادف وايراد الصيغ المحفوظة والاعتماد على رنين الالفاظ مع
الفقر في المضمون ، وهو يجيد الايجاز في موضعه ، ومن بليغ ايجازه
قوله « وتنزل الستارة عن قبة من الزوجة للزوج ، ثم ترتفع - بعد
اتراكت - عن قبة من العشيقة للعشيق » •

وتندمج هذه الخصيصة الاسلوبية كثيرا مع روح الفكاهة كما ترى
في النصوص السابقة • وفكاهة طاهر لاشين قاهرية نابعة من صميم شعب
القاهرة • وهي تعطى لكتابته قيمة تعبيرية ، من حيث تمثيلها لروح وخصائص
أهل هذه المدينة •

والكتاب مع عنايته بالتركيب العربي القوي والسلامة من الاخطاء
- عدا القليل الذي يند عن قلمه - جريء في استعماله الكلمات الدارجة التي
يتراءى له أن اللفظ الفصيح ان وجد لا يحل محلها ، وكذلك الكلمات
الاجنبية الدائرة على اللسان وخاصة في ذلك الوقت •

ومن القصص التي تصور طمع الموظفين والشباب في الاثراء والترف
عن طريق الزواج بامرأة غنية ، قصة « ألو ... » وهي من مجموعة
« يحكى أن » • يدور الحدث في هذه القصة حول موظف تزوج من ابنة
رجل غني طمعا في الثروة ، يريد من صهره « الكرم اما بالمال أو بالموت ،
ولكن ها خمسة أعوام مضت هي خمسة سلاسل متصلة الحلقات من شجار
وشقوة وآلام ••• تورط فيها في الديون من جراء تبذير المرأة المعتزة
بالستين فدانا التي سترتها ، كما أفرط في شرب الخمر طلبا للعزاء ، ولكي
تكتمل البلية ، انها ولدت ثلاث مرات وذهب الوليد ضحية جهلها واهمالها ،
وهذا صهره الفاني ذو المفاصل الصاخبة والقلب اللاغب والمعدة الفاسدة

والشرايين الجامدة يعيش في الارض معيشة لا يموت فيها ولا يحيا ..
ماذا .. أي سجن موحش سيمضي فيه شبابه .. لتسقط الثروة .. ولتحيى
الحرية » .

هكذا كان يحكي يوسف لزملائه في المكتب عقب ليلة سكر فيها وعربد ،
وأقسم أنه لم يعد يطيق أن يرى وجه زوجته .. وطلقتها ..
وموضوعات قصص طاهر لاشين كأوصافه مجنحة .. بمعنى ان
الموضوع الرئيسي له أجنحة .. هي موضوعات جانبية لا يصرفه الاهتمام
بها عن الموضوع الاساسي ان لم يخدمه . وفي هذه القصة يسلط أشعة
مضيئة على حياة الموظفين وأحوالهم في المكاتب ، فالكاتب يبدأ بمهاد للقصة
نرى فيه غرفة بديوان من دواوين الحكومة بها أربعة مكاتب ، على ثلاثة
منها ثلاثة من الموظفين : أنماط مختلفة .. الرئيس ذو الكرسي ، والشاب
« فريد أفندي » المعتر بشروة الوالد ولقب « موظف » والذي يشي ساعده
برشاقة فيرفع كم القميص الحريري عن ساعة من ذهب وسوار من نفس
المعدن ، والموظف الثالث « رجل أزرق المشيب منفوش الحواجب والشوارب
ناشف الحديث والوجه والتكوين » أما الرابع الغائب فهو زوج الغنية بطل
القصة ، يأتي متأخرا متجهما ، ويحكي لزملائه ما كان ، وعندما يقول لهم
« طلقتها » يضرب الرئيس المكتب بيده ضربة يسر لها في نفسه .. لأنها
تشبه ضربات « سعادة المدير » أداء ، ووقعا .. ويقول بالفرنسية « فوز –
آت فو » ويرادفها بالترجمة العربية : « أنت مجنون » . وتنتهي القصة
بحديث تليفوني يعلم منه الزوج الذي طلق زوجته لأن زواجه لم يحقق
أطماعه – يعلم أن صهره مات .. ويضع السماعة في ذهول وهو يقول ...
« تصوروا أن أبوها يموت النهارده .. » ويتمتم الرجل العجوز قائلا :
« تستاهل .. »

وقصة « الكهولة المزهوة » – من مجموعة يحكى أن – تقوم كذلك
على طمع الشباب في أموال الزوجات ، ولكن الكاتب يركز فيها على المرأة
نفسها وطمعها في الشباب .. كانت في الثانية والاربعين وقد مات زوجها ،

من رسم الكاتب لها قوله « وفي الحق انها كانت شابة الجسم ، والجسم كثيرا ما يحتفظ بشبابه الى ما بعد الشباب بكثير .. وهنا غلطة زهرة ، فقد كانت تنظر الى المرأة بعين الماضي فلا تلاحظ ما حل بأجفانها من ذبول الكبر وما غادر نظراتها من بريق الصبا ، ولا تستبين تلك التجددات الدقيقة التي أحاطت بشفتيها • بل كانت ترى محيا نصيرا ريانا بماء الجمال • ومن ثم كانت تتحدى الفتيات وتقلد سذاجتهن وتستبيح ما يبيحه نزقهن ، يطمع في هذه المرأة ، أو في مالها ، شاب من أسرة مجيدة حقا ، ولكنه غوى منذ صغره فلم يفلح في المدارس العدة التي ساقوه اليها ، وشب شريدا عربيدا » ويدد الثروة التي آلت اليه بعد وفاة والده ، واستعان الفتى في احتياله على المرأة بشيخ دجال يعمل بتعاوذه وتمائم على ايلاف القلوب أو تفرقتها حسب الطلب • • استعان به كما استعانت به المرأة قبل الزواج حتى تم • ثم استعان به الزوج بعد الزواج في اتمام عملية الاحتيال التي انتهت ببيعه ضيعتها وهربه منها ، ثم تنتهي القصة بموقف ظريف ، اذ تهتدي الزوجة الكهلة الى الفندق الذي يختفي فيه زوجها الشاب بمصاحبة الشيخ الدجال الذي يتظاهر بمساعدتها ، وعندما تراه هناك تنفجر بالشتائم ، ويقول أحد المشاهدين وهو يظن انه ابنها : « لعنة الله على أبناء هذا الجيل • • مسكينة هذه الام • • » ويقول آخر : « ان من يتبليه الله بولد فكأنه ابتلاه بنقمة والعاذ بالله • • » وتقول الزوجة بدھشة وصوت مبجوح : « ابني ؟؟ » ويقترب منها الفتى هامسا وهو يبتسم : « تسكتي بعد كده والا أصرخ وأقول ان حضرتك زوجتي • • مش والدتي • • خليك عاقله وتعالى تتحاسب جوه • » أما الشيخ فقد وقف على بعد يفتقر عن ضحكة شيطانية ويعبث بأصابعه في لحيته •

وفي هذه القصة وصف رائع للقمر من حيث ربطه بالمشاعر وأحوال النفس ، وهو مثال من عنايته بالصياغة والتعبير الادبي ، يقول الكاتب : « كانت ليلة من تلك الليالي التي يتوانى القمر فيها حتى يهجع كل خلي ، فلا يطلع الا على شجى يستجديه ، أو شاعر يستوحيه ، أو عشيقين أبى

الغرام أن يكونا من النوم ، وكان كامل وزهرة من الصنف الاخير « وهو يهيم بهذا الموقف الشعري لما يريده الشاب من الاحتيال على المرأة ، يقول عقب ذلك : « وفيما هما عند نافذة الغرفة ، والفتى باسط ذراعه قدر مستطاعه على خصر زوجته يناجيها ، وفمه على قيد من اذنها - همس اليها بحديث حلو فحواه أن وجود أرضها الى جانب أرض آل زوجها الاسبق مصدر النزاع ، والأهم من ذلك أن اتصالها - على أي صورة - يا آل الزوج الفقيد يثير غيرته ويؤلم عواطفه » .

وكثيرا ما نرى في قصص طاهر لاشين صورة الموظف الحكومي : رجلا يجتمع له الثالث المفسد : الشباب والفراغ والجدة ، وقد كان مرتب الموظف يحقق له بعض الترف لارتفاع القيمة النقدية ورخص المعيشة في تلك الحقبة بالاضافة الى غنى الاب او الابن ، او الى ما يورث عنهما ، فالموظف غالبا من الطبقة المتوسطة الغنية بعض الشيء التي استطاعت ان تعلم ابناءها في المدارس . ومن تمام الصورة الاخذ بمفاسد المدينة الغربية ومحاكاة الاجانب الغربيين والتحلى بنطق عبارات من لغاتهم كما رأينا في قصة « ألو ... »

ومن القصص التي يجنى فيها الرجل على زوجته فيسيهما العذاب ، ويحرمها الضروري من القوت ، فيكون ذلك داعيا الى سقوطها ، قصة « في قرار الهاوية » - من مجموعة سخرية الناي - وهي من اوائل ما كتبه طاهر لاشين . تصور رجلا سكيرا سلبه الادمان على الخمر كل ما في الانسان من نوازع الرحمة والانسانية ، يبدأها بوصف ليلة باردة من ليالي الشتاء التي يقبع فيها الناس في بيوتهم ، لا يسمعون في الخارج الا « طب .. طب .. » . وقع اقدام احد السابلة يكافح طريقه وسط الطين المتراكم ، والبرك المبعثرة ، التي خلفها مطر الليلة الماضية .. او - طبق - وقع حوافر جواد يعدو في الشارع العمومي « ويذكرنا هذا وما في الوصف من « ثلج نائر في الهواء » بجو قصص تشيكوف ، وحكاية الاصوات تتكرر في قصص كاتبنا « لاشين » - في هذه الليلة يعود السكير الى بيته متأخرا ، ويبحث بابتنه « التي لم تتخط العاشرة الا منذ اشهر » الى الخمار ومعها زجاجة ليملاًها

من « الملى يشربه ابويه » • ويضرب الرجل زوجته وابنته ضربا قاسيا ،
فتهرع اليهم جارتهم « ام سيد » - وقد عرفناها فى سياق القصة مربية
السلوك يتحرز الناس المستقيمين من دخولها بيوتهم ، وتأخذها لتبيت عندها
ومنذ هذه الليلة أخذ التغيير يدب فى كيان الزوجة ، وفى جسمانها ، وفى
تفكيرها •• وتدرجت بها أم سيد من غرفة السطوح الى حيث جلست على
كرسي قديم من القش الى جانب منزل مهديم ليس فى دهليزه سوى (كنية)
من الخشب باليةعليهامصباح مختنق الضوء ، وقطعة صغيرة من مرآة • •
هنالك جلست ، ما يستر ثوبها هزالها ، ولا تموه الاصابع ما ارتسم على
وجهها من هرم وألم •

ومن هذه القصص الاجتماعية التى يجنى فيها الرجل على المرأة ويدفعها
بغروره وبجهله الى السقوط قصة « بيت الطاعة » - من مجموعة سخرية
النأى - ولعلها أول عمل قصصى فنى يعالج هذه المشكلة الاجتماعية التى لا
تزال قائمة الى الان •

ولا اذهب مذهب الاستاذ يحيى حقي فى قوله عن هذه القصة ومثيلاتها
من قصص طاهر لاشين : « وكان الكاتب وقع فريسة سهلة لارهاب الفكرة
القائلة بان الادب مرآة للمجتمع ، ورسالته ، فكلف نفسه عمدا ان يفرد
قصة لعلاج كل عيب من عيوبنا الاجتماعية ، فهذه قصة عن « بيت الطاعة »
وقصة عن «تعدد الزوجات » وقصة عن « الزواج بالاجنيات وجنايته على
الاولاد » وقصة عن « البخل » واخرى عن « اولياء الله الزائفين وخطرهم » •
لذلك لم تسلم هذه القصص من الخطب المنبرية والمهجة الخطابية ونغمة
الوعظ والارشاد ، كما لم تسلم من استطراد والزيادات التى لا طائل تحتها ،
فصاحبها هذا القصد الى العظة بشئ من التكلف •

فلست أرى فكرة ان فكرة « الادب مرآة للمجتمع ، ورسالته » ذات
ارهاب ، وقد رأينا نهضتنا القصصية كلها تقوم عليها ، ولا أرى ان الكاتب
وقع فريسة لها ، وقد يكون فعلا - كما قال الاستاذ يحيى - فى بعض
القصص ما يشبه الخطابة والوعظ ، ولكنه قليل جدا ، لا ينبغي ان يطنى -

في تقييم هذه القصص - على الاجادة الفنية والقدرة على اداء الرسالة من خلال الاحداث والتجسيم والتصوير ، وهي الغاية التي يبلغها كل اديب عظيم . اما « الاستطرادات والزيادات التي لا طائل تحتها » فهي حقا منتشرة في قصص لاشين، سواء في مجموعة « سخرية الناي » او « يحكى ان » وان كان الاستاذ حقي قد ذكرها في الكلام على « سخرية الناي » فقط . وقد اشرت اليها في بعض ما تقدم .

وفي مجموعة « يحكى أن » قصة عن الريف عنوانها « حديث القرية » عدها الاستاذ « يحيى حقي » خير مثال لنضج موهبة طاهر لاشين ، وهي قصة جيدة تهدف الى تصوير حال القرية المصرية وما يعيش فيه اهلها من فقر وما هم عليه من جهل ، والى ان الطريق الى تخلصهم مما هم فيه هي ان يتسلحوا بالارادة والعمل ، وان يشعروا بوجودهم ويصروا على تحقيق هذا الوجود . ولو ذهبنا مذهب الامتاذ حقي لقلنا انه أفرد هنا قصة لسوء حال الفلاح ، ولا شك ان الامتاذ عندما رأى جودة القصة لم يسعه الا ان يعطيها حقها من التقييم الصحيح ، اذ قال عن الكاتب فيها : « انه استطاع بمهارة فائقة واحساس مرهف ونعمة مكبوته ان يقدم لنا في قصة صغيرة جدا صورة كاملة لمعيشة واحساس مرهف ونعمة مكبوته ان يقدم لنا في قصة صغيرة جدا صورة كاملة لمعيشة الفلاحين المادية والعقلية والروحية لا اظن انها تزول سريعا من النفس بعد القراءة » .

يقول الراوي في القصة انه ذهب مع صديق له الى قرية الصديق، ومن أول الامر يستولي الكاتب على ناصية موضوعه فيوجه الطبيعة مع شعور الاسى للفلاحين ، واذا كنا قد رأينا عيسى عبيد في قصة « مأساة قروية » يدخل على القصة بمقدمة عن جماعة الطبيعة في الريف فنحن هنا نرى لاشين يقول : « ... وثم لقينا نضرة وسرورا ، ولكن تلك النضرة التي تفتن ابن المدينة في لانهاية الريف ، وذلك السرور الذي يغمر كيانه ووجدانه حين يرى الطبيعة تهلل له ايان ولى وجهه ، كانا مشوبين عندى بالمرئية للفلاحين انصاف العرايا وهم مكبون على الارض يعملون فيها الفؤوس او المناجل

مكدودين يتصبون عرقاً • • » الى آخر ما وصفه من سوء حال القرية وبؤس أهلها •

وهو وعيسى عبيد كتباً عن الريف وهما من أهل المدينة ، ولكن لاشين لم يورط نفسه فيما ورط عيسى نفسه فيه من التسلل الى داخل نفوس القرويين والتعرض لدقائق في البيئة الريفية لا يعرفها الا ابن القرية ، بل كتب من رأوية الزائر المشاهد المستمع ، ولم يعرض لداخل النفس وما يضطرب فيها من المشاعر الا بالنسبة اليه او الى الراوي • ومما يذكر في هذا الصدد ان هيكلم في « زينب » كتب عن الريف كتابة مختلفة عن هذين الكاتبين • حقاً انه من أبناء القرية ، ولكنه من أبناء الملاك الكبار فيها ، لهذا كتب من زاوية ابن الاعيان الذي لا يشارك الكادحين آلامهم بعمق كما يشعرون بها ، يضاف الى هذا اتجاهه الرومانسي الذي وجهه الى كتابه « اللوحات » الكبيرة الواسعة عن جمال الريف دون ان يمزج ذلك بمشاعر الابطال او مجرى الوقائع •

ولطاهر لاشين قصص أخرى غير هذه القصص التي يبت فيها ما يرمى اليه من الاغراض الاجتماعية ، قصص تغلب عليها الفكاهة ولا تكاد تجد فيها غير المتعة الفنية والجو المرح ، والكاتب مجبول على هذه الروح يثبها حتى في قصصه ذات الاهداف ، طبعي اذن ان تسترعي انتباهه بعض المواقف او الشخصيات التي يعرضها لطرافتها او يعبر عن تفاعله المرح معها • منها قصة « الشيخ محمد الياماني » في مجموعة - يحكي ان - وهو دجال يدعى انه من اهل الباطن • وقد جاء الى الراوي يطلب منه ان يمد يد المساعدة الى جيوش اهل الباطن • • وقال له الراوي في النهاية وهو يعدد الاوصاف التي خلعتها الدجال على نفسه « يا معالي وزير الاشراف سابقاً • • يا سعادة سفير الخلافة الاحمدية حالاً • • يا حضرة المحترم كاتم اسرار اهل الباطن الا من استثنى : الله يحسن عليك • • » •

وهناك نوع آخر تختفي فيه الفكاهة تماماً ، اذ لا موضع لها فيه ، هو قصص تقوم على مأس مفعجة منها قصة « القدر » في مجموعة - يحكي ان -

وهي قصة شاب عنيت أمه بتربيته وتعليمه حتى تخرج وصار مدرسا مثقفا ،
ثم يكشف ان أمه كانت تفرط في عفافها لكي توفر له تلك التربية •• ويصور
الكاتب صراع الابن بين احتقار الأم والصفح عن زلتها القديمة ، واخيراً
ينتهى هذا الصراع بقوله لها وهي في الاحتضار : « أماه •• أماه •• ما
بالك ؟ •• لا شيء •• انك امرأة ماجدة ، أماه •• انك غالبت القدر القاسي
فأنقذتنا وتحطمت •• انت شريفة •• كبيرة النفس يا أمي •• قومي سامحيني
واغفري للقدر •• »

وفكرة الغفران للمرأة البغي وتعليل خطيئتها تعليلاً يعيد إليها اعتبارها
واسناد المشاعر الانسانية إليها برغم سقوطها ، فكرة اجنبية دخيلة على جونا •
هذا ولجو القصة (القدر) كله نرجح انها مقتبسة او على الاقل تأثر الكاتب
فيها بقصة اجنبية • وثمة قصص أخرى نحس هذا الجو الاجنبي فيها ، منها
في مجموعة « سخرية الناي » قصة « الوطواط » على انه يصرح في قصة
بهذه المجموعة عنوانها « الانفجار » يصرح في آخرها بهذه الملاحظة : « هذه
القصة مقتبسة من قصة للروائي الروسي الكبير تشيكوف » •

وقصة تشيكوف المقتبس منها ، ترجمها محمد السباعي بعنوان « زوبعة
منزلية » وهي ضمن مجموعة القصص التي جمعها يوسف السباعي من
مترجمات والده ، ونشرها في كتاب باسم « مائة قصة » • وقد سار لاشين مع
تشيكوف خطوة خطوة في القصة ، وان كان قد اعطاها جوا مصريا خالصا
لا شائبة فيه ، ومن تغييره بها انه جعل الاب البخيل الذي يقسو على ولده
تاجرا في خان الخليلي ، وهو في قصة تشيكوف « مزارع بسيط » وقد ثار
الابن على أبيه ثورة عنيفة كانهجار للمعاملة القاسية ، كان الابن الروسي
طالباً في موسكو ، يريد نقوداً ليعود الى جامعته وليشتري بعض الملابس ،
ريشاً يتيسر له هناك ان يعاود اعطاء الدروس الخاصة ، اما الابن المصري
فهو يريد مصاريف المدرسة وملابس لائقة يظهر بها امام زملائه في المدرسة
ويلين الاب في القصتين اذ تعود اليه عاطفة الابوة في النهاية ، حيث يقول
الاب الروسي لابنه : « وداعاً يا بني ، النقود على مائدة الطعام » ويقول الاب

المصري : « تلاقي المصاريف وثمان الكسوة على التريزة المدورة » •
وفي مجموعة « يحكى ان » من القصص التي يشبه جوها جو القصص
الغربية قصة « الشبح المائل في المرأة » وهي قصة طالب يقيم وحده في
غرفة بمنزل قديم ، ويسكن قبالة رجل غامض استرعى نظره ، وكان يقابله
مصادفة فلا يعبأ الرجل به ، وازداد فضول الطالب نحو الرجل ، وتعهد
أن يلقاه ويتحدث اليه ، وتحدث اليه مرة عن قصة فيلم رآه في السينما
تتضمن أن شابا ارتكب جريمة قتل أورثته الخبال حتى صار كلما نظر
الى المرأة لم يبصر صورته بل يبصر خيال القتل ، وذات يوم تقدم الى
المرأة عمدا ، فلما ظهر له الشبح أطلق عليه مسدسه ، فلم يتحطم غير
الزجاج ، وعلى أثر ذلك جن الفتى جنونا مطبقا •

ولحظ الطالب اهتمام الرجل الغامض بهذه القصة ولحظ كذلك أن
شخصيته بدلت بعد هذا الحديث فأصبح يتربص للقاءه بعد ان كان يتجنبه ،
ويعاود الحديث معه والمناقشة في القصة •• والطالب يلحظ ما طرأ عليه من
اضطراب وخبال ، حتى استيقظ ذات ليلة على طرق عنيف على باب غرفته ،
فأطل من ثقب الباب فإذا هو يرى الرجل يدخل مسكنه وهو يهمهم كالحموم
ثم سمع صوتا عظيما لزجاج يتهشم أعقبته صرخة هائلة ، فاستيقظ اهل
المنزل وسارعوا في هلع يتساءلون ، واذا الرجل قد حطم مرآته وقذف بنفسه
من النافذة • وفي القصة تصوير وتحليل نفسية المجرم عندما يستيقظ
ضميره ، ويلاحقه الندم • وجو المنزل وغرفة وسكانه تشبه جو قصة
« المساكين » لمكسيم جوركي •

وقصة « الشاويش بغدادى » في مجموعة - يحكى ان - تشبه قصة
« كلب الجنرال » لتشيكوف ، في كل منهما الشرطي الذي يتقلب بين
وجهة نظر واخرى في الحادث الذي يقع أمامه حسب ما تمليه عليه اغراضه •
وفيها تصوير رائع لشخصية الشرطي المصري في ذلك الوقت •

لم تقدر قصص طاهر لاشين عند ظهورها حق قدرها ، ويعجب
الدكتور حسين فوزي في مقدمة « النقاب الطائر » من ان تمر قصص

سخرية الناي ويحكى ان دون ان يهتم بها رجال الادب والنقد ، ويعلل ذلك بحرص الكاتب على اظهار صورة البيئة المحلية بطريقة الادب الواقعي مع الاتجاه نحو الاغراق الكاريكاتوري •

والذي لحظناه أن رجال الادب والنقد في تلك الفترة من حياتنا الادبية لم ينظروا باهتمام الى الفن القصصي عامة ، ولو ضح ما ذكره الدكتور حسين فوزي لرأينا اهتماما بغير طاهر لاشين • ونحمد الله الآن على أن صرنا الى حال غير الحال ، وان كنا نأسف لوفاة محمود طاهر لاشين قبل أن يشعر بالتقدير الذي كان جديرا به كرائد قصص عظيم •

مُحَمَّدُ تَيْمُور

رَأْسُ الْفَصَّةِ الْقَصِيرَةِ

توفي محمد تيمور في فبراير سنة ١٩٢١ بعد حياة قصيرة ، اذ كان في التاسعة والعشرين من عمره . ولكنها كانت حياة عريضة كتب فيها ألوانا من الادب ، كان رائدا في بعضها ، ومقتفيا أثر من سبقه في بعضها الآخر . ولكنه كان فيها جميعا ذا أصالة وصاحب تجديد .

نظم الشعر ، وألف المسرحيات والقصص القصيرة ، وكتب النقد المسرحي ومقالات في الاجتماع والفن والادب ، واشتغل بالصحافة حيناً ، وبالتمثيل قليلاً ، وكان في كليهما هاوياً لا تدفعه الى الاحتراف حاجة معيشية .

كان في الشعر والنقد والصحافة والتمثيل كسائر معاصريه من الشعراء والنقاد والصحفيين ، وان كان بدعا في التمثيل من حيث مخالفته لاعتبارات طبقته الارستقراطية بنزوله الى خشبة المسرح .

ولكن المحقق انه كان رائدا في القصة القصيرة العربية الفنية ، بل كان هو رائدها الاول ، وكان كذلك رائدا في التأليف المسرحي .

ومع ذلك لم تأخذ منه كتابة القصة القصيرة الا بعض الجهد والعناية والوقت ، الى جانب اهتماماته الاخرى في الادب والفن .

وقد فعل كل ذلك في سنوات معدودة لم يمهلها القدر بعدها ، اذ توفي في التاسعة والعشرين من عمره . ترك ديوانا من الشعر ، ومجموعة من القصص القصيرة ومجموعة من المقالات في النقد والاجتماع ، وثلاث مسرحيات كبيرة مؤلفة ، وقصة طويلة لم يتم كتابتها ، ومسرحية مقتبسة

مصرة وهي « العشرة الطيبة » •

جمع شقيقه الاصغر « محمود تيمور » كل هذا الانتاج ونشره بعد وفاة صاحبه في ثلاثة مجلدات كبيرة الحجم بعنوان « مؤلفات محمد تيمور » وكان هذا الانتاج - ما عدا المسرحيات والقصة الطويلة - قد نشر في جريدة « السفور » في الفترات التي كتب فيها •

نشأ محمود تيمور في بيئة أسرية تجمع بين أمرين كان اجتماعهما غريبا في مثل هذه البيئة ، الامر الاول الغنى والارستقراطية ، والثاني العلم والادب على الطريقة العربية الماثورة • كان والده « أحمد تيمور » قد كرس حياته لخدمة اللغة العربية ومعارفها وفنونها ، وكان يتردد على مجلسه بعض اعلام الادب والفكر ، وكانت عمته «عائشة التيمورية» شاعرة مشهورة • وفي المقدمة التي كتبها الاستاذ محمود تيمور لمؤلفات شقيقه ، يقسم حياة الفقيه الى ثلاثة أطوار ، اما حياته الاولى في مصر فقد تكونت فيها مواهبه ونمت ، وساعدها على هذا النمو البيئة المنزلية • وأما حياته في أوروبا ففيها تفتحت عيناه للجديد النافع وتشربت نفسه بالديمقراطية العالية والمساواة وامتألاً قلبه بالمطامع والامال - آمال الهدم والبناء ، هدم القديم الرث من المذاهب ، اجتماعية كانت أو أدبية ، وبناء الصالح النافع من الانظمة والمذاهب الجديدة • وطوره الاخير كان طور العمل ، ففيه ظهرت كتاباته ورواياته •

تأثر في الطور الاول بوالده ومن كان يحضر مجالسه من الادباء والعلماء ، فكان يطالع كتب الادب العربي ودواوين الشعراء وحفظ معلقات امرئ القيس وقصائد اخرى اختارها له الوالد ، وكان ينظم الشعر وهو طالب في المدرسة الثانوية ، ويكتب مقالات نشرت في جريدة «المؤيد» ، وتعلق بالتمثيل فكان يتردد على فرقة الشيخ سلامة حجازي ، وكون فرقة تمثيلية بالمنزل وألف لها ومثل الدور الاول فيها •

ويتمثل الطور الثاني في الفترة التي قضاها باوروبا ، فبعد أن أتم التعليم الثانوي بمصر سافر الى برلين ليتعلم الطب ، ولكنه بعد شهرين انتقل منها

الى باريس ليتعلم القانون ، ولم يكن في أعماق نفسه يريد أن يتعلم الطب أو القانون ، كان كل قلبه معلقا بالادب ، ومكث في فرنسا ثلاث سنين وجه كل همه فيها الى قراءة الادب الفرنسي ومتابعة التمثيل هناك ، ولم يتم دراسة القانون اذ أنه لما عاد الى مصر سنة ١٩١٤ ليقتضي أجازته السنوية أوقفت الحرب العظمى طريق السفر فلم يستطع الرجوع الى فرنسا .

كانت المدة التي قضاها في فرنسا المحول الذي حول اتجاهه في الادب، وقلب أفكاره ، وتشبع برغبة شديدة في اصلاح الادب والمسرح المصري وكانت أهم فكرة اختمرت برأسه وما زالت تكبر وتوسع هي فكرة تمصير الادب ، أي أن تكون ذات صبغة مصرية وألوان محلية بحتة .

وكان الطور الثالث من حياة محمد تيمور هو السنوات القليلة التي قضاها بمصر بعد عودته من أوروبا ، وهو طور النضج والانتاج . توافرت في هذا الطور الثلاثة المشهورة : الشباب والفراغ والجدة . وأقصد بالفراغ عدم انشغاله بالدراسة التي يتبغي منها الحصول على الشهادات ، وقد لحق في هذه الفترة بمدرسة الزراعة العليا ، ولكنه عدل عنها اذ لم توافق دراسة علومها مزاجه الجانح الى الادب والفن .

وكان ثلوث الشباب والفراغ والجدة هنا مدعاة الى الجد والانتاج في المجال الذي ملك كل مشاعره منذ الصغر . أمدد الشباب بحماسة عجيبة نحو الادب والفن ، وتوافر له الوقت - على قصر المدة التي اختصرها الموت - ففترغ للكتابة ، ولم تضطره ضرورة عيش الى الاحتراف ومعاناة بؤس الادباء والقنانين في ذلك الزمان . وهكذا انعكس أثر الثلوث المشهور بالافساد ، فأخرج لنا هذا الرائد الخالد .

كان قد اتجه بكل مشاعره في وقت من الاوقات الى المسرح تمثيلا وتأليفا ، ولكن حدث شيء جعله يتجه الى كتابة القصص القصيرة . ذلك أنه عين أمينا للسلطان حسين ، وكان ذلك عقب أن رآه السلطان يقبوم بدوره في مسرحية « عزة بنت الخليفة » لابراهيم رمزي على مسرح الاوبرا .

قضت عليه رسميات هذه الوظيفة ان يترك المسرح ، فوجه طاقته الى الكتابة ، وكان مما كُتب في ذلك الحين مجموعة قصصه التي أطلق عليها اسم « ما تراه العيون » •

نشأ في قصر والده بدر ب سعادة في حي الحمزاوي بالقاهرة ، ولكن أسوار القصر لم تمنعه من الاختلاط بأبناء الحي الفقراء ، وكان يتردد على الضيعة فلا يعيش فيها عيش أبناء الذوات مترفعا على الفلاحين ، بل كان يختلط بهم ويصادقهم ، مؤتسيا في هذا وذاك بوالده الذي يقرب اليه بعض أهل الادب والعلم من الفقراء ، ويفسح لهم في مجالسه •

ولما كان في أوروبا لم يغمس في الشهوات والمتع الحسية ، اذ انصرف الى الادب والفن المسرحي ، وجذبه ما طالع من التعبير عن الانسان العادي والتعاطف معه • وهاله الفارق بين الحياة الاجتماعية والثقافية هنا وهناك • ذهب ببذرة ديمقراطية نمت هناك نموا فكريا ، فملأت نفسه بالشاعر والافكار الاصلاحية ، وحفزته على الثورة الادبية •

تملكته حمى الفن ممتزجة بحمى الاصلاح ، وشعر بمشكلة الاب في بلاده شعورا قويا ، كانت المشكلة في نظره - وكما هي في الواقع - أن الادب لا يعبر عن البيئة المصرية ، كان الادباء فريقين : فريق يقلد القدماء في جزالة الاسلوب واستنفاد الطاقة بالعناية به وترصيعه بالمحسنات ، وفريق يجري لاهنا وراء الغرب ولا يكاد يفعل غير الترجمة • وكان يبحث في أدب هؤلاء واولئك عن الشخصية المصرية فلا يجدها •

وجدها فقط في عمليين كبيرين ، هما « حديث عيسى بن هشام » للمؤيدحي ، ورواية « زينب » لهيكل • وجد الشخصية المصرية تحاول الظهور في هذين العملين الادبيين فجدا في أثرهما يواصل البحث ، ثم عبر عنها في أعماله الادبية المختلفة على نحو واقعي مختلف عن سبقه ، اخذاه فيه من أتى بعده ، فكان من الرواد السابقين •

الرابعُ القصصِي شحاته عبيد

رأيت « اسمه » فقط في كتب حاولت أن تؤرخ للقصة المصرية الحديثة • وسألت عنه بعض لداته المشتغلين بالفن القصصي ، فلم اظفر بغير « اسمه » وبأن له مجموعة قصص قصيرة •

حتى الصحف التي رحلت اليها في مخازن دار الكتب بالقلعة ، والتي كانت تصدر في الفترة التي كان يكتب فيها وما بعدها ، لم اعثر فيها على أي شيء عنه ولو اسمه ••

شحاته عبيد ياناس •• أحد رواد القصة في مصر •• الا يعرف احد عنه شيئا غير مجرد الاسم •• وغير أنه أخو عيسى عبيد !•

أما عيسى فقد انصفه يحيى حقي بفصل في كتابه الصغير الحجم الكبير القيمة « فجر القصة المصرية » وقد جاء في هذا الفصل أن عيسى له أخ كان « يكتب القصص ايضا اسمه شحاته عبيد » •

واخيرا قال الاستاذ يحيى حقي :

— أما عيسى فقد مات ، واما شحاته فلا يزال حيا •
قلت بلهفة :

— أين أجده ؟

— في محل قماش بشارع قصر النيل ••

— الشارع كبير ، فأين هو منه ؟

— أسأل عنه في كل محل قماش في الشارع •• وسلم لي عليه ••

لم أجد أمامي غير أن أمسك شارع قصر النيل بالقاهرة من أوله •• وأنا أقول في نفسي : هذا هو أول الخيط ••

ورحت أسأل .. عسى الذي جهلته الحياة الادبية ان يكون علما في
عالم التجارة والاقمشة .. ولكنني وجدته في موقف المستجوب الثقيل
الذي يعطل البائع والجالس على « الكيس » دون فائدة منه ، فما هو بالشارى
ولا حتى بالمتفرج على البضاعة ..

وأخيرا حسبت انني اهتديت الى أول الخيط المشود .. اذ قال لي
الرجل الواقف في مدخل محل من محال الاقمشة :

— من أنت ؟ وماذا تريد منه ؟

لمحت في أسئلته انها من نوع آخر .. وان كانت هي أيضا ضائقة
بهذا الذي لا نفع فيه للمحل ..

وكانت نتيجة الاسئلة والاجوبة أن شحاته عييد توفي منذ سنتين ..
وكان يدير هذا المحل ، وانه لا أولاد ولا اقارب له ، ولم يترك الا زوجته ،
وهي ست كبيرة في السن لا تعرف شيئا ، وقد سافرت عقب وفاته الى لبنان .
هكذا قال لي الرجل الذي يدير المحل الان مكان «المرحوم» .

أهكذا انتهى احد رواد القصة العربية الحديثة ؟ أبتلعه النسيان ،
لم ينل تقديرا على باكورة انتاجه ، فهجر الادب بعد الجولة الاولى ، أو
على التحقيق هجر الانتاج الادبي . وظل نحو اربعين سنة يعيش في قلب
القاهرة التي ظلت تعج بالنشاط الادبي طيلة هذه المدة دون ان تلتفت
اليه .. هل كان يتابع الحركة الادبية ومدها وجزرها وتطوراتها في هذا
الزمن الذي يعد طويلا في حياة انسان ؟ هل كان يطلع على ما يكتب عن
الواقعية و«مبتدعيها» في مصر .. بعد نحو نصف قرن مما كتب هو
وشقيقه عيسى من قصص ومقدمات لمجموعاتهم يهاجمون فيها الرومانسية
أشد هجوم ويدعون بحماسة وحرارة الى مذهب الحقائق (الريالزم) ؟
هل كان شحاته عييد يقرأ الكتابات الاخيرة التي لا جديد فيها بالنسبة لما
كتبه غير كلمة « الواقعية » بدلا من « مذهب الحقائق » ؟ وماذا كان
شعوره يا ترى ؟ .

كنت أود أن القاه وأعرف منه كل ذلك ، وأعرف على الاقل متى

ولد ، واين ، هو واخوه ، ومتى توفي عيسى ، وماذا كان يعمل .. الخ ،
ولكن .. هل سبقنى الموت اليه ؟

وبحثت في فهارس دار الكتب ، في الكتب الموضوعة عن المؤلفين
ومؤلفاتهم ، فلم اجد لشحاته شيئا ، بل لم أجد له ذكرا أي ذكر ..
ووجدت لعيسى مجموعتين قصصيتين ، احدهما « احسان هانم » وفي الدار
منها نسختان استعرت احدهما ، والثانية « ثريا » وليس في الدار منها
الا نسخة واحدة أخذتها بتصريح خاص من أمين الدار .

ولمحت على المجموعة الاولى عنوان المؤلف في هذه العبارة « يطلب من
المكاتب الشهيرة ومؤلفه بعنوانه بشارع الفجالة عطفة الاكراد نمرة ١ »
وقال لي الاستاذ يحيى حقي : « لا فائدة ، ربما لا تجد العطفة نفسها » .
ولكن التعلق بأوهى الاسباب دفعنى الى شارع الفجالة .

وهناك وجدت عطفة الاكراد ، والمنزل الاول فيها « رقم ١ » .
منزل عتيق عمره - ولا شك - أكثر من الاثنتين والاربعين سنة التي مضت
على ظهور الكتاب الذي جئت ، لا لاطلبه من مؤلفه ، بل لاطلب مؤلفه منه .
وعدت الى الكتاب .. كتاب « ثريا » فرأيت بأخره اعلانا عن كتب
تطلب من « مكتبة الوفد بشارع الفجالة بمصر » بينها الضالة المشودة
« درس مؤلم - مجموعة قصص عصرية لشحاته أفندي عبيد » .

اذا كان خيط حياة شحاته عبيد قد أفلت منى أو من التاريخ ، تاريخ
مصر الادبي الذي نبدأ كتابته ، فهذا خيط آخر لاتناجه ..

امسكت بالكتاب رفيقا به حانيا عليه ، اذ رأيت ورقه الاصفر يكاد
يذوب في يدي (صدر سنة ١٩٢٢) ورأيت أوله مقدمة لمحت فيها كلاما
على « مذهب الحقائق » وحملة على الكتاب الخياليين ، كما رأيت في ختام
المقدمة قوله : « واما قصصنا فهي الحياة العادية البسيطة بما فيها من الام
وامال ، نصوصها وغايتها اتقان تصويرها مع تحليل كل ما يعتمدها من
الصدمات والنزعات ، وغاية ما نؤمل ان تتمكن الاجيال القادمة من معرفتنا
معرفة حقيقية من نفس كتابتنا » .

قال لي صاحب المكتبة وقد رأى ما لا بد قد بدا علي من الفرح بالكتاب الذي أسندته الى صدري باحدى يدي كأنني احتضنه •• ورحت أخرج ثمنه باليد الاخرى • قال الرجل وكأنه يستعيد ذكريات قديمة :

- هذه قصص زمان •• أين منها ما ينشر في هذه الايام ؟ •

- ألا قل لي •• أين شحاته عيد الآن ؟

- هيه •• من يعرف •• لا بد انه مات •

- هل كنت تعرفه ؟

- طبعا •• كانوا تلامذة •• هو واخوه عيسى •• وطبعنا لهم هذه

الكتب على سبيل التشجيع •

ومجموعة « درس مؤلم » هي الكتاب الوحيد الذي نشره شحاته عيد ، وان كان قد اعلن على ظهر الغلاف عن مجموعة اخرى اسمها « الاغلال » قال انها تحت الظهور ووصفها بأنها « مجموعة قصص يبين فيها المؤلف الاغلال المطوقة لاعناق الاسر المصرية بدرس تحليلي حاول أن يتحدى فيه كتاب العرب العصريين » •

ولكن هذه المجموعة لم تصدر •

و « تحدي » كتاب الغرب من مقتضيات الدعوة الى أدب مصري والثورة على الوقوف عند الترجمة والاقباس من الاداب الاجنبية واثبات أن المصريين لا يقلون عن الغربيين في المقدرة القصصية • ومن ذلك قوله في المقدمة :

« قد يزعم البعض أن ليس لدينا من الكتاب من يجاري كتاب الغرب في تأليفهم ، وذلك لا ينكر ، غير أننا رأينا أكثر من واحد من كتاب الناشئة الجديدة الناهضة يترسم خطى كتاب الغرب ويحاول محاولة لو ساعد فيها لضارعهم بعد زمن يسير » •

وكتاب الناشئة الذين يشير اليهم كان منهم في ذلك الوقت عيسى عيد ومحمود تيمور ومحمود طاهر لاشين وابراهيم المصري وحسن محمود وحسين فوزي واحمد خيرى سعيد ويحيى حقي •

وهم رواد الفن القصصي في الادب العربي الحديث منهم رواد بالانتاج ، ومنهم رواد نظريون دعاة ، ومنهم من جمع بين النظرية والتطبيق ، ومنهم من يؤس بعد الشوط الاول ، ومنهم من اختطفه الموت من على غصن الادب قبل أن يأتي أكله كاملا ، ومنهم من دأب وظل يشق الطريق الوعر حتى اليوم وان كان الطريق قد صار اليوم ممهدا مرصوفا •

واذا كانت حياة « شحاته عبيد » قد غامت علينا فاننا نستطيع ان نستشف شيئا منها في كتابته بمجموعته القصصية « درس مؤلم » وهي الكتاب الوحيد الذي نشر له •

الذي يبدو لي - من البيئة والاشخاص الذين يصورهم في قصصه - انه من أصل شامي ، فأكثر اولئك الاشخاص سوريون مسيحيون هاجروا الى مصر وأقاموا بها ، ويغلب أن تكون زوجته لبنانية • اذ عادت بعد وفاته الى لبنان •

هذا ولا بد أنه نشأ بمصر ، ان لم يكن قد ولد بها ، فليس في قصصه أية اشارة الى أماكن سورية أو لبنانية أو فلسطينية • ونجد الروح المصري الصميم في كتابته ، وبعض قصصه تنتهي بنكت مصرية ، ونرى فيها بعض الصور الشعبية •

ونلاحظ في القصص - بشكل ظاهر - مظاهر الوطنية المصرية الصادقة التي اشعلتها ثورة ١٩١٩ حتى لنجد الاهداف الوطنية تطفئ على فنية القصة وتخرج على مقتضيات الاصول القصصية •

ولا شك أن من دلائل نشأته المصرية تحمسه للدعوة الى أدب قومي يصور الشخصية المصرية ويعالج مشكلات المجتمع المصري •

وهو يتحدث في معظم قصصه عن أسرات متوسطة تكافح لكي تحتفظ بمستواها ، وأحيانا تعمل على الوصول الى مستوى أعلى ، وغالبا ما يكون الكفاح في ميدان الاعمال الحرة • ونرى في القصص لونا طريفا من كفاح الطبقة المتوسطة في البيئة المسيحية المتحصنة ، بنات يتعلمن في مدرسة الراهبات ويتقفن فيها بالثقافة الفرنسية ، والاباء والامهات يكدحون ليحققوا

لهن هذه التربية ، ثم نرى البنت تتطلع الى أن يحبها رجل غني ويتزوجها ،
وقد تدوس على مشاعر حب آخر بينها وبين شاب فقير ♦
وهذه البيئة الذي نشأ فيها شحاته عيد بيئة متحررة ، يجري فيها
اختلاط الجنسين ، وقد أتاح له ، كما أتاح لآخيه عيسى عيد فرص
الكتابة عن الحب والعلاقات بين الجنسين التي تنشأ من الاختلاط ، ولم
يتح ذلك لزملائهما من كتاب القصة المصريين في ذلك الزمن ، إذ كان
الحجاب لا يزال سائدا ، ولا يزال كل من الرجل والمرأة في معزل عن
الآخر في سائر طبقات المجتمع المصري ، ماعدا الكادحين والكادحات في
القرى ، ومن هنا استطاع « هيكل » أن يتحدث عن حب قروي بين فتى
وفتاة من أولئك الكادحين المختلطين في الأكوخ والحقول ، وفيما عدا قصص
عيسى وشحاته وهيكل لا نكاد نرى حبا عميقا بين رجل وامرأة في تلك
الفترة ♦

ولذلك كثيرا ما نرى - في قصص شحاته عيد - الحب ينشأ والتقاء
الاحبة يجري في الزيارات الاسرية الاسبوعية ، إذ كان لكل أسرة يوم
في الاسبوع يسمى « يوم المقابلة » يزورها فيه الأقارب والجيران والأصدقاء
رجالا ونساء غير متخرجين ولا متحرجات ، ويجري في اجتماعهم سمر
والعاب وتسلية وموسيقى وغناء ♦

وليس معنى ذلك أن الكاتب انحصر في تلك البيئة ، فقد تناول غيرها
من البيئات والشخصيات ، وانعكست في كتابته ظواهر المجتمع المنفصل
الجنسين ونتائج هذا الانفصال ♦

فالقصة الاولى في المجموعة ، وهي « درس مؤلم » تصور آثار
الانفصال ، إذ نرى فيها عالم الرجال في الحانات وبيوت الساقطات ، ونرى
العالم الآخر عالم الحريم ، مع رجال آخرين ، يلتقي بهم عند « مدام
دي سيريز » الخياطة في الظاهر والقوادة في الخفاء ، والتي لا يشك الداخل
الى منزلها « في أنه مصنع للزبائن الجديدة وهو يبصر أمامه الجراير
والعرايس الخشبية منتصبة ، وأكثر من عشرين صانعة كل واحدة آخذة

في عمل ، ولكن الاخضاء المترددين يعرفون ان الجناح الايمن من المنزل
مخصص لاجتماع الاحباب » •

والدرس المؤلم الذي تعنيه القصة ، هو الذي أخذه « طلعت بك »
اذ ترك زوجته محبوسة في المنزل وراح يصول ويجول مع « الاخوان
الذين لا يعرفون بعضهم الا متى أخذت الشمس في الاصفرار وبدأ الليل
يسدل جناحيه فتقودهم أرجلهم أو اذا شئت عادتهم الى انتاب الاماكن التي
وجدوا فيها من يجاريهم ميولهم » ولكن هذه الحياة لم تدم لطلعت بك ،
اذ تقص علينا القصة كيف عرف أن صديقه « سري بك » - وهو من اولئك
الاخوان - رأى زوجته عند « مدام دى سيريز » وان الخياطة وعدته أن
تبذل جهودها لتوقعها من أجله •• من أجل سري بك •• ولكن الزوج
أسرع قبل أن تقع زوجته •• وقاطع « الشلة » وسافر بزوجه الى الاسكندرية
حيث أقاما هناك •

وفي المجموعة غير ذلك سبع قصص يمثل فيها فن شحاته عبيد في
التحليل والغوص في أعماق النفس وتصوير العلاقات الاجتماعية بفهم
وصدق •

ومن القصص التي تصور بيئة الكاتب في القاهرة قصة « البائنة » وهي
قصة اسرة سورية مكافحة تنحرف في كفاحها نحو المال بطريق غير سليم
من الوجهة الوطنية ، وتنحرف فتاة الاسرة التي تدور عليها القصة نحو
الخطيئة مع ضابط استرالي من قوات الاحتلال البريطاني ، فالاسرة تحمل هم
زواج فتاتها « أيل » لانها فقيرة ليس لديها مال تقدمه « بائنة » أو « دوطه »
للرجل الذي يتقدم لها ، واديل مشبوبة الغريزة تشوف الى رجل تحبه
ويحبها وتتزوج ، وتلتقي بموريس في احدى الزيارات العائلية الاسبوعية
ويتحابان ، ولكن والد موريس يريد أن يزوجه من فتاة غنية ، ولاديل
أخوان موظفان صغيران ، أحدهما عند « عمر افندي » والاخر في محل

« بلاتشي » ودفعهما حب المال الى ترك وظيفتهما وفتح مطعم وحانة ،
« وكان ذلك الوقت موسم الحانات والمطاعم بسبب وجود الجيش الاسترالي
والانجليزي بكثرة » وكسبا مالا كثيرا ، ونزع الجيش الاسترالي الى
الاسكندرية ، فتبعه الاخوان ، ونشأت صداقة بينهما وبين ضابط استرالي ،
زار الضابط الاسرة في منزلها بالاسكندرية ، ونشأت العلاقة بينه وبين
أديل ، وخرجت الفتاة مع الضابط الاجنبي في نزهات على الشاطئ وسارت
معه الى أقصى الشوط •• وعاد الضابط الى بلاده ، ورجعت الاسرة الى
القاهرة ، وسعى اليها والد موريس - طمعا في غناها ، وعاشت أديل وزوجها
موريس ترفرف عليهما السعادة والهناء ، ولكنها كانت تسبح بفكرها احيانا
وهي جالسة بجانب شرفتها فتذكر جيمي (الضابط) ورمل الاسكندرية
فتبتسم ••• » •

وفي هذه القصة دراسة قصصية ناجحة لشخصية اديل وميولها ونوازعها
والوصول بذلك الى النتائج التي وصلت اليها •

وقصة « الصلاة » ذات موضوعين رئيسيين ، ولعل هذا عيب فيها •
الموضوع الاول حالة الاديب الصادق وبؤسه في البيئة التي لا تفهمه ولا
تقدره ، والموضوع الثاني وطني يتعلق بالحركة الوطنية التي قادها سعد
زغلول ، وفي القصة أيضا موضوع آخر ثانوي ، هو اهتمام السيدات
المصريات بالاعمال الخيرية ، الى جانب اشتراكهن في الحركة الوطنية ، وقد
ذكر الكاتب اسماء حقيقية مثل « هدى شعراوي » و « حرم فهمي ويصا » •

وقصة « بين غزالتين » رمزية قال عنها في مقدمة المجموعة : « رب

منتقد يقول بعد قراءة مجموعتي هذه نراك تنعي على الكتاب الخياليين
خيالهم وقد حذوت حذوهم في رواية « بين غزالتين » لانها من النوع الخيالي
الايداليسم ، ولكني أقول انها خيالية يراد بها حقيقة وهي أقرب الى الحقائق
من الخيال ، وقد جئت بها عمدا لادل على أن الخيال في دوائره المحصورة
متى طبقت عليه القواعد العلمية الفنية يكون « سائغا مقبولا » •

مسألة تطبيق « القواعد العلمية الفنية » فيها شيء من المبالغة والتكاثف ، ولعله يقصد أن الخيال متى أريد به التعبير عن واقع او قصد به الى هدف واقعي فهو مقبول في مذهب الحقائق « الواقعية » مادام يسير على منهجه ويتجه اتجاهه •

ومجمل الحكاية أن « حلیم » عرف بحبه المفرط للحيوانات ، وقد ورث مالا وافرا « عن والده الذي كان حاكما متصرفا في البلاد المصرية ، تحت اشراف الدولة العلية ، مندوبا من قبلها ليمثل في بلادنا أنواع ظلمها وعسفها وجورها فجمع ما جمع مستيحا كل الطرق والوسائل حتى داهمه القضاء في نفسه فسلبها »

أشأ حلیم حديقة حيوان خاصة في قصره ، وكان فيها غزالة أولع بها ولعا شديدا ، وآمنت منه الحب فأقبلت عليه تلوذ وتمسح به كلما جاء نحوها ثم رأى في الاسواق غزالة أعجبتة فأشترها وأخذها الى الحديقة ، ثم فوجيء بالتنافر بين الغزالتين وفقر الغزالة القديمة وابتعادها عنه ، واحتار حلیم بين الغزالتين وحزن عليهما عندما رأهما « تعانين من المغيرة والحقد مازاد في هزالهما » •

وتنتهي القصة بالاشارة الخفيفة الى المرموز اليه ، وهو الجمع بين زوجتين ، اذ مرت بخاطر حلیم صديقة محمود الذي كان يشكو اليه همه مما يعانيه من زوجتيه ، وعرف في النهاية خطأ فقال في نفسه : كان الاجدر بي أن اتفنع بواحدة •

ووصف الكاتب لهذه القصة بأنها رواية ربما لان مفهوم الرواية كان لا يزال يشمل القصص بأنواعها من طويلة وقصيرة ومسرحية ، على أن القصة نفسها أشبه في بنائها وحوادثها بالرواية • وهذا ملحوظ في بعض قصص الاخوين عيسى وشحاته ، على خلاف قصص محمد تيمور ، تلميذ موباسان ، الذي كان مفهوم القصة القصيرة واضحا عنده كفن متميز •

وأضعف مافي المجموعة أقصوصة « مبروك يا أم محمد » وهي تقص حكاية مما يتندر به في التنديد بفن الخطابات ، وهي تنتهي بنكته يبدو انها

المقصودة من الحكاية ، فأُم محمد أرمل كبيرة تحن الى الزواج وصفقتها
الخاطبة للاسطى علي بأنها صغيرة وجميلة ، ولكنه تين عند الزفاف حقيقتها،
وسمع النساء يقلن لها « مبروك يا أم محمد » فلما خرجن جميعا من الحجرة
ولم يبق الا هي « اقترب منها بلطف وقدم لها يده قائلا : « مبروك يا أم
محمد » وخرج لا يلوى على شيء » •

وهناك قصة من نوعها ، ولكنها جيدة وهي « الغيرة العمياء » تحكي
قصة امرأة مات زوجها وكانت تحبه وتغار عليه ، فحزنت لموته حزنا شديدا
حتى كان يوم تقدمت فيه الى الشيخ الذي يقرأ سورة كل يوم على روح
المرحوم ، وسألته عن زوجها (محمد بك) أين هو وماذا يعمل ، فأجابها
بأنه في الجنة ينعم بالحدود العين ، فامتقع لونها لشدة غيبتها من الحدود ،
وقالت : « يا ابن الكلب بقي أنا هموت نفسي عليك وانت بتعمل كده ! »
والنكتة هنا نابعة من صميم القصة لانها تصور مدى الغيرة العمياء •

واذا انتقلنا بعد الى الخصائص العامة لشحاته عبيد فأتنا نجده : اولا -
يمائل اخاه عيسى في النزعة التحليلية والبراعة في رسم الشخصيات من
الداخل ، وهما يعتبران سابقين في هذا المضمار ، وقد وقع شحاته فيما وقع
فيه عيسى من ترديد عبارات مثل « محلل نفسي » في مجال التصوير الفني ،
يقول مثلا : « وقد ستر امتلاء وجنتيها واستدارة وجهها من برطمة شفيتها
التيين مارآهما محلل نفسي الا وعرف ما لصاحبتهما من النوازع الاخلاقية » •

وكذلك الافكار المباشرة التي يطل بها من خلال السياق القصصي ،
يقول عن رواية تركها مخطوطة اديب بائس توفى : « رواية عصرية يشرح
فيها فساد بناء العائلة اذا كان قائما على زواج اساسه المادة ، وقد اقتدى
المؤلف فيها بأهل المذهب القائل بان يترك للقارىء جهد معرفة قصد
المؤلف » •

وكاتبنا «شحاته» من أهل هذا المذهب ، ونراه يخرج عليه بهذه
العبارة نفسها •

وهذا وذاك قليل بل نادر في قصص شحاته ، فلم يكثر منه مثل

• ما فعل عيسى •

ثانيا - يمتاز شحاته عبيد بالمرح والدعابة والروح القاهرية الفكهة ، ويتجلى هذا في قصة « درس مؤلم » وفي القصتين اللتين صاغ فيهما نادرتين من نوادر أهل القاهرة كما سبق بيان ذلك •

وتزخر قصص شحاته بأسماء أماكن وملاه في القاهرة والاسكندرية بعضها اختفى والبعض لا يزال قائما •

ثالثا - أسلوبه اللغوي من ألق الاساليب للفن القصصي ، اذ هو متحرر مما يقيد الاساليب القديمة ، وفي الوقت نفسه مكتسب من قراءة النصوص الادبية العربية ، وأخطاؤه اللغوية قليلة بالنسبة لكثير من كتاب القصة في ذلك الزمان •

محمد عبد الحليم عبد الله

نشأته وانعكاسها في أدبه

هذا القصص الذي نما وكبر وصار « محمد عبد الحليم عبد الله » لا يزال حذرا متحفزا كما كان في طفولته ، وان اختلف - بطبيعة الحال - ما يحذر منه وما يتحفز له ، وان اختلف - كذلك - حذره المطمئن الان عن حذره الخائف القلق في الطفولة •

هذا الذي يجلس معي في ركن بحجرة الاستقبال في منزله متدثرا بالروب ، يحذر تيار الهواء الذي يهب من باب الشرفة الشمالية المطلة في سموخ من الطابق الرابع على شارع الروضة بالقاهرة •
أو هذا الذي يجلس الى مكتبه وراء النافذة في حجراته المشمسة بمجمع اللغة العربية في بدلته الكاملة وربطة عنقه المحكمة صيفا وشتاء •
أو هذا الذي يقف في نادي القصة - وقد أحكم « عم حسين » أغلاق النوافذ - قصيرا واعيا متفطنا لكل حركة أو كلمة ، عملاقا في نفوذ صوته وقوة فكره ، متحفزا للمحاجة والصراع في قضايا الادب •

أو هذا الاديب العاكف على الانتاج الادبي في تأن وتجويد الذي يشم رائحة تحامل او هجوم فيما يكتب عنه من نقد فيتحفز ويتوثب ، وقد ينشب بأظافره فيدمى ••

هذا كله - ولستعمل طريقته في التشبيه - انما هو شجرة كبيرة تحمي بورقها العريض أزهارها المتفتحة ، أصلها تلك النبتة الصغيرة الخائفة أن ينقطع عنها الماء أو تطيح بها الاعاصير •

انه الان لا يزال ذلك الطفل الذي تقمصه في روايته « شجرة اللباب »
والذي يصف لنا نفسه فيقول :

« ولعله من حسن حظي ان الله لم يخلقني غنيا ، وأنه كذلك قد منّ علي بسحنة ليست جميلة ولكنها كانت بين الصبيان تعتبر من تلك السحن التي لا تعرف أين الجاذبية من بين أجزائها : أهى في العينين المستديرتين الصافيتين اللتين تشابهان النرجسة الصغيرة ؟ أهى في السمرة الصحيحة السقيمة معا والهادئة المتحفزة معا ؟ أم هي في هذا جميعه ، وبخاصة في الفم الدقيق المطبق في ثقة وحرص وبراءة وخوف ؟ »
وكذلك كان محروما ومدللا معا ، مطمئنا وقلقا في وقت واحد ••
كانت طفولته مجموعة من المتناقضات •• انه ذلك الطفل الذي تراه كثيرا في قصص عبدالحليم يعاني الفقر والحرمان ، ولكنه في الوقت نفسه مغمور بالحنان والعطف من والديه او غيرهما من الاقارب •

* * *

ولد محمد عبدالحليم لابوين فقيرين في قرية بولين التابعة لمركز كوم حمادة في محافظة البحيرة • وكان له أعمام أغنياء • كان يرى والده يكدح وهم لا يكدحون ، ويستمتعون بأشياء لا يستمتع بها ، وكان طفلنا الذكي المتأمل ينظر فيرى أئداده من اولاد اعمامه يلبسون مالا يلبس ويأكلون مالا يأكل ، فيكره الفقر ويشعر بألم الحرمان •

يقول الطفل بطل « شجرة اللباب » : « ان الاقدار تفننت في ايدائه حتى كادت تخلق منه لصا لكثرة ما حرّمته ، أو تخلق منه مجرما لقلة ما حصل عليه من حنان » •

وفي بطل الرواية كثير من صفات الكاتب في طفولته وملامحه ويظهر أن الحنان تعادل مع الحرمان فلم يجعل له أثرا سيئا ، أي أنه لم يخلق من صاحبنا لصا ولا مجرما ، بل خلق منه – بالتعاون مع القيم الفاضلة التي كان عليها الوالدان – رجلا مكافحا حذرا متحفزا لم يعقه عن النجاة انقلاب الزورق ، بل ركبهُ وهو مقلوب • فنجا وان لاقى في سبيل النجاة

هولاً وشدة ، كما يقول في « شجرة اللباب » .

رزقت به والدته بعد أن فقدت قبله ابنها البكر ، وكانت فرحتها عظيمة ، فغمرته بخانها ورعايتها ، وحكت له عن جده لايه وكيف فقد أملاكه ، وعن عمه (ابن عم ابيه) الذي كان رئيساً لمحكمة شرعية وصهراً لمفتي الديار ومالكا لبضع عشرات من الفدادين ودوار وحديقة وفاكهة ، ويسكن في القاهرة بيتاً من البيوت العريقة ، ويركب « الحنطور » . كان البيت كله هدوء وهمس وحنان وأدعية وصلوات ، وكأن الام الحانية الراضية تخشى على قليل الرزق في البيت وتخاف مما ينشب في القرى من حرائق أن يمتد الى بيتهم الوداع الذي يشتمل على قطعة الكبد « محمد » أغلى ما في الحياة ، فقرأ آية الكرسي والمعوذتين ثم تقول :

« علينا سور ، علينا سور ، وحجاب النبي المستور ، من هنا لما بيان

النور » .

كان كل ذلك في البيت ، وكان كثير من الكلام يتردد فيه ، الا كلمة واحدة لم يعرفها ، هي كلمة « أمل » .

كان يقال : محمد يذهب الى الكتاب ليحفظ القرآن ، محمد يذهب الى المدرسة الاولى ليحفظ القرآن ايضاً وليتعلم الى جانبه اشياء أخرى قد تنفع . لم يجاوز الرجاء حدود القرية ، ولكن محمد كان في البيت ، وفي الكتاب وفي مدرسة القرية ، قطاً هادئاً متحفزاً ، يرسل اشعة عينيه المستديرتين النافذتين في الظلام الذي يحيط به ، ويتوثب ، ويتمر . كأنه كان يرى بالهامه الصغير مكانه الآن في قمة من قمم الادب والفن فيحاول أن يتبين طريقه ، ولكنه على أية حال كان يتبين تماماً أنه فقير ومحروم ، ويريد ان يعمل لكي يقضي على الفارق الذي يتعالى به من ينظر اليهم من اقاربه وغيرهم .

ذهب محمد عبدالحليم الى الكتاب ، أو ذهب به اليه ، ولم يمكث به الا خمسة عشر يوماً اذ ضاق فيه بالمكان الواحد ، والمشهد الواحد ، وكان يسمع من الاولاد عن المدرسة ، وجرسها الذي يدق ، والطابور في فئائها ،

والحصص التي تتغير ، والمواد الدراسية المختلفة ، والمدرسين الذي يطلق عليهم لقب « أفندي » ولو كانوا معتمدين ، كان يسمع عن ذلك كله ويشعر مع ذلك بذكائه المتطلع الى تعلم الحساب والجغرافيا والعربي و . . الخ ، فيشتاق الى المدرسة ويضيق بالكتاب ، ويقضي الساعات ويتأمل لحية الفقيه المرسل على صدره ويخطر لها في باله مائة تشبيه .

والتحق بالمدرسة الاولى في قريته « يولين » وعرف فيها بالذكاء والجد والهدوء ، وكان يجلس في الصف الاول بالفصل بحكم قصره وضآلة جسمه ، وكان ينتهز قرب مكانه من المدرسين فيتأملهم ويلاحظ حركاتهم ، حتى كانوا يظنون « سارحا » مشغولا عن الدرس ، فيفاجئهم أحدهم بالسؤال ، فيجد جوابه حاضرا . وحفظ القرآن كله في اثناء دراسته بهذه المدرسة .

ولاول مرة يحاول ان يبعث في البيت اليأس كلمة « أمل » بث أمه رغبته في اللحاق بالمدرسة الابتدائية في كوم حمادة مثل ابن فلان وابن فلان ، وكانت الام تشعر في مرارة بالحاجز المالي بين ولدها وبين المدرسة الابتدائية ، ولكن « الامل » استطاع أن يترأى للوالدين في صورة جميلة ، صورة المهندس الزراعي الذي يلبس القبعة ويجيء الى بيت العمدة فيحترمه ويكرمه ويسير وراءه الخفراء . لماذا لا يذهب محمد الى المدرسة الابتدائية ، وهو ذكي وسينجح كل سنة ثم يلتحق بمدرسة الزراعة المتوسطة ويتخرج منها مهندسا عظيما . والامر يدبر ، وكله يهون .

وراح محمد يحلم ويتخيل نفسه راكبا الحمار والهواء يداعب زر طربوشه وهو عائد من كوم حمادة عصر كل يوم مع اولاده الاغنياء وفي مقدمتهم ابن العمدة .

ولكن أمل الصغير يتحطم وقصور احلامه تنهار ، فيوم ذهب به والده الى مدرسة كوم حمادة الابتدائية وجلس معه في فناء المدرسة انتظارا للكشف الطبي ، اقترب من الوالد رجل لا ينسى محمد سحنه الكريهة ، وسأله :

- هل يحفظ ابنك القرآن ؟ •

- نعم ••

وكيف تلحقه بالمدرسة التي تبعده عن الدين وتجعله يرطن

كالخواجات ؟ •

وتأثر الرجل المتدين بهذا الكلام ورجع بابنه ثم استقر الرأي على أن يلتحق بمدرسة المعلمين الاولى بالقاهرة ، ومكث فيها سنة ثم تقدم لامتحان الدخول بتجهيزية دار العلوم وهو يتمنى أن يرسب فيه • اذ كيف يقضي طالبا تسع سنوات أخرى : خمسا في التجهيزية واربعاً في دار العلوم العالية ؟ ولكنه نجح ودخل • ومما يذكر انه أصيب في هذه الفترة بالبلادة وخمود ذكائه الاول الذي لم يرجع اليه كاملاً الا بعد التخرج بستين ، فكان ينجح في التجهيزية بالنهايات الصغرى أو فوقها بقليل ، وان كان في الدراسة العالية تقدم بعض الشيء • وقد بث ما طرأ عليه من بلادة الذهن في تلك الفترة ، بثه في شخصية بطل شمس الخريف الذي أخفق في دراسته بالمدرسة الثانوية • كما صور الطفل الذكي المتوقد في بطل شجرة اللباب وكان ذكاء هذا وغباء ذاك مقتبسين من نفس المؤلف في مرحلتي الطفولة واليافعة •

وعندما جاء الى القاهرة ليلتحق بمدرسة المعلمين كان في الرابعة عشرة من عمره ، وكان يفارق والدته لأول مرة ، وأية أم يفارقها ؟ لم ينس هذه التجربة القاسية : تجربة الصراع بين فراق أهله الذين يعلم كم يتألمون لفراقه وكم يتكبدون للانفاق عليه في القاهرة وبين أم له البعيدة التي لا يستطيع ان يجعلها بعيدة ، لان الحالة المالية لا تحتمل ان تكون بعيدة • وسكن مع أسرة أحد أقاربه في القاهرة ، وعرف كما علمته أمه كيف يعيش بين الاسرة مؤدباً محبوباً ، كان من وصاياها له الا يحدث ضجيجاً مسموعاً اذا قام لقضاء حاجة بالليل وهم نائمون وأن ينحاز دائماً الى صف الزوجة اذا اختلفت مع زوجها في الرأي واحتكموا اليه ، فان ذلك يجعله قريباً الى قلب الاثنين معا •

قلب لمحمد عبدالحليم : أذكر أن بطل شجرة البلاب حدثت له هذه التجربة • قال :

- هي تجربتي •

- وكنت تفصل الأطباق بعد الأكل وتعمل القهوة والشاي لزائرات صاحبة المنزل المثرثرات ؟

- نعم •••

وترك الأسرة بعد ذلك وسكن مع بعض الطلبة من أمثاله القرويين الذين يطلبون العلم في القاهرة •

كانت معاناته للفقر والحرمان اشد ما كانت في الفترة التي كان فيها طالبا بالقاهرة والتي قضت الظروف ان تطول عما كان مرسوما في البداية ، وقد استمرت هذه الفترة حتى بعد تخرجه وتعيينه في وظيفة بالمجمع اللغوي مرتبها ستة جنيهات في الشهر ، ولم يخرج من الازمة الا بعد ترقيته الى الدرجة السادسة •

وقد أعطى هذه التجربة لبطل رواية « شمس الخريف » عندما جاء الى القاهرة هائما على وجهه يطلب القوت والمأوى ، وصور ذلك تصويرا لم أجد في الكتابة عن الشقاء أشد منه تأثيرا •

وكذلك فعل في رواية « بعد الغروب » اذ صور فيها احساس البطل بالفقر وكفاحه ازاء الاغنياء أروع تصوير •

وكان احساسه بالغربة عن أهله ، مع الحرمان ، يشعره بذلة اليتيم ، وقد استوحى هذا الشعور في رسمه لشخصية بطل شمس الخريف ، وكان يشعر كأنه فقد أمه على نحو ما كتب عن بطل شجرة البلاب •

لخص لي عبدالحليم موقفه من الفقر في ثلاث فقرات : كراهيته للفقر وهو فيه ، وخوفه منه بعد التخلص منه ، ثم حبه للفقراء الذين كان مثلهم •••

عندما بلغ محمد عبدالحليم عبدالله سن الخامسة والعشرين كان قد استقر معيشيا وعاطفيا ، استقر معيشيا بعض الشيء بوظيفته واستقر عاطفيا

بوقوعه في حب كبير صهره واوحى اليه كثيرا من روائع أدبه •
وقبل أن نصل الى هذا الحب الكبير لابد ان نرجع الى تجاربه العاطفية
الغرامية في الطفولة وما بعدها •

كان أول حب له في المدرسة الاولى ، كانت المدرسة مشتركة وان
كانت البنات في فصول مستقلة ، وكان أخوها زميله ، وكان الولد وأخته
يأتیان الى مدرسة بولين من قريتهما المجاورة ، كان محمد عبدالحليم يلاحظ
البت الحلوة وهو مفتون بها ، فعقد صداقة مع أخيها ،
واقضى واجب الصداقة أو بالاحرى دافع الحب أن يخرج معهما
من المدرسة عصر كل يوم ويسير معهما على الطريق الزراعي بين القريتين
حتى يصلوا الى قرية الحبيبة ثم يعود • وكان يوم الجمعة يوم نحس في
حياته •• اذ تعطلت المدرسة فلا يرى الحبيبة ••• وظل على ذلك مكتفيا
بالحديث العام واللعب الصياني حتى غادر القرية الى القاهرة • ولم يعد يعلم
من أمر حبيبته الصغيرة شيئا •

وفي القاهرة ، وخاصة في الزمن الطويل الذي قضاه مشاركا لزملائه
الطلبة في المسكن ، كانت له مغامرات وعلاقات متعددة ، ولكن لم يكن بينهما
علاقة تستغرق عاطفته وتهز كيانه كالتي حدثت له وهو في سن الخامسة
والعشرين • كانت متزوجة ، وبدأت العلاقة روحية عميقة واستمرت كذلك
فترة طويلة ، ولم يدر هو ولا هي كيف امتزج الروح والجسد •• على
نحو ما صور في « من أجل ولدي » بين بطل الرواية والست جليلة ، وانتهت
العلاقة انتهاء يشبه ما حدث بين بطلي الرواية •

وقد قسم عبدالحليم حبيبته - من الناحية الفنية - على شخصيتين في
روايتين ، الاولى « السيدة ف. » في « شمس الخريف » والثانية « الست
جليلة » في « من أجل ولدي » •

وقبل ذلك استوحى من هذه العلاقة حادث قصة « اللقطة » اذ رأى
لقيه في القرية أثناء قضاء احدى الاجازات هناك ، واختتم المنظر وملابساته
في نفسه حتى جعل يفكر هكذا :

أليس من الممكن أن تكون نتيجة علاقته لقيطة مثل هذه ؟
وعذبه هذا التفكير أو الشعور طويلا ، ثم صبه في رواية « لقيطة » •
ويلاحظ في روايات محمد عبدالحليم عبدالله أن الشك في النساء
يسود كثيرا في علاقات الحب • وكان أصل هذا الشك بذرة صغيرة غرست
في نفسه وهو طفل ، ثم غذتها في أول شبابه حوادث ومشاعر •
كان عندهم بالقرية وهو صغير خادمة كبيرة جميلة ، وكان يخرج
معهما أحيانا فيراها تسير بدلال واغراء ، والرجال يغازلونها فتتشي بغزلهم ،
ثم رآها في مناظر تدل على استجابتها للغزل غير البريء ••
ولم يذهب ذلك من نفسه ، حتى كان في القاهرة ورأى فيها العجب ••
ويظهر ان الفتى القصير ذا العينين المستديرتين النفاذتين اللتين تشبهان
الترجسة الصغيرة •• كان يحكم رمي الشباك فلا تخيب ، ثم يفكر : لماذا
يطاوعه الصيد وهو الفتى القروى الضئيل الجسم الخشن المظهر الذي أحس
في أيامه الاولى بالقاهرة أنه شجرة سنط غرست أمام فندق مشهور •• كما
يقول في أحد تشبيهاته المعبرة على لسان بطل « شجرة اللبلاب » •
كان يشك أولا في نفسه من حيث أنه ليس اهلا لرغبة النساء فيه
واقبالهن عليه ، ولكن لما تكرر هذا الاقبال ، ولم يجد صدا جادا جعل
يشك في جنس النساء • ويعبر عن هذه المرحلة بقوله في « شجرة اللبلاب » :
« وهكذا اصبحت بالتشكك واصبحت علاقة المرأة بالرجل في نظري علاقة
غامضة يحجبها دخان ، وأصبحت كأنني مريض بـ « ازدواج النظر » أرى
الشيء الواحد شيئين اثنين ، فلم أعد أرى الزوجين رجلا وامرأة فحسب ،
بل صرت أراهما رجلين وامرأتين » •

على أن الرجل القروى على العموم حينما يجيء الى القاهرة ويعيش
فيها ويوازن بين المرأة المحتشمة في القرية والمرأة المتبرعة في المدينة يسوء
ظنه بالنساء وخاصة اذا خاض مغامرات معينة في المدينة •
وأخذ الشك في اخلاص المرأة للرجل الواحد يزول من نفس
عبدالحليم لما أحب الحب الكبير وبادلته الحبيبة حبه العميق ، بل صار على

العكس يدين بالحب ويقده ، ثم صار يستلهمه في العمل الادبي ويخلق فيه نماذج من وفاء المرأة واخلاصها في الحب •

ومنذ بدأ الانتاج اتخذ من ذكرياته وتجاربه ما وضعه في درجين : في الدرج الاول صور الشك ، وفي الثاني صور الصدق والاخلاص ، وصار يفتح كلا من الدرجين ويأخذ منه « الخامة » التي يريد أن يصنع منها شيئاً في الرواية •

كان محمد عبدالحليم طفلاً هادئاً متأملاً ، يعرض عن اللعب ، ولا يجنح الى شقاوة الاطفال ، يفكر في كل ما حوله ويستخلص منه نتائج ، ولما بلغ مرحلة القراءة كان يقرأ أو يتأمل وينعم النظر فيما بين السطور • وكان تأمله وتفكيره في خدمة وجدانه واحاسيسه ، فلم يخلق منه تأمله وتفكيره فيلسوفاً ، لان انطلاق وجدانه غلب عليه فكان فنانياً يفكر ، ولعل هذا مصدر ما يبثه في ثنايا كتابته من خطرات وأفكار تغلب على الصورة الفنية أحيانا • وقد تأمل الطبيعة في الريف وتذوق جمالها ، وقرأ روائع الشعر ، فجعل منه ذلك شاعراً وان كان لا ينظم ، وترى في رواياته ظلال هذا كله •• ظلال المناظر الطبيعية في الريف التي تكاد مع المضمونات الشعرية تعطيه بعض السمات الرومانسية ، ولكن تذليله لها واستخدامها في الحركات النفسية للأشخاص يميل به الى الواقعية المضمخة ببعض التصور الرومانسي • كان من قراءاته الادبية الاولى كتب جبران خليل جبران ، وكان معجبا به ، وكتب المنفلوطي ، والروايات المترجمة عن اللغة الفرنسية ، وكان مشغوفاً على الخصوص بقراءة الروايات العاطفية والشعر العاطفي • وكان يستمتع في القرية وهو طفل لمن يقرأون القصة الشعبية فيصني كما يصني المستمع العادي الى أم كلثوم تغني « ريم على القاع » لا يفهم ولكنه يطرب ••

ولم يحاول في خلال « تلمذته » أن ينتج في الكتابة غير ما كانت تقضي به الحياة المدرسية من كتابة موضوعات الانشاء ، وكان يجيدها ويظفر ببناء

اساتذته عليها ، واشترك بكلمات أعدت والقاها في حفلات مدرسية نالت ما نالته موضوعات الانشاء من الثناء •

وأول انتاج أدبي متكامل له قصة « لقيطة » التي ظفرت بجائزة تشجيع الانتاج الادبي في المجمع اللغوي ، وكان نجاح هذه - نبيلها الجائزة ونجاح نشرها بعد ذلك - الدافع الاول لاستمراره في الانتاج الادبي • فظروف حياة عبدالحليم الاولى كما اوضحت جعلته هيبا خائفا ، وان كان يتردد ولا يكسل ، لانه مع خوفه وتهيبه متحفز متوثب • انه لا يزال كذلك حتى اليوم •• لم يحل وثوبه الى القمة دون خوفه وتهيبه ، لانه يريد في تحفزه وتوثبه ان يحتفظ بمكانه •

عندما يبدأ كتابة رواية ينظر من اعلى الى السفح فيضطرب قليلا خشية السقوط ، ثم لا يلبث ان تثبت قدمه وينسى كل شيء ما عدا الجو الذي يكتب فيه •

وحياته كذلك •• بدأها كما يبدأ رواياته ومضى فيها كما يمضي في الكتابة •

نجيب محفوظ

نشأته وانعكاسها في ادبه

ولد الكاتب القصصي الكبير نجيب محفوظ بحي الجمالية ، وقضى في هذا الحي طفولته الاولى ، اذ انتقلت الاسرة وهو في نحو السادسة من عمره الى حي العباسية • والمعروف ان حي الجمالية هو المسرح الحي لاهم روايات الكاتب ، مثل خان الخليلي وزقاق المدق ، وثلاثية بين القصرين وقصر الشوق والسكرية •

فهل كانت المعالم والدقائق التي صورها القصصي من انطباعاته في طفولته الاولى ؟ الواقع انها لم تكن كذلك ، فقد كان صغيرا لم يتم لوعيه النضج الكامل ••

انما جاءت تلك الانطباعات في فترة أخرى عاشها في شوارع حي الجمالية وحاراته وأزقته وخاصة « زقاق المدق » • فلم ينس نجيب - بعد أن رحل مع الاسرة الى العباسية - أصدقاء الطفولة في الجمالية ، فكان يأتي اليهم وخاصة في الاجازة الصيفية والمدرسية الطويلة يجول معهم في الحي ، وتمتد جولاتهم احيانا الى العتبة والازبكية ، وكان مركز التجمع ومكان اللقاء هو قهوة صغيرة في زقاق المدق ، وليس في الزقاق غيرها •

على خلاف ما في الرواية التي جعل الخيال فيها الزقاق على نحو اخر مؤلفا من بيوت ودكاكين مع هذه القهوة •• في تلك القهوة كان نجيب يدخن (الجوزة) وهو صغير •• يسعل وتسيل الدموع من عينيه •• كي يبدو كبيرا •• رجلا كهؤلاء الرجال ••

عاش نجيب في تلك الفترة عيشة شوارعية بمعنى الكلمة •• وعرف كثيرا من ألوان الحياة التي صورها بعد ذلك في قصصه الحافلة •
وتدلنا الحرية التي كان يتمتع بها ، من التردد بين العباية حيث مسكنه وبين الجمالية حيث اصدقاء الصبا والشقاوة •• على أن حياته العائلية لم يكن فيها تضيق يشبه او يقرب مما كان في أسرة السيد أحمد عبد الجواد على نحو ما صوره في رواية « بين القصرين » •

والاستاذ نجيب محفوظ يسير على نظام مرسوم في حياته اليومية والاسبوعية • هناك ساعة بل دقيقة محددة للنوم والاستيقاظ ، وللغذاء ، وللغداء ، وللغشاء ، وللكتابة وللمقابلة الاصدقاء و •• الخ •• وأيام الاسبوع كذلك • وهو مثلا يذهب الى قهوة الاوبرا كل يوم جمعة في الساعة العاشرة صباحا ليستقبل اصدقاء ورواد ندوته الاسبوعية هناك في أعلى القهوة المشرفة على ميدان الاوبرا ، ويأخذ مكانا معهودا لا يغيره ويظل على ذلك طوال العام •• لم يحدث ولا مرة واحدة ان تخلف يوما لاي عذر طارئ •
قال لي الاستاذ نجيب : انك لو تتبعته اي فرد من أسرتنا ايام الاسبوع ورأيت ماذا يفعل كل يوم لعرفت نظام حياته كله لان ما يفعله يوم السبت - من هذا الاسبوع مثلا - هو نفسه ما يفعله كل سبت آخر ••

★ ★ ★

كان الطفل نجيب مولعا بتمثيل الاشياء بعد ان يؤلف لها في خياله وقائع وكان ينهمك فيها الساعات الطوال ••
كان يأخذ لعبة تمثال البائع الذي يحمل قفص العنب ، ويأتي ببعض الاطفال ويجري « اخراجا » للموقف فيجعل كلا منهم يشتري منه ويجري بينه وبينهم مساومات ويشارك فيها ، ولا يدع البائع حتى يجعله يبيع كل ما معه ويعود الى زوجته وأولاده الذين قد أعدهم المخرج نجيب في ناحية منزلة •

وكان يسمع عن حالات الولادة العسيرة التي تستلزم اجراء عملية •• فوضع في خياله قصة بطلتها الخادمة الصغيرة ، واسند الى نفسه دور الطبيب

الذي يقوم بواجبه « الانساني » في انقاذ الام والجنين •• واندمجت البنت في دورها فنسيت نفسها واستسلمت لشروط الطبيب •• واحضر هو موسى وشرع في اجراء العملية •• ولكن امره كشف قبل أن يبدأ •

عملية تخيل القصص وتمثيلها الى درجة الاقتناع بها منتشرة بين الاطفال على العموم ، ولكننا نلاحظ انها في طفلنا « نجيب » تمتاز بالخصوبة والدلالة على الطبع الفني من حيث طول الوقائع وسبكها وتوافر عناصر التشويق ، ومن حيث الادماج والعيش فيها •

فمن النوع الاول أنه كان يبتكر وقائع قصصية ثم ينفرد بالخداع فيقصها عليه بطريقة التسلسل •• يقف في موقف ، ثم في المرة التالية يبدأ من حيث وقف يعمل في ذلك خياله كما يشاء ، ولكنه لم يكن يضع لهذا الخيال نهاية فكانت قصصه المتسلسلة مفتوحة النهايات •

ومن النوع الثاني الذي يدل على قوة الاندماج أنه صعد مرة الى سطح المنزل فرأى طائفة من افراخ الدجاج ترقد مستدفئة بشمس الشتاء فتخيلها ميتة •• وهم أن يمسك بواحد منها ليلقى به في الشارع ثم يتبعه بغيره •• ولكنه خشى أن توقظ حركته بقية الافراخ فتبعث حية وتفسد خياله •• ولكي يبقى عليها ميتة كما تخيلها حملها جملة واحدة وألقى بها في الشارع •

وتجد انعكاس ذلك في رواية « بين القصرين » في تصوير شخصية « كمال » الطفل ، وقد أعطى نجيب كثيرا من نفسه لهذه الشخصية ، فالكاتب القصصي يستلهم فيما يكتبه حوادث ماضيه وصوره التي أنطبع في نفسه ، جلس كمال الطفل مع أمه وأخوته يقص عليهم قصة زعم أنه شاهدها بنفسه فبدأ قصته هكذا :

« ياله من منظر لاينسى الذي رأيته اليوم وأنا عائد •• رأيت غلاما يشب الى سلم (سوارس) ثم صفع الكمسارى وركض بأكبر سرعة » • وكان هذا قد وقع من كمال نفسه بدافع « الشقاوة » والتقليد لبعض الصبيان ولكنه زاد على الواقعة بقية القصة من ابتكار خياله فقال :

« فما كان من الرجل الا أن عدا وراءه حتى أدركه ثم ركله في بطنه بكل قوته » .

ولما رأى القوم لا يهتمون به كما يريد صاح بصوت مرتفع : « وسقط الغلام يتلوى وازدحم حوله الناس فاذا به قد فارق الحياة » . وهتفت الام :

– يا ولداه ! أتقول أنه مات ؟

- أجل مات ، ورأيت بعيني دمه وهو يسيل بغزارة .
- وقام أحد أخوته بدور الناقد ، فقال متسائلا في تهكم :
- قلت ان الكمسارى ركله في بطنه . فمن أين سال الدم ؟ .
- لما ركله في بطنه سقط على الارض فشج رأسه .

وفي الوقت الذى كان فيه نجيب يعيش حياته في حرية مع حزم من الوالدين ، كان يعاني القسوة الشديدة من المشرفين على التعليم في المدرسة الاولى والمدرسة الابتدائية ، وكان يستأثر باهتمامه في الدراسة الابتدائية شيان : الاول دروس الدين وخاصة قصص الانبياء التي كان يعيها جيدا ثم يقصها على من في المنزل ونلاحظ أثر هذا في رواية « أولاد حارتنا » التي رمز فيها الى الانبياء بشخصيات مختلفة . والثاني الحكايات التي تحتويها كتب المطالعة ، وظل مدة مشغوبا بقصة عصافير في كتاب مطالعة فقدت أمها وكان فيها طائر يقوم بدور الرسول بين الام في عالم الارواح وبين صغارها في الحياة الدنيا . فكان نجيب يحفظ ما يدور بينهما من حوار ويردده في اعجاب ونشوة .

وعندما عرف قراءة الروايات كان يمسك بالرواية (تحت الدرج) ويقرأ فيها في أثناء الدرس فاذا رآه المدرس الهب اصابعه بالمسطرة . وفي سن العاشرة شغف نجيب بقراءة الروايات البوليسية المترجمة الى اللغة العربية ، ثم شغف بالسينما ، وكان يعتقد أن وراء الشاشة مجتمعا حيا ، فكان بعد انتهاء العرض يخرج ليبحث عن الاشخاص الذين رآهم على الشاشة . وكان غرامه بالسينما شديدا جدا في الصغر ، ولكنه لما كبر أخذ

ميله اليها يفتر ، وذلك بعد ان اخذ في القراءة الادبية والفكرية ورأى تفاهة السينما امام الادب والفكر • كان في صباه يعد السينما مطلبا اساسيا لتغذية خياله ومشاعره وافكاره ، فلما وجد الغذاء في الادب والفكر جعل ينظر الى السينما على أنها شيء يطلبه فيجده أحيانا مسليا وحيانا تافها مملا •

ولما بلغ الثالثة عشرة بدأ يقرأ القصص الغرامية وكان يحرص على متابعة القصص المسلسلة في جريدة الاهرام ، وكانت من النوع الغرامي الذي أحبه وقد نشرت له أخيرا عدة روايات مسلسلة في « الاهرام » حيث كان يقرأ مثلها أيام بدأ يقرأ •

وايقظت قراءة القصص الغرامية في قلبه عاطفة الحب مبكرة • وكان المجتمع لا يزال يحول بين البنات وبين الاولاد الاجانب عنهن ، فكانت العلاقة تنشأ من نظرة من النافذة ثم سلام بالاشارة ، وقليل ما يكون اللقاء •• فاذا حدث اللقاء كان بعيدا عن الحي بل خارج المدينة في إحدى الحدائق •• ونشأت مع نجيب علاقات من هذا النوع ، وأرسل مرة الى فتاته منديلا حريريا بواسطة الخادم الامين الكتوم ، وكم كان سعيدا عندما رآها من الشرفة تشير اليه بالمنديل الجميل شكرا له على هديته اللطيفة •

وكان لنجيب نوع آخر من العلاقة بالبنات •• وكان يقيم في العباسية، وهناك يقيم أسر يهودية كثيرة وهي أسر متحررة •• يجري الاختلاط فيها بين الفتيات وبين كل من يهوين من الشبان ، كان نجيب واحدا من اولئك الشبان •

وعاش نجيب في سن اليقظة - هذين النوعين من الحياة الغرامية •• النوع العاطفي المتسامي مع بنات الاسر المحافظة التي كانت تمثل غالبية السكان من الطبقة المتوسطة ، والتي كانت تعيش عيشة فاضلة برغم مايشاع عن بعضها في ذلك الوقت الذي كانت تفسر فيه النظرة من الشباك بفجور آخر الزمن •• والنوع الثاني تلك المغامرات السافرة مع الفتيات اليهوديات المتحررات •

ثم عرضت له وهو في السابعة عشرة أزمة فكرية عاطفية نشأت عن أمرين :

الاول علاقة حب عاطفي جارف بفتاة كان يلقاها في حدائق العباسية البعيدة عن الحي حيث كانا يتواعدان هناك .. وأحس في هذه العلاقة أنه واحد من اولئك الذين تتحدث عنهم روايات الحب العذري وأنه لا يقل شأنًا عن روميو أو قيس ..

والثاني : قراءات فلسفية ونفسية أغرق فيها ، وتأثر خاصة بنظرية تسامي الغريزة عند « فرويد » وبآراء أبي العلاء المعري في تسامي الانسان عن أكل الحيوان ..

وقامت بنفسه من أثر هذا وذاك حالة نفسية « متسامية » تمثل نفسه فيها أحد أبطال الحب المتسامي ، وهجر البنات اليهوديات في هذه الفترة ! .. وامتنع عن أكل اللحوم مثل أبي العلاء المعري .. وعلم بهذا مدرس اللغة العربية ، وكان يحبه لقوته في اللغة وبراعته في الانشاء ، ولكن هاله أن يجنح تلميذه « نجيب » الى هذه الافكار التي يعتبرها الحادا .. وكيف يمتنع الانسان عن أكل اللحوم ؟ ..

هل يحرم ما أحل الله ؟ ..

وقامت مناقشة حامية في حجرة الدراسة بينه وبين الاستاذ ، ولكن الاستاذ كان ظريفا فقال لنجيب :

« أتخشى أن تأكل الفراخ وتريد أن تبقي عليها حتى تكبر ونصير

تلامذة ! »

ولم تستمر تلك الفترة « المتسامية » طويلا في حياة نجيب ، فقد عاد

الى التمتع باللحوم على اختلاف أنواعها ..

وكان الشاب نجيب قد أمعن في القراءة الفلسفية ، واتجه في حياته

الفكرية اتجاها فلسفيا ، ودخل قسم الفلسفة بكلية الآداب ، وكان يكتب

مذكرات يضمنها ما يسترعي انتباهه من أفكار وما يعن له من آراء في شؤون

الحياة المختلفة ..

ولما بدأ يكتب كانت كتابته مقالات فلسفية ، وكان مع هذا يقرأ كتب الادب على انها قراءة « استهلاكية » فقط •• يستمتع بها ولا يفكر في أن ينتج مثلها •

ولكن مزاجه الادبي الاصيل كان يقلقه ويحفزه • لم يكن فيمن يعرفهم أحد من الادباء •• وعندما ابتداء يشعر بالصراع بين الرغبة في الكتابة الادبية وبين الاستمرار في الفلسفة كان يستشير فلا يجد من يفهمه • فقد كانوا يشيرون عليه بأن يأخذ بما هو أنفع في مستقبله •

واشتد الحافز الادبي •• فلم يستطع مقاومته فكتب قصة قصيرة عنوانها « ثمن زوجة » نشرتها مجلة (الرواية) التي كان يصدرها الاستاذ الزيات • واستمر يكتب القصص القصيرة أولا ، ثم تركها واختص بكتابة الروايات • وقد وزع قصاصنا العظيم نجيب محفوظ تلك التجارب والآراء والمشاعر على أبطال قصصه كما يوزع الأب ثروته على أولاده •

ولكنه اختص شخصية كمال في ثلاثيته المشهورة « بين القصرين وقصر الشوق والسكرية » بالنصيب الاوفر منها فصور حبسه العاطفي ومغامراته الاخرى وصور أزمته الفكرية •• وبطبيعة العمل الفني لم ينقل الى كمال من نفسه كل شيء ، وليس كل ما في كمال مستمدا من نجيب •• قال لي الاستاذ نجيب محفوظ انه يرى الناس ويعاشرهم ويتأملهم وبعد ذلك يكتب فيكون شخصياته •• قطعة من هذا وشيئا من ذاك ، ويغير في الملامح والوقائع بحيث ان الذين يصورهم لا يعرفون انفسهم في القصص • وأضيف الى ذلك أنه يعطي من نفسه لشخصيات قصصه ، وقد أعطى لشخصية كمال كثيرا من طفولته •

وهو يرى أن الفنان الاصيل لا ينقل من الحياة نقلا أميناً •• ويشبه الواقع كما هو بكوم من الطوب •• فكما يتخذ الطوب مادة لبناء العمارات والقيلات التي تختلف عن الطوب •• كذلك يفعل الفنان الموهوب •• يأخذ من واقع الحياة ما يصنع منه صورا فنية تنبض بالحياة ولكنها حياة أخرى ••

زكي مبارك

الفتاح المصارع

توفي الدكتور زكي مبارك في شهر يناير سنة ١٩٥٢ بعد أن شغل الناس وملاً الحياة الأدبية بكتاباته وأشعاره ومعاركه الأدبية ومحاضراته وطرفه في المجالس قرابة ثلاثين عاماً •

كانت حياة زكي مبارك تلخص في كلمة واحدة جامعة هي «الصراع» كان يصارع في معترك العيش وكان يصارع في ميدان الأدب • وقد ظل يصارع حتى نال منه الجهد في سنواته الأخيرة ، فأدمته أشواك كان يبدي لها الجلد ، فيضمد جراحه ويحاول أن يمضي في كفاحه ، ولكن كان يغلبه الترنح الذي أسلمه أخيراً الى التفكك •

كان زكي مبارك يمثل في صراعه الفلاح المصري أتم تمثيل • جاء من قرية « سنتريس » الى القاهرة يطلب العلم في الجامع الأزهر • ولم يكن مثل الطلبة الأزهريين في ذلك الوقت ، من حيث الاقبال على العلم المأثور الذي يقدمه لهم المعهد التليد ، والعكوف على التحصيل بالطرق الموروثة ، بل كان من الفئة القليلة مثل زملائه المتمردين الذين خرجوا من بين تلك الجدران يتلمسون الأدب والثقافة الحديثة هنا وهناك ، وجدوا الأدب أولاً في الأزهر على يد استاذهم الاول الشيخ سيد المرصفي الذي كان يقرأ لهم كتب الادب القديمة ويديني كنوزها من قرائحهم وأذواقهم المتطلعة ، ثم راحوا ينشدون المعرفة في المجال الواسع خارج الأزهر •

لم يكن زكي مبارك في الازهر بالطالب الخامل • فان فاته الظهور في الدراسة الازهرية التقليدية فلم يفته الصيال في مجال الشعر والادب • فكان خطيب المحافل وشاعر المجامع • وقد خاض الثورة في فجر النهضة الوطنية سنة ١٩١٩ وقذف بنفسه في أتونها المستعر ، وعانى الأهوال في السجون والمعاقل •

اتجه الطالب الازهري الفلاح •• زكي مبارك •• صوب الجامعة المصرية القديمة ، فوجد فيها أفقا أرحب وموردا أعذب ، فعب منها ونهل ، وجاهد حتى استطاع أن يتم دراسته بها • وكان في خلال ذلك يكتب في بعض الصحف مثل « الجريدة » التي كان يرأس تحريرها أحمد لطفي السيد والتي تخرج فيها رواد الفكر الحديث في مصر •

وبعزيمة الفلاح وقدرته على التقشف رحل الى طلب العلم في باريس ، فكان يعيش هناك على النزر اليسير الذي يظفر به أجرا لمقالاته ورسائله الى بعض الصحف المصرية ، وخاصة جريدة البلاغ • يحدثنا عن كفاحه في تلك الفترة ، يقول :

« كنت أشطر العام شطرين ، أقضي شطره الاول في القاهرة ، حيث أؤدي واجبي ، وأجني رزقي • وأقضي شطره الثاني في باريس كالطير الغريب ، أحادث العلماء ، وأستلهم المؤلفين ، الى أن ينفد ما أدخرته أو يكاد ، ثم صممت على أن أنقطع الى الدرس في جامعة باريس حتى انتصر أو أموت » •

وانتصر الفلاح المصري في باريس ، وحصل منها على درجة « الدكتوراه » وعاد الى مصر فتلقفته الجامعة وضمته الى احضانها ، فاشتغل بالتدريس فيها ردحا من الزمن • ثم خرج منها في ظروف وملابسات من صراعه المتصل وبدافع من طبعه القروي العنيف الذي أبى أن يتلاءم مع ما يراه من أوضاع فاسدة وأمور لا يرتضيها ذلك الطبع الذي يصوره الاستاذ الزيات بقوله عنه « انه لو استطاع أن يتملق الظروف ويصانع السلطان ، ويحذق شيئا من فن الحياة لالتقى كثيرا مما جرته عليه بدواة

الطبع وجفاوة الصراحة » • ويعبر هو عنه بقوله « وأنا لم انجح في شيء من ذلك لان استقلال ارادتي حال بيني وبين الاندماج التام في هيئة من الهيئات ، أو حزب من الاحزاب ، فأنا بين المؤمنين ملحد ، وبين الملحدين مؤمن ، وأنا بر عند الفجار ، وفاجر عند الابرار ، وأنا في كل بيئة أجنبي وفي كل أرض غريب » •

وراح يتنقل بين الاعمال والوظائف حتى استقر به الامر أخيرا مفتشاً للغة العربية بوزارة المعارف (وزارة التربية الآن) وتشعبت جهوده ، فكان يعمل في كثير من النواحي ، ويتنقل بين التدريس والصحافة والتأليف ، أو يجمع بينها جميعاً •

شق زكي مبارك الاديب الفلاح طريقه بقلمه حتى وصل الى الصدارة في عالم الادب العربي الحديث ، كما يشق الفلاح الارض بفأسه كي يستنبط منها رزقه • وكان زكي مبارك يحرق حقله في الادب ليقم خطوطه ، والويل لمن يعترض طريقه ، أو يقترب من حدوده ، ولم يفقه طبع الفلاح أحياناً في الجور على حدود جاره وقتاله اذا استدعى الأمر ، ويتجلى هذا في صياله مع الادباء ، ذلك الصيال الذي يحمل فيه القلم كما يحمل الفلاح « النبوت » •

يحدثنا الاستاذ الزيات عن محاولته ترويضه وهو يكتب في الرسالة ، ويصفه هذا الوصف المحدد اذ يقول : « ان زكي مبارك لون من ألوان الادب المعاصر لا بد منه ولا حيلة فيه ، وهو الملاك المادبي في ثقافتنا الحديثة ، والرياضة - كما تعلم - ضرورة من ضرورات الحياة اللازمة للعقل والجسم • أما عنفه وشمسه فهما الصنيع المميز للونه ، على أنه أول الشاهدين على أن صفارتي قد بحثت من طول ما أهابت به وهو في قفازه الستريسي يهدر في المجال بين الجبال مغضياً بعض الاغضاء عن قواعد الملائكة » • ويصور زكي مبارك صنيعه هذا وفلسفته فيه ، هذا التصوير اذ يقول : « الشجرة لا تحفظ الايدي التي تتعهد بها بالري والعناية ، واصلاح التربة ، والصيانة من العواصف وأضرار الرياح ،

ولكنها تحفظ اليد المعتدية التي تأخذ خنجرا وتحفر اسم صاحبها على ساقها
بالنحت والتكسير من غلافها والسطو عليها » ♦

ولم يأسف زكي مبارك على ما فاتته مما يحظى به المنافقون ، ويعبر
عن ذلك فيقول : « فليظفر من شاء من طبقات الحياة تحت ستار التقى
والدين فتلك حظوظ سافلة لا يفرح بها الا الضعفاء الذين يعرفون أن
مصارحة الجمهور عبء ثقيل لا ينهض به غير الاقوياء » ♦

ولكنه يشعرنا بالمرارة والأسى له اذ يقول : « لو كنت اتجرت بالتراب
لصرت من كبار الاغنياء ولكني شغلت نفسي بما لا يفيد ، فذرعت فضاء الله
في فرنسا الى أن سبحت في بحر المانش ، وذرعت فضاء الله في العراق الى
أن سبحت في شط العرب ، وألفت اثنين وأربعين كتابا ، واشتغلت
بالتدريس عشرين سنة ، وكانت صراحتي تقطع رزقي » ♦

وهكذا كان زكي مبارك حرا في ابداء رأيه عنيفا في معاركه ، وكان
لا ينتظر حتى يثني عليه غيره ، بل يتطوع هو بالتناء على نفسه ، ولعله
كان يذهب هذا المذهب لاعتقاده الجحود في الناس ، فيعوض بنفسه ما ينقصه
منهم ، وكان يلطف عنفه ويسوغ استعلاءه روح خفيفة ودعابة مستملحة ♦

والواقع ان زكي مبارك الكاتب العظيم كان قد انتهى قبل وفاته
بسنوات ، اذ ناء بأعمال الكفاح وضعف أمام القوى التي يصارعها ، ويحدثنا
هو عن هذه النهاية ، يقول : « وأنا الآن برم ضيق الصدر لأنني أريد
مواصلة البحث والدرس ، ولكنني لا أجد لدي قدرة على ذلك ، وماذا
يكون المفكر اذا كف عن الانتاج ؟ هل يكون شيئا أكثر من ذبالة انسان ؟
وهل أرضى بمثل هذه المكانة ؟ اذن فليكن في الخمر ملجأ وملاذ أقضي فيه
ما بقى من العمر دافعا ثمن العلم الذي حصلته » ♦

وكان يردد في كتاباته الاخيرة المفككة عبارات قاسية بالنسبة للمرأة ،
فأثار ذلك الكثيرين والكثيرات ، وسخر منه وحمل عليه بعض الكتاب ♦
واستمر هو في عناده وعنفه حتى كتب مرة يقول :

« لقد كان أبي يجرب نعله الجديد على رأس كل زوجة من زوجاته » •

وكأنه كان هو كذلك يجد لذة في أن يجرب قلمه على رؤوس الساططين عليه ••

وبرغم ذلك ظلت روحه الخفيفة في الكتابة تجذب الكثيرين من قراء حديثه ذي الشجون في جريدة البلاغ ، ذلك الحديث الذي لم يكف عن كتابته حتى انتزع الموت القلم من يده المرتعشة •

قضى الدكتور زكي مبارك ، بعد حياة عريضة ، أغنى فيها حياتنا الادبية من نقد ودراسات وشعر ووجدانيات •

كان كثير التردد لكلمة « الخلود » فيما يكتب ، فان كان قد فاته ما حصل عليه سواء من عرض الدنيا ، فقد نال هو ما تغنى به طول حياته من الخلود •

عائشة التيمورية

من ذا الذي يجهل صاحبة هذه الأبيات :

يد العفاف أصون عز حجابي وبعزتي أسمى على أترابي
وبفكرة وقادة وقريحة نقادة قد كملت آدابي
ما عاقني خدري عن العليا ولا سدر الخمار بلمتي ونقابي

انها الشاعرة المصرية « عائشة التيمورية » التي لمعت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، في وقت ساد فيه ظلام الجهل ، وحيل بين المرأة خاصة وبين نور العلم والمعرفة ، فأعادت الى الازهان ذكر المشهورات في تاريخ العرب والاسلام كالخنساء وليل الأخيلية وعلية بنت المهدي وولادة وحمدونة الأندلسية وأم البنين وغيرهن .

ولدت شاعرتنا سنة ١٨٤٠ وتوفيت في مايو سنة ١٩٠٢ ، وهي أخت العلامة المغفور له أحمد تيمور باشا ، وكان أبوهما « اسماعيل تيمور باشا » من أصل كردي « لأبيه » تركي « لأمه » ، وعمة أدينا الكبير الاستاذ محمود تيمور .

ونستطيع أن نتبين من تاريخ عائشة أن الفضل الاكبر في تكوينها أدبية شاعرة يرجع الى ذلك الوالد الفاضل ، فقد وجهها الوجهة التي مالت اليها وشجعها على سلوك الطريق التي رغبت فيها ، اذ أبت عائشة أن تحيا حياة مثيلاتها من بنات القصور في ذلك العصر ، ورغبت في التزود من العلوم والآداب ، ووقعت من جراء هذه الرغبة في صراع بين ما تصبو اليه وما تريده لها أمها من تعلم التطريز وأشغال الابرّة وسائر الاعمال النسوية ، وكانت الام ترى في تشبث ابنتها بالكتب والقراءة شذوذا لا يليق

بفتاة * * فنشب بينهما جدال ظل يتتابع حتى قطعه الوالد الحصيف بقوله
لزوجه :

« دعها فان ميلها الى القراءة أقرب » *

وتحدثنا عائشة عن ذلك حديثا طريفا فتقول :

« فما أن تهيأ العقل للترقي ، وبلغ الفهم درجة التلقي ، تقدمت الى ربة الجنان والعفاف ، وذخيرة المعرفة والاتحاف ، والدتي ، نعمدها الله بالرحمة والغفران - بأدوات النسخ والتطريز ، وصارت تجد في تعليمي ، وتجتهد في تفهيمي وتفطيني ، وأنا لا أستطيع التلقي ، ولا أقبل في حرف النساء الترقى ، وكنت أفر منها فرار الصيد من الشباك ، وأتهافت على حضور محافل الكتاب بدون ارتباك ، فأجد لصرير القلم في القرطاس أشهى نعمة ، وأتخيل أن اللحاق بهذه الطائفة أوفى نعمة * وكنت ألتبس من شوقي قطع القراطيس وصغار الاقلام ، وأعتكف منفردة عن الأنام ، وأقلد الكتاب في التحرير ، لابتهج بسماع هذا الصرير ، فتاتي والدتي ، وتعنفني بالتكدير والتهديد ، فلم أزد الا نفورا ، وعن هذا التطريز قصورا ، فبادر والدي تغمد الله بالغفران ثراه ، وقال لها : دعى هذه الطفيلة للقرطاس والقلم ، واحذري أن تكتري من الكسر في قلب هذه الصغيرة ، وأن تلمس بالعنف طهرها ، وما دامت ابتنتا ميالة بطبعها الى المحابر والاوراق ، فلا تقفي في سبيل ميلها ورغبتها ، وتعالى تقاسم بنتينا ، فخذي عفت واعطيني عصمت (كان اسم الشاعرة عائشة عصمت) ، واذا كان لي من عصمت كاتبة وشاعرة فيسكون ذلك مجلبة للرحمة لي بعد مماتي * وأخذ والدي بيدي وخرج بي الى محفل الكتاب ورتب لي أستاذين، أحدهما لتعليم اللغة الفرنسية ، والثاني لتلقين العلوم العربية * »

وجعلت عائشة تقرأ دواوين الشعراء ، وتعالج النظم بالاوزان السهلة ، وكانت تنظم الشعر باللغات الثلاث العربية والتركية والفارسية ، وكانت تُسمع أباهما ما تنظمه ، فيسر ويثني عليها ويشجعها * ولكنها لم تمض على ذلك ، طويلا ، اذ تزوجت فشغلت بيتها وزوجها عن مواصلة التحصيل

والنظم ، وخاصة بعد أن رزقت بأولاد ، فلما كبرت ابتتها « توحيدة » ألقت إليها بعبء المنزل • واستأنفت حياة الدرس والمطالعة ونظم الشعر باللغات الثلاث ، وتوفى زوجها بعد والدها فزاد فراغها للشعر والادب •

وكانت الشاعرة تحب ابتتها توحيدة حبا جما • وأنقل فيما يلي فقرة من مقدمة ديوانها التركي الفارسي تتحدث فيها عن « توحيدة » ، قالت :

« وبعد انقضاء عشر سنوات كانت الثمرة الاولى من ثمرات فؤادي - وهي « توحيدة » نفحة نفسي وروح أنسي - قد بلغت التاسعة من عمرها ، فكنت أمتع برؤيتها تقضي يومها من الصباح الى الظهر بين المحابر والاقلام وتستغل بقية يومها الى المساء بابرثها فتسج بها بدائع الصنائع ، فأدعو لها بالتوفيق شاعرة بحزني على ما فرط مني يوم كنت في سنها من النفرة من مثل هذا العمل ، ولما بلغت ابنتي الثانية عشرة من عمرها عمدت الى خدمة أمها وأبيها فضلا عن مباشرتها ادارة المنزل ومن فيه من الخدم والأتباع فتسنى لي أن أنصرف الى زوايا الراحة » •

وقد حدث يوما أن كان في زيارة الأسرة بعض السيدات ، فأقبلت عليهن توحيدة تحييهن ، وأرادت أن تقول لهن : « أوحستونا » الا أن لثغة لسانها جعلتها تقول : « أوحستونا » ، فلما سمعتها أمها شرحت هذا العيب في بيتين من الشعر بتوجيه لطيف جعل العيب عملا مستحسنا •• قالت :

قال العواذل منذ قالت مؤاساة «أوحستنا» : انها تجفوء ، وذاك غلط لم يبدل الشين سينا لفظها غلطا بل لم يسع ثغرها الزاهى ثلاث نقط ثم شاء القدر أن تفجع الشاعرة في حبيبها وروح أنسها ، اذ ماتت توحيدة وهي في ريعان الشباب ، فتمزقت كبدها حزنا عليها ، واستعرت حرقه فؤادها في المرثية الرائعة التي بكتها فيها أحر بكاء ، تقول في هذه القصيدة :

ان سال من غرب العيون بحور فالدهر باغ والزمان غدور
فلكل عين حق مدرار الدما وبكل قلب لوعة وثبور

وتصف فيها مشهد احتضار الفتاة فتقول :

جاء الطبيب ضحي وبشر بالشفاء ان الطبيب بطبسه مغرور

لما رأت يأس الطيب وعجزه
أما قد كل الطيب وفاتني
لو جاء « عراف اليمامة » يبتغي
أما ، قد عز اللقاء وفي غد
قولي لرب اللحد : رفا بابتي
وتجلدي بازاء لحدى برهة
أما قد سلفت لنا أمنية
صوني جهاز العرس تذكارا فلي
أما لا تنسى بحق بنوتى
فأجبتها والدمع يحبس مقلتي
قد كنت لا أرضى التباعد برهة
ولى على « توحيدة » الحسن التى

قالت ودمع المقتلين غزير
مما أوئل في الحياة نصير
برئى ، لرد الطرف وهو حسير
سترين نعشي كالعروس يسير
جاءت عروس ساقها التقدير
فتراك روح ساقها المقدور
يا حسنهما لو ساقها التيسير
قد كان منه الى الزفاف سرور
قبرى لئلا يحزن المقبور
والدهر من بعد الجوار يجور
كيف التصبر والبعاد دهور
قد غاب بدر جمالها المستور

وقد ساءت حالها بعد ذلك وضعف بصرها ، وطال حزنها ، حتى ألح
عليها أولادها ان تشفق على نفسها فسرت عن نفسها بعض الشيء واستأنفت
نشاطها الادبي ، ولكن المرض ألح عليها ، واستمر أربع سنين انتهت
بوفاتها . وظهر انها عانت كثيرا من الاطباء الذين لم يجدها علاجهم ، فكانت
كثيرة التردد لياسها منهم ، وكانت أحيانا تتهكم عليهم ، من ذلك قولها :

يا من أنى للجسم يبرىء سقمه
أفئيت بالطب الذى تهذى به
ويعت أنك بالدوا جدته

ويظن جالينوس بعض عييده
أما ، وقرب الردى ببعيده
ولقد أضعت قديمه بجديده

ونجد في شعر اليمورية كثيرا من شعر المناسبات والمجاملات ، ومهما
يكن من اختلاف في الرأي في قيمته فهو يصور لنا مبلغ قدرة الشاعرة على
صناعة القريض من مقامات لا تستوحى فيها عاطفتها ، ولا تستجيب لنوازع
نفسها . ومن العجيب ان شعرها الغزلى يستغرق مائة قطعة او قصيدة من
اشعارها التى تبلغ عدد قصائدها ومقطعاتها عشرين ومائتين ، على حين انها

كانت تصنع الغزل على حد قولها في مقدمة قصيدة :

« وقلت متغزلة في غير انسان ، والقصد تمرين اللسان » •

ولو كان غزلها حقيقيا لما باحت بحرف منه في عصرها المتوقر وبيتها المتحجبة ومكاتها المصونة • ولكنها تصطنع الغزل وتمارسه ، وربما كان أسسها به وايقالها فيه لانها رأّت فيه مجالا للتنفس ولاظهار العاطفة المكبوتة التي لا تجد السيل الى الانطلاق ، فان في شعرها الغزلي رقة ، وفيه نبضات ويبدو أنها عوتبت في هذا الغزل ، فهي تقول :

تركت الحب لا عن عجز طول	ولا عن لوم واش أو رقيب
ولا من روع زفرات التصابي	ولا من خوف أجفان الحبيب
ولا حذر الفراق وخوف هجر	به تجرى المدامع كالصيب
ولكني اصطفيت عفاف نفس	تقر بصفوه عين الارب
وذاك لانني في عصر قوم	به التهذيب كالامر العجيب

وأما شعر التيمورية الصادق الوحي فهو قصائدها في رثاء من فقدتهم من أهلها ، وخاصة ابنتها « توحيدة » وفي شكواها من الرمد الذي ذهب ببصرها أو كاد ، وفي تلك المطولات التي ابتهلت بها الى الله ، وجعلتها استغاثة ومناجاة • ومن شعرها الابتهالى قولها :

ان كان عصياني وسوء جنايتي	عظما ، وصرت مهددا بجزائي
فقضاء عفوك لا حدود لوسعه	وعليه معتمدي وحسن رجائي
يا من يرى ما في الضمير ولا يرى	اني رجوتك أن تجيب دعائي
يا عالم الشكوى وحر توجمي	دائي عظيم القرح ، جد بدوائي
بحبييك الهادي سألتك دلني	لعلاج أمراض وجلب شفائي

وقالت في محاكاة قصيدة « البردة » المشهورة للبرصري :

أعن وميض سرى في خندس الظلم	أم نسمة هاجت الاشواق من أضم
فجددت لي عهدا بالغرام مضى	وشاقني نحو أحبائي « بذني سلم »

وفي هذه القصيدة تقول :

انى رددت عنانى عن غوايته	وقلت : يا نفس خلي باعث الندم
ولدت بالمصطفى رب الشفاعة اذ	يدعو المادى فتحيا الناس من رجم
طه الذي قد كسا اشراق بعته	وجه الوجود سناء الرشد والكرم
طه الذي كللت أنوار سنته	تيجان أمته فضلا على الامم
نعم الحبيب الذى من الرقيب به	وهو القريب لراجى المجد والنعم
روحى الفداء ومن لى أن أكون له	هذا الفداء وموجودى كمنعم

ولها مع ذلك رقائق في استهانتها بالحياة مثل قولها :

كم ذا نهنيء بالآمال أنفسنا	حتى كأن الفتى طول المدى باق
فالدهر يبسم عن حقد بشائره	فينا ويطوى نكالا ضمن اشفاق
فانظر تر الناس سكرى غفلة عظمت	ادارها الدهر واستغنى عن الساقى
ما الحظ الا امتلاك المرء عقته	وما السعادة الا حسن اخلاق

وقد ظهر ديوان التيمورية العربي منذ أكثر من نصف قرن ، ويسمى « حلية الطراز » ثم طوته الايام ، فلم تبق منه الا ذكرى تهز النفس وصدى يعبر السمع . وقد عنيت لجنة نشر المؤلفات التيمورية التي كان يرأسها الاستاذ خليل ثابت باخراج ديوان عائشة التيمورية حافلا مستكملا ما كان مخطوطا من القصائد ، وقد قام بتحقيقه وضبطه الاستاذ محمد شوقي أمين ، وقد كتبت الاميرة السابقة قدريه حسين تصديرا لهذا الديوان قالت فيه :

« ان الناقد الادبي حين يتعرض لتمحيص ديوان التيمورية يجب عليه أن يوازن بينه وبين ما كان يجري عليه الشعر العربي في ذلك الحين . واذا كانت المرأة المصرية قد مهد لها وسائل التزود من الثقافات على اختلاف ألوانها ، وفسح مجال التفوق والتبريز ، فسيبقى لاسم السيدة عائشة التيمورية شرف السبق الى نور المعرفة واقتطاف أزهير الادب في عصر تعذرت فيه الوسائل ، وستظل ابنة القرن التاسع عشر فخرا لبنات القرن العشرين وما يلحق به من العصور » .

وأعتقد أن أحد الادباء كتب هذا التصدير لكي ينشر باسم قدرية حسين في مقدمة الديوان ، فلم يكن لمثيلاتها اشتغال ولا اهتمام بمثل هذه الشؤون الادبية وخاصة في اللغة العربية •

ولعاشقة التيمورية نثر جيد وان كان يجري على سنن عصرها في الكتابة من حيث السجع ومحاكاة اسلوب المقامات ، وقد الفت كتاب « نتائج الاحوال في الاقوال والافعال » ضمنته قصصا وحكايات في أحوال الناس ، مستعينة فيه بما قرأته في التاريخ وما سمعته من حكمة العجائز وما قر في ذهنها من تجاربها في الحياة • ولها كتاب « مرآة التأمل في الامور » عالجت فيه بعض الموضوعات الاجتماعية باسلوب قصصى • وكانت تكتب مقالات وتشرها في الصحف التي كانت تصدر في عصرها كجريدة « المؤيد » منها مقال عنوانه « لا تصلح العائلات الابدنية البنات » ، وجهت فيه اللوم الى المرأة على مبالغتها في الزينة دون الانتباه الى واجباتها ، وهي ترى في ذلك مبعث الخلل والفساد •

وقد دعت التيمورية الى مشاركة المرأة للرجل في الاعمال والقت المسؤولية في تأخرها على الرجل ، وقالت : « فعلام ترفعون أكف الحيرة عند الحاجة كالضال المعنى ، وقد سحرتهم بأمرهن ، وازدريتم باشتراكهن معكم في الاعمال ، واستحسنتم انفرادكم في كل معنى ؟ فانظروا عائد اللوم على من يعود ؟ » •

وقد سبقت التيمورية في هذا المجال من جاء بعدها من اصحاب الدعوة الى مشاركة المرأة للرجل والمطالبة بحقوقها في العمل •

مصطفى لطفي المنفلوطي

منذ اتصل العالم العربي بالعالم الغربي في العصر الحديث ، بدأ التساؤل عن الاتجاه الفكري في عالمنا العربي وما ينبغي أن يكون : هل ينهج المثقف العربي منهجا فكريا أوربيا أو عالميا ، أم يقبل نتائج الحضارة العالمية ثم يبحث لنفسه عن جذور فلسفية في التراث العربي ذاته ؟ وبعبارة أخرى : هل يأخذ المفكر العربي بطريقة التفكير والحياة الاوربية أو العالمية بحذافيرها ، أم يختار منها ما يتمشى مع ظروف الحياة العربية وتقاليدها ؟

شغلت تلك الاسئلة روادنا الاوائل ، ولعل أول من أجاب على ذلك التساؤل جمال الدين الأفغاني وتلاميذه المصريون . دعا الافغاني الى النهوض ومقاومة الغزو الاجنبي بأشكاله المختلفة ، مع الاخذ بالصالح النافع من الحضارة الغربية ، وكانت هذه الدعوة في الواقع اثاره لما يعتل في النفوس ، وتعبيرا عن الاماني الكامنة ، ولهذا لقيت صدى طيبا ، وأخذت على انها الحل الموفق للمشكلة .

وتلقف الادباء هذا الحل الذي وفقوا به بين ما غرسته دراسة التراث العربي في نفوسهم من حب عميق للغة العربية وبلاغتها ، وبين ما بهرهم من فنون أدبية جديدة تفد اليهم من الغرب ، فجاء ما كتبوه وكأنه نتيجة بحث طويل عن الشخصية العربية في عالم الادب وما ينبغي لها أن تكون في العصر الحديث .

ومن أبرز الادباء الذين حملوا هذا المشعل مصطفى لطفي المنفلوطي (توفي في يولية سنة ١٩٢٤) .

كان أدب المنفلوطي تطبيقا وتعبيرا عن ذلك الحل ، في الشكل وفي

المضمون ، أما الشكل فكان يجمع بين الاسلوب الذي يركز على الادب العربي الموروث والتمسك بقيمه البلاغية ، وبين الاخذ من الآداب الاجنبية بما يلبي حاجة التطلعات الجديدة الناشئة . وأما المضمون فهو يمثل في الدعوة الى التمسك بالقيم والمثل الموروثة القويمة والاخذ بالصالح لنا من المدنية الغربية ومقاومة الفاسد او ما لا يلائمنا منه .

تعلم المنفلوطي في الازهر ، ولكنه لم يكن مجدا في الدراسة الازهرية بمقدار ما عكف على الادب ، اذ جعل يقرأ كتب الادب العربي ودواوين الشعراء ، وقد اجتذبه دروس الشيخ محمد عبده في البلاغة وتفسير القرآن ، وأعجب به ، وقرأ كتاباته ، ثم راح يقرأ الكتابات المعاصرة ، المؤلفة والمترجمة ، ولم يعرف لغة أجنبية ، والروايات المنسوب اليه ترجمتها كالفضيلة وماجدولين ، كانت تنقل له من اللغة الفرنسية ثم يكتبها هو بأسلوبه ، لا يتقيد بالاصل بل كان كأنه يكتبها من جديد .

وهو يحدثنا في مقدمة كتاب « النظرات » عن ميله الى مطالعة شعر الهموم والاحزان ومواقف البؤس والشقاء وقصص المحزونين والمنكوبين ويعمل ذلك بقوله : « كأنما كنت أرى الحياة موطن البؤس والشقاء ومستقر الآلام والاحزان ، وأن الباكين هم أصدق الناس حديثا عنها وتصويرا لها ، فلما أحبيت الصديق أحببت البكاء لاجله ، أو كأنما كنت أرى بين حياتي وحياة أولئك البائسين المنكوبين شبا قريبا متصلا ، فأنتست بهم وطربت بنواحهم .. الخ » .

وقد كان لهذا الادب الحزين الباكي أحسن الوقع في نفوس معاصريه اذ كان الناس يعانون من ضغوط كثيرة ، على رأسها ضغط الاحتلال الاجنبي الذي كان يشل كل حركة نحو التقدم ، ويعجز الافراد عن المقاومة فيلجئون الى التنفيس بمثل البكاء والدموع التي يحدثنا عنها المنفلوطي .

واذا كنا نلاحظ أن أشخاص المنفلوطي في قصصه ضعاف لا حول لهم ولا ارادة في أمورهم ولا مصائرهم ، فانه يجب أن نلاحظ الى جانب ذلك انهم انعكاس لسمات المجتمع في ذلك الحين ، اذ كان المجتمع واقعا تحت

الضغوط التي أشرنا إليها لا يكاد يملك من أمره شيئا ، والمنفلوطي نفسه عانى تجربة قاسية في أول شبابه اذ هجا الخديوى عباس الثانى بقصيدة طبع في منشور من غير توقيع ، وذلك عقب رحلة قام بها الخديوى في أوروبا ، قال المنفلوطي في تلك القصيدة :

قدوم ولكن لا أقول سعيد وملك وان طال المدى سيبد
علام التهاني ؟ هل هناك مآثر فتحمد أم سعى لديك حميد
تذكرنا رؤياك يوم تنزلت علينا خطوط من جدودك سود
رمتا بكم مقدونيا فأصابتنا مصوب سهم بالبلاء شديد
حوكم المنفلوطي ، واعترف بأنه قائل القصيدة وحكم عليه بالسجن سنة ، ثم خرج من السجن وراح يصور البؤساء والحزانى وكأنه يقول :
هذا هو مجتمعنا •

كان المنفلوطي يكتب مقالاته « النظرات » في جريدة المؤيد ، وجمعها بعد ذلك في ثلاثة أجزاء ثم اتبعها « بالعبرات » مجلدا واحدا • والنظرات مجموعة مقالات أكثرها مبنى على حكاية يحكيها ويعالج الموضوع الذي يقصد اليه من خلالها وبالتعقيب عليها • أما العبرات فهي مجموعة قصص قصيرة ، بعضها موضوع وبعضها مترجم ، والمترجم ملخص لروايات ، والقصص الموضوعية أشبه بروايات ملخصة ، فلم يكن في اهتمام المنفلوطي أن يكتب القصة القصيرة حسب أصولها من حيث التركيز حول وحدة الموقف المقصود • انما اتخذ القصة وسيلة الى معالجة الموضوع والتأثير في المثاعر وبث الافكار والآراء •• وفي بعض قصصه لمحات نقدية تقدمية سبق بها دعوات الى اصلاح أثرت بعد ، وتحقق أخيرا ما تدعو اليه ، مثل مجانية التعليم واشتراكية العلاج ، يقول في قصة « اليتيم » : « والمدرسة في هذا البلد حانوت قاس لا يباع فيه العلم نسيئة ، والعلم في هذه الامة مرتزق يرتزق منه المرتزقون لا منحة يمنحها المحسنون » وفي هذه القصة ينقد تأفف الطبيب لانه استدعى ليلا لمعالجة مريض يسكن في أزقة مظلمة ثم يقول : « وجلس ناحية يكتب ذلك الامر (الروشته) الذي يصدره الاطباء الى عمالهم

الصيدلة أن يتقاضوا من عبيدهم المرضى ضريبة الحياة ، ثم انصرف لشأنه بعد ما اعتذرت اليه ذلك الاعتذار الذي يؤثره ويرضاه « والاعتذار هنا هو المبلغ الذي دفعه اليه •

وقد قربت كتابات المنفلوطي بين فن القصة وبين الاساليب الادبية التي كان لها الاعتبار ، وقد انسلت بين المزددين لقراءة القصص والمعرضين عنها وجذبتهم اليها وأطلعتهم على عالم اخر من الادب ، اذ كان الكثير منهم يقرأها ويستمتع بها على انها أساليب رصينة كما كانوا وكان من قبلهم يعدون فن المقامة تعبيرا بليغا يمد قارئه بمحصول لغوى وقدرة على الكتابة الجزلة أكثر مما يعدونه فنا قصصيا ، ولكن مجالات الحياة العصرية المختلفة التي تناولها المنفلوطي أثارت الانتباه الى امكان الادب أن يغزو هذه النواحي ويضيف لفنونه القديمة الفنون القصصية الحديثة •

وكان هناك شبان ناشئون يقرأون الاداب الغريبة ويطلعون على روائع القصص فيها فلا يرضون عن كتابة المنفلوطي ، وبرغم ذلك افتتنت به جماهير القراء لسهولة اسلوبه وعذوبة كلماته وايغاله في العاطفية ودعوته الى الفضيلة والرحمة والحب والخير •

ومهما اختلفت الآراء في أدب المنفلوطي فالذي لا شك فيه انه خلق وعيا قصصيا سواء في جماهير القراء او الادباء المتطلعين الى الكتابة القصصية ، وهياً لفن القصة كي يأخذ مكانه بين فنون الادب العربي الحديث ، فقد كافحت القصة في هذا السبيل كفاحا شاقا وصادفت عقبات كثيرة لم تغلب عليها الا بعد اصرار ومثابرة طويلين •

رأى في الرافعي

« كان مصطفى الرافعي أديبا ساذجا ، أجهد نفسه في استعراض عضلاته اللغوية • لم يكن يعلم من أمور الحياة شيئا ، لم أجد في كتاباته مضمونا انسانيا عميقا يتصل بحياة الناس أو مشاكل العصر •• كان يتوهم الحب ويكتب عنه ، فما أنتج غير أدب مصطنع من شأنه أن ينفر الناس من هذه العاطفة • وقد عاش على هامش الحياة ففقد مقومات الأديب الحق • »

آراء جريئة في أدب الرافعي قالها الكاتب المعروف عباس خضر في تحليله لشخصية الأديب وحياته وأعماله •

قال : لا أدري لماذا لم يعجبني الرافعي فانصرفت عنه بعد قراءة بعض مؤلفاته ؟ لقد سألت نفسي : ماذا يريد الرافعي أن يقول لنا في كتبه العديدة التي أثمرت إعجاب البعض مثل « حديث القمر » و « السحاب الأحمر » و « اوراق الورد » ؟ لقد وجدت نفسي أمام كاتب يفرقني في بحر من ألفاظ اللغة المتقاة وألوان الاستعارة والكتابة المصطنعة وهو يكتب عن تجربة ذاتية محضة •

لم أجد في كتابات الرافعي مضمونا انسانيا عميقا يتصل بحياة الناس أو مشاكل العصر •• بل ان من يقرأ « رسائل الرافعي » التي أرسلها لأحد تلامذته « أبي ربه » ليحس أنه أمام رجل طيب ساذج لا يعلم من أمور الحياة شيئا • ويجب أن نلاحظ ان هذه الرسائل كتبها الرافعي وهو منطلق على طبيعته ، دون تكلف أو تعقيد ، اذ لم يكن يدري أن تلميذه سيضمها لنشر فيما بعد بين دفتي كتاب •• ولذلك فهي أقدر على كشف حقيقة الرجل وتبيان طبيعته وفهمه لمختلف أمور الحياة •

ومما يدلنا على تصور فهم الرافي لمفهوم الادب ورسالته .. تلك الرسالة التي يشرح فيها لتلميذه « أبي ربه » كيف يصبح أدبياً فحلاً يشار اليه بالبنان .. يقول الرافي لتلميذه ما معناه :

إذا أردت الوصول الى المستوى الأدبي الذي تأمله فيجب عليك الاطلاع على كتب الفحول القدماء ، ثم عليك أن تختار من أحدها نصاً أدبياً فتقرأه مراراً ثم تحذف بعض عباراته وتحاول أن تأتي من عندك بما يسد مسدها .. وكرر ذلك حتى تحس بأنك استطعت أن تجارى الكاتب في أسلوبه ، فإذا نجحت في ذلك فابدأ في معارضة النص الأدبي بأسلوبك الخاص الذي يلائم أسلوب الكاتب .

وإذا حاولت الانشاء فاقراً أولاً في أحد كتب القدامى بعضاً من الوقت ثم ابدأ في الكتابة ... فلو طبقت ذلك فقد تصل بعد عام الى ما تصبو اليه .. وهكذا يتضح لنا فهم الرافي للادب ومقوماته .. فكل ما يهمه هو الملم الكاتب باللغة وتطويعه لأساليبها ولا شيء غير ذلك ..

ويقال ان رسائل الرافي في فلسفة الحب والجمال التي ضمتها كتبه جاءت من وحي الكتابة « مي زيادة » ولم يثبت حتى الآن ما يدل على اتصاله بهذه الأدبية .. أى أن حبه لها كان من جانب واحد . فقد كان يكتب الرسائل ويرد عليها هو بنفسه . بل لقد كشفت لنا رسائل الرافي الى تلميذه « أبي ربه » أن الرافي كان يصطنع هذا الحب لمجرد استيحاء ما يكتبه . والانسان لا يؤمن بحب مع سبق النية ... لا يعقل أن أنوى مثلاً حب انسانة ما لا أراها أو اتصل بها لكي أستوحي منها كتاباتي .. فهذا حب متكلف مصطنع لا يمكن أن ينتج غير أدب مصطنع كذلك الأدب الذي كتبه الرافي ولا يقصد به غير استعراض (عضلاته اللغوية) ..

بل ان ذلك الأسلوب المعقد الذي عالج به الرافي عاطفة الحب الجميلة التي تغمر أبسط القلوب من شأنه أن ينفر القارئ من هذه العاطفة حين عرضها في مثل أسلوب الرافي !

وليس الرافي وحده هو الذي خدّم اللغة العربية وحفظ تراثها ، فهناك

كتاب كثيرون عاصروا الرافعي وخدموا اللغة وما زالوا يخدمونها بأسلوبهم السهل اليسير ، دون تعقيد واصطناع •• وعلى رأسهم طه حسين وغيره •• وأستطيع أن أدلل على غفلة الرافعي وعدم وعيه بحياة المجتمع وادراكه لمشاكله بتلك الواقعة التي رواها بعض تلاميذه • فقد توجهوا اليه ذات يوم ودعوه لمشاهدة راقصة جميلة في أحد ملاهي طنطا ، بحجة أنها من الممكن أن توحى اليه بكتابه شيء جديد • فلما اعتذر الرافعي لئذينه ، حضروا اليه بعد أيام ليقولوا له : ان الراقصة الجميلة من نوع جديد • فهي مؤمنة بمدينة لا تكاد تنتهي من عملها بالملهى حتى تقضى بقية يومها في الصلاة والعبادة ، بل أن رقصها نفسه لون من العبادة !

وخدع الأديب الساذج وتوجه معهم الى الملهى حيث شاهد الراقصة وكتب عنها احدى مقالاته تحت عنوان « في النار ولا تحترق » ! وبعد أيام سأل عن الراقصة فعرف أنها كانت متزوجة وأنها تركت عملها وزوجها وفرت مع عشيق لها ! فلما سئل هو عنها قال : لقد احترقت !

وهكذا كان الرافعي يعيش على هامش الحياة غارقا بين كتبه لا يدرك مما حوله شيئا ، وهذه ليست مقومات الأديب الكامل ، الذي تستلزم رسالته الوعي بكل ما يتصل بالحياة •

الفهرس

الصفحة

(القسم الاول)

الواقعية في الادب « المقدمة »	٣
الادب والثورة	٢٤
بين الشكل والمضمون	٣٤
المضمون الجديد والشكل الجديد	
تعقيب	
تجديد الشكل في الشعر والمسرحية	٤٥
خصائص القصة القصيرة	٥٥
القصة العربية الحديثة ولماذا تأخر ظهورها ؟	٦٠
حديث خرافة	٦٧
الفلاح في القصة	٧٢
بين مسلم ومسيحي في قصة مصرية	٧٧
اختلافهم نهضة	٨٢
العقاد والنقاد	٨٦
على ضوء تجربتي في التفرغ	٩٠
بيت الطاعة في أول قصة تناولته	٩٤
نحن الآن نعيش بلا شعر	٩٨

(القسم الثاني)

نظرات في كتب	١٠٣
الرمز في « الجنة العذراء » و « الطريق »	١٠٥
الذاتية والموضوعية في « ليل له آخر »	١١١
قاب قوسين : ديوان محمود حسن اسماعيل	١١٧
« عيسى بن هشام » والفن الروائي .	١٢٥

هل احسان عبدالقدوس مفترى عليه ؟	١٢٩
محمود طه لاشين	١٣٤
محمد تيمور - رائد القصة القصيرة	١٥٦
الرائد القصصي - شحاته عبيد	١٦٠
محمد عبدالحليم عبدالله - نشأته وانعكاسها في أدبه	١٧١
نجيب محفوظ - نشأته وانعكاسها في أدبه .	١٨١
زكي مبارك - الفلاح المصارع	١٨٨
عائشة التيمورية .	١٩٣
مصطفى لطفى المنفلوطي	٢٠٠
رأي في الرافعي .	٢٠٤

وزارة الثقافة والإرشاد

مديرية الثقافة العامة

صدرت عن مديرية الثقافة العامة في وزارة الثقافة والإرشاد المطبوعات التالية :

الثلث

فلس دينار

أولاً - سلسلة كتب التراث

- ١ - الدر النقي في علم الموسيقى : للقادري الرفاعي الموصلية
وتحقيق الشيخ جلال الحنفي - ٥٠ -
- ٢ - ديوان عدي بن زيد العبادي : تحقيق وجمع السيد
محمد عبد الجبار المعبد - ٣٠٠ -
- ٣ - مهذب الروضة الفيحاء في تواريخ النساء
لياسين بن خير الله العمري - تحقيق السيد رجاء
السامرائي - ٣٠٠ -

ثانياً - سلسلة الكتب المترجمة

- ١ - الاصطلاحات الموسيقية : تأليف أ. كاظم
نقله الى العربية عن التركية : ابراهيم الداوقي
ملحق - ١ - المستدرك على الاصطلاحات الموسيقية :
للمؤلف نفسه وتعريب ابراهيم الداوقي - ١٠٠ -
- ٢ - رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر
نقله الى العربية عن الالمانية الدكتور محمود حسين الامين
قدم له وعلق عليه السيد سالم الآلوسي - ٢٠٠ -

ثالثاً - سلسلة الكتب الحديثة

- ١ - رائد الموسيقى العربية : تأليف عبد الحميد العلوجي - ٢٠٠ -
- ٢ - معجم الموسيقى العربية : تأليف الدكتور حسين علي محفوظ - ٢٠٠ -
- ٣ - جولة في علوم الموسيقى العربية : تأليف الاستاذ ميخائيل
خليل الله ويردي - ٥٠ -
- ٤ - الحرية : تأليف ابراهيم الخال - ١٠٠ -

- ٥ - موجز دليل آثار سامراء : اعداد سالم الآلوسي
- ٥٠ -
- ٦ - موجز دليل آثار الكوفة : اعداد سالم الآلوسي
- ٥٠ -
- ٧ - النظام القانوني للمؤسسات العامة والتأمين في القانون العراقي : تأليف الاستاذ حامد مصطفى
- ٣٥٠ -
- ٨ - علي محمود طه ٠٠٠ الشاعر والانسان :
- ٢٠٠ -
- تأليف انور المعداوي
- ٩ - مؤلفات ابن الجوزي : تأليف عبد الحميد العلوي
- ٢٥٠ -
- ١٠ - أبو تمام الطائي : تأليف الاستاذ خضر الطائي
- ١٥٠ -
- ١١ - من شعرائنا المنسيين : تأليف الاستاذ عبدالله الجبوري
- ٢٠٠ -
- ١٢ - محمد كرد علي - تأليف الاستاذ جمال الدين الآلوسي
- ٣٠٠ -
- ١٣ - أدباء المؤتمر - للاستاذ عبدالرزاق الهلالي
- ٢٠٠ -
- ١٤ - بدر شاكر السياب - للاستاذ عبدالجبار داود البصري
- ١٥٠ -
- ١٥ - الواقعية في الادب : تأليف الاستاذ عباس خضر
- ٢٠٠ -

رابعا - سلسلة الثقافة العامة

- ١ - المواسم الادبية عند العرب : تأليف عبد الحميد العلوي
- ١٠٠ -
- ٢ - الادباء العراقيون المعاصرون وانتاجهم :
- ٥٠ -
- تأليف السيد سعدون الرئيس
- ٣ - تطور الحركة الوطنية التونسية منذ الحماية حتى الاستقلال : تأليف الدكتور لؤي بحري
- ٥٠ -
- (نفدت نسخه)
- ٥٠ -
- ٤ - العلم للجميع : اعداد كامل الدباغ

خامسا - سلسلة ديوان الشعر العربي الحديث

- ١ - اللهب المقفى - شعر حافظ جميل
- ٣٥٠ -
- ٢ - غفران - شعر محمد جميل شلش
- ٢٥٠ -